# المجالس الأدبية فى العصر الأموى

## وأثرها فى النقد الأدبى

الدكتور

مصطفى مصطفى البسطويسى عطا

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ أوزعنى أن أشكرَ نعمتك التى أنعمتَ علىَّ
وعلى والدىَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه ، وأصلِحْ
لى في ذريتى إنى تبتُ إليك وإنى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم



## ﴿ مقدمة ﴾

الحمد لله الذى خلق الإنسان،وعلمه البيان . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وأشرف خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد النبى العربى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فالعصر الأموى عصر تميز بأنه عصر إحياء لتراث عـــربى طويــل وضعه العرب فى العصر الجاهلى وفترة صدر الإسلام . وهو عصر شـــهد المجتمع العربى فيه صورا عديدة من التجديد والتطور شملــت مســتويات وأبعادا مختلفة . وقد انعكس هذا كله على الدراسات الأدبية التى تنـاولت أدب هذا العصر من زوايا مختلفة .

والعصر الأموى عصر تصارعت فيه الأهـــواء ، وتعــددت فيـــه النزعات ، واهتزت فيه وحدة الأمة الإسلامية،وعادت إلى الحيـــاة فيـــه عصبيات قبلية ، مع بداية نهضة حضارية أخذت تســـعى إلى النـــهوض لتواكب الأمم التى سبقت أمة العرب إلى ميـــادين الحضـــارة والفكـــر والثقافة...

وفى هذا العصر تضافرت عوامل سياسية واجتماعيـــة وثقافيـــة فى توجيه الشعر وتقويمه إلى أفضل السبل ، وأصح الاتجاهــات . وتعــددت الدراسات الأدبية التى تناولت أدب العصر الأموى بالدراســـة والنقــد والتحليل ، وتبيان ملامحه ومميزاته ، ومــدى تــأثره بالحيــاة السياســية والاجتماعية والثقافية التى تطورت كثيرا فى هذا العصر .

وقد عرف العصر الأموى بكثرة المجالس والمنتديات الأدبيـــة الــتى كانت تنعقد فى المدن والحواضر العربية من مثل مكة ، والمدينة ، ودمشــق ، والبصرة ، والكوفة . كما نهض النقد الأدبى فى العصر الأموى بفضـــل اهتمام الخلفاء ومن قلدهم فى مجالسهم الأدبية . وكذلك لاهتمام النـــاس فى منتدياتهم ومجامعهم فى غير تلك المجالس بالمفاضلة بين الشعراء ، كالذى كان يحدث بالنسبة لشعراء النقائض كجرير والفرزدق والأخطل ؛ فكــان الاهتمام بالشعر وروايته ونقده عاما لدى الناس فى كل بيئة ومدينة مـــن بيئات ومدن المجتمع العربى فى هذا العصر .

ومع تعدد الدراسات الأدبية وتناولها للجوانب المختلفة التى تتصـــل بالعصر الأموى وأدبه ، إلا أننى لاحظت خلو الساحة الأدبية من دراســـة مستقلة للمجالس والأندية الأدبية التى ازدهرت وكثرت فى هذا العصــر ، بل ولم تقع عينى على دراسة مستقلة للمجالس والأندية الأدبية وأثرهــا فى

الأدب العربى القديم كله غير تلك الدراسة التى قام بها الدكتور على محمد هاشم بعنوان : " الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجرى " ، والتى كان قد أعدها لنيل درجة الماجستير فى الأدب العربى من كلية الآداب بالجامعة اللبنانية فى عام ١٩٧٨ م.

أما غير هذه الدراسة فلا يوجد غير بعض الإشارات المتفرقة إلى تأثير المجالس الأدبية فى أدب العصور القديمة فى الأدب العربى ، والحديث المختصر عنها كعامل من عوامل التأثير فى الأدب فى تلك العصور ، وغير نصوص هذه المجالس فى بعض كتب التراث من مثل كتاب الأغانى للأصفهانى ، وكتاب الموشح للمرزبانى ، وزهر الآداب للحصرى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وغيرها ، والتى من خلال مطالعاتى لها وقفت على كثرة هذه المجالس وأعجبت بما كان يدور فيها من حوارات ونقاشات ، وما ينتج عنها من حصيلة أدبية ونقدية راقية .

ولما كان الأمر كذلك رأيت أن أتناول هذا الجانب فى هذه الدراسة حول مجالس الأدب فى العصر الأموى وأثرها فى النقد الأدبى العربى ، على أن تليها دراسة لاحقة فيما بعد إن شاء الله عن المجالس والأندية الأدبية فى غير العصر الأموى .

وقد وجدت أن المجالس الأدبية فى العصر الأموى تحوى ذخائر قيمة

من التراث النقدى إلا أنها منثورة لم يجمعها عقد ، ولم توضع تحت عنـــوان أو مصطلح من المصطلحات النقدية التى عرفت بها بعد . وهــــذا راجـــع بطبيعة الحال إلى عدم معرفة العرب حتى فيما بعد العصر الأموى بمثل هذه المصطلحات الأدبية والنقدية .

ولم يقف نقد النقاد فى هذه المجالس عند حد الصياغة والشـكل ، أو عند الكلام عن معانى الألفاظ ، بل مضوا يتفهمون الشعر ويتذوقونــــه ، ويفصحون عما يمتاز به شاعر عن آخر ، ويوازنون بين بعض الشـــعراء ، ويفضلون بعضهم على بعض . بل وأدركوا أثر البيئة الاجتماعية فى شـــعر الشاعر . مع ملاحظة أن أكثر النقد الذى صدر عن هذه المجالس كـــــان متعلقا بالشعر وتقويمه وقضاياه .

أما النثر فكان نصيبه من هذا النقد يسيرا ضئيلا وهذا فى نظـــرى أمر طبيعى لأنه من شبه المسلم به أن النقد الأدبى القديم ارتبط إلى حـــــد كبير بالشعر والنظر فيه ؛ لأن الشعر ديوان العرب ونتاجهم الفـنى الأول، وتراثهم الذى حرصوا عليه ، واتخذوا منـــــه أداة للمباهـــاة والمفـــاخرة والمنافرة، وقليلا ما نعثر على نقد ارتبط بمنثور العرب الـــذى لم يحـــافظوا عليه حفاظهم على الشعر .

كما كان معظم النقد الذى صدر فى هذه المجالس فى العصر الأمـوى

من نوع النقد الذاتى الذى تمليه الفطرة الناقدة والذوق الحصيف ، والذى يعبر فقط عن استحسان الناقد أو استهجانه لما يستمع إليه من شعر . وكان هذا اللون من النقد متمشيا مع بيئة الناقد وثقافته وذوقه فى ذلك العصر ؛ فجاءت أحكامهم على ما ينقدونه دالة على أذواقهم ، وعلامة على رؤاهم النقدية ، وهى رؤى كانت ترتد إلى السليقة والفطرة ، وليس إلى الحجة والبرهان إلا فى قليل من الأحيان .

هذا وقد فرضت علىّ طبيعة هذه المجالس وتنوع موضوعاتها تقسيم البحث فيها إلى سبعة فصول ، سبقها تمهيد حول أبرز معالم الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية فى العصر الأموى وأثرها فى كثرة عقد المجالس الأدبية فى هذا العصر ، وفى مفهوم المجالس الأدبية وتاريخها فى الأدب العربى .

وجاء الفصل الأول فى الحديث عن المجالس الأدبية حول شعر المديح ونقده . والفصل الثانى فى الحديث عن المجالس الأدبية حول شعر الغزل ونقده . والفصل الثالث فى الحديث عن المجالس الأدبية حول شعر الوصف ونقده . والفصل الرابع فى الحديث عن المجالس الأدبية حول شعر الفخر ونقده . والفصل الخامس فى الحديث عن المجالس الأدبية حول شعر الهجاء ونقده . والفصل السادس فى الحديث عن المجالس الأدبية حول

شعر الرثاء ونقده .

وفى كل فصل من هذه الفصول عرفت بالفن الذى يـــدور حولـــه الفصل ، وأهم شروط جودته ، ونظرة النقاد العرب إليـــه . ثم ذكـــرت أمثلة من المجالس الأدبية حول الفن الأدبى موضوع الفصل ، وما يشير إليه كل مجلس من إشارات نقدية .

أما الفصل السابع فعن المجالس الأدبية فى المفاضلة بـــين الأشـــعار والشعراء . وبدأته بالحديث عن الموازنات ووجودهـــا فى النقـــد الأدبى القديم، ثم تحدثت فيه من خلال المجالس الأدبية عن المفاضلة بين الأشـــعار من ناحية ، وعن المفاضلة بين الشعراء من ناحية أخرى .

وختمت البحث بتقويم تضمن أهم ما خرجت به من نتائج حـــول دراسة المجالس الأدبية فى العصر الأموى وأثرها فى النقد الأدبى . ولم أنـــس أن أضع فهرسا لمراجع البحث التى رجعت إليها ، ثم فهرسا آخر لفصـــول البحث وموضوعاته .

وقد هذبت ما تناولته وتحدثت عنه حسب الطاقة . وكل أملـــى أن أكون قد وفقت فيما أردته وقصدت إليه ، وأعطيـــت القـــارئ صـــورة معقولة عن المجالس الدبية فى العصر الأموى ومدى إســـهامها فى النقـــد الأدبى . وإن كان هناك من تقصير فحسبى أننى اجتـــهدت وبذلـــت فى

البحث ما استطعت من جهد . ورجائى من القارئ الكريم أن يغفر لى مـــا قد يجد من زلة أو عيب . فليس فى الدنيا برئ من جميع العيوب .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلـــه نافعا مقبولا . إنه – تعالى – سميع مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

" وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

دكتور

مصطفى مصطفى عطا

٧ / ٢ / ٢٠٠٣ م

# تمهيد

## أ - أبرز معالم الحياة فى العصر الأموى وأثرهـــا فى كـــثرة عقـــد المجالس الأدبية:

لما كان للنواحى السياسية ، والثقافية ، والعلاقات الاجتماعية أثرها فى توجيه الدراسات الأدبية فى أى عصر من العصور ، كان من المناســـب الإشارة إلى أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية ، والثقافية والعلمية فى العصـــر الأموى للوقوف على أهم تأثيراتها فى عقد المجالس الأدبية وكثرتها فى هـــذا العصر .

فمن المعروف أنه توجد علاقة قوية بين الأدب ودراسته فى عصر ما، وبين أحداث الحياة وظروف البيئة فى ذلك العصر ؛ فهناك تجاوب عميـــق وارتباط وثيق بين هذين الطرفين . فالدراسة التاريخية للعصر تساعد علـــى تفسير كثير من المفاهيم المتصلة بدراسة الأدب والاتجاهات التى سار فيـــها والوقوف على العديد من خصائصه الفنية . كما أن الأدب - وخاصـــة الشعر - فى أى عصر من عصوره يخضع فى مختلف أدوار حياته لتطـــور الحياة فى هذا العصر فى النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والثقافيـــة ، والحضارية ، والاقتصادية . فالتغيرات التى تطرأ على المجتمـــع فى هـــذا

النواحى تفرض على الأدب كثيرا من التغيرات والاتجاهات والموضوعات. كما تؤثر على الأدب - وخاصة الشعر - فى صوره وألفاظه ، وأساليبه ، ومعانيه .

ومن هنا فالواجب على دارس الأدب الأموى - والشعر فيه خاصة - أن يتصدى - أولا - لرصد التطورات التى طرأت على الحياة العربية الإسلامية فى هذا العصر ليوضح دورها فى توجيه الشعر فيه .

- قامت الدولة الأموية بعد مقتل الخليفة الراشد الرابع علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وما أعقبه من تنازل الحسن بن علىّ عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان فى شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية . وظلت الدولة الأموية تحكم العالم الإسلامى قرابة اثنين وتسعين عاما حتى سقطت فى عام اثنين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية ، وتولى الخلافة فيها أربعة عشر خليفة ، أولهم معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ( ٤١ - ٦١ هـ ) وآخرهم الخليفة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ ) . واتخذ الأمويون من دمشق فى بلاد الشام عاصمة لدولتهم طوال فترة حكمهم ، وحولوا الخلافة إلى ملك وراثى بعد إلغاء نظام الشورى فى تولية خليفة المسلمين . وأول من تحمل وزر هذه البدعة واقتدى به الخلفاء من بعده فيها معاوية بن أبى سفيان الذى

أخذ البيعة لابنه يزيد على كره من المسلمين.وتولاها يزيد بعد وفاة أبيه سنه ٦١هـ. وكان هذا دافعا لزيادة حدة التفرقة والانقسام بين المسلمين ، وزيادة عدد الأحزاب المتناحرة فى المجتمع الإسلامى .

كما عمل الأمويون على إحياء العصبيات القبلية القديمة بعد أن أخمد الإسلام جذوتها ليشغلوا الناس بها عن النظر فى الخلافة .

وبناء على هذا فقد تغير وجه الحياة كثيرا فى الدولة الإسلامية فى العصر الأموى عما كان عليه فى عصر صدر الإسلام ؛ فقد كانت الشريعة الإسلامية والقانون الروحى هو أساس حكم المجتمع الإسلامى فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده . وكان المجتمع آنذاك أسرة واحدة ، ولم يعرف فيه بين المسلمين ما يسمى بالخلاف الفكرى أو المذهبى ؛ أما فى العصر الأموى فقد تحول المسلمون إلى أمة مختلفة الأهواء متعددة المنازع . وكان أهم ما يميز الحياة السياسية فى هذا العصر هو هذا الانقسام الحزبى الذى حدث فى حياة الجماعة الإسلامية والخلاف بين طوائف المجتمع خلافا أدى إلى تفتيت المجتمع وانقسامه إلى فرق متناحرة وشيع متنافرة .

وهذا الانقسام والتصدع داخل الحياة السياسية وإن كان نقمة خطيرة ومصيبة كبرى أصابت وحدة الأمة الإسلامية فى العصر الأموى إلا

أنه كان خيرا وبركة على الأدب بعامة وعلى الشعر خاصة فى هذا العصر. "حيث تنافست الأحزاب فى اصطناع الشعراء ، واتخاذ الشعر سلاحا قويا لنشر دعوة الحزب وآرائه ، والإشادة بسياسته ، وإظهار تأييده ونصرته ، ومناهضة خصومه ؛ فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة وأفكار ومبادئ مورثة ومستحدثة ؛ فأثروا فى الشعر العربى من هذه الناحية تأثيرا كبيرا ؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسى " [1] .

كما كان لهذا الانقسام أثره فى عقد الكثير من المجالس الأدبية التى حاول قادة الأمويين من خلالها جذب الناس – وفى مقدمتهم الشعراء – إلى جانبهم والاطمئنان إليهم وضمهم إلى صفوفهم . وقد تحقق لهم ما أرادوا ؛ ففازوا بأكثر ما قيل من الشعر السياسى فى هذا العصر ، ووقف بجانبهم أكبر عدد من شعراء العصر الذين التفوا حولهم طمعا فى عطائهم ، وحبا للحوار فى مجالسهم. فسياسة بنى أمية مع الشعراء ، وحرصهم على تأليف قلوبهم بالجوائز السنية ، والعطايا السخية ، جعلت قلوب كثير من الشعراء – حتى من شعراء الأحزاب الأخرى – تهفو إلى أموالهم وإن كانت عواطفهم ومشاعرهم مع غيرهم .

---

١ – اتجاهات الشعر فى العصر الأموى – د / صلاح الدين الهادى – مكتبة الخانجى بالقاهرة – ط ١ / ١٩٨٦ م – ص ٣١ .

" وقد حاول الشعراء فى عصر الأمويين أن يتحرروا ، وأن يفلتوا من التقاليد الجديدة . ومكن لهم الأمويون لاعتمادهم على النزاع القبلى فى تثبيت حكمهم ، ولأنهم كانوا عربا أقحاحا لا تزال دماء القبيلة تجرى فى عروقهم ، ولا تزال عصبيتهم للتقاليد العربية متمكنة من نفوسهم ؛ فقويت الروح العربية القبلية وإن كانت الروح الإسلامية قد خففت من غلوائها ، وحدت من طغيانها .

واهتم خلفاء بنى أمية بالشعر والشعراء اهتماما كبيرا ؛ لاعتمادهم عليهم فى الدعوة لهم ، وإقامة دعائم دولتهم ، ومن ثم ظهرت صور الاهتمام فى قصورهم ومجالسهم . وكان للشعراء جانب مذكور فى تلك المجالس ؛ يستنشدهم الخلفاء ، ويحكمون بينهم وينقدون شعرهم ، ويجيزون المجيد منهم بالجوائز السنية " (١) .

ــ أما عن الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى فمن الملاحظ أنه منذ انتقال الخلافة إلى الشام تطور المجتمع العربى تطورا كبيرا ، وخطا العرب إلى الأمام فى سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية ؛ فتغيرت مظاهر الملك، وابتنى الخلفاء والأمراء الدور والقصور ، وأقاموا الحجاب

---

١ - تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى آخر القرن الرابع الهجرى - د / محمد زغلول سلام - منشأة المعارف بالإسكندرية - ط ٣ - بدون تأريخ - ص ٨٨ .

والحراس ، وأحيوا من المناقب العربية كل ما يعينهم على تدعيم السيادة الأموية على العالم الإسلامى . كما أحاط بنو أمية أنفسهم بحياة مترفة ناعمة لاهية ، وزادوا من الأخذ بأبهة الملك وفخامته ورسومه . وبعد أن كان العرب فى المدينة فى عهد الخلفاء الراشدين يحسبون التجافى عن الرفه والرخاء واجبا دينيا صاروا فى الشام يتأنقون فى أسباب الحياة الحضرية ؛ فلبسوا الحلل المزركشة ، وأقاموا الأبنية المشيلة ،وانصرف كثير منهم إلى الملاهى . وعم ذلك اللهو الحواضر الكبرى فى الدولة كالبصرة ، والكوفة ومكة ، والمدينة ، فضلا عن دمشق.وشاعت فى هذه الحواضر موجة الغناء واتخاذ الجوارى والإماء ، وطعموا فى آنية الذهب والفضة ، وتعطروا بالمسك وغيره من أنواع الطيب . وكان الموالى يهيئون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض المترفين حتى فى مناسك الحج .

وهذا الإقبال من الأمراء ومن دونهم على الدنيا ومتاعها كان له تأثير كبير فى ازدهار الصناعة والتجارة ، وفى قوة الأدب كذلك ؛ فامتلأت دمشق وغيرها من الحواضر الكبرى بالصناع والتجار والمغنين والجوارى والشعراء ؛ مما أحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها العرب من قبل .

وتميزت الحياة الاجتماعية فى البيئتين الشامية والحجازية فى العصر الأموى بوجود ضروب من اللهو والغناء لم تتوفر فى غيرهما من البيئات فى هذا العصر .

ففى الحجاز وتحت تأثير الترف وطول وقت الفراغ تكونت موجة غناء شديدة شارك فيها العرب والموالى ، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام . ويخيل لمن يقرأ كتاب الأغانى وغيره أنه لم يعد للناس فى مكة والمدينة فى العصر الأموى من عمل سوى الغناء وسماعه والاستماع إلى أشعاره .

وكان شعر شعراء الحجاز والشام أغلبه فى هذا العصر من شعر الغزل وشعر الغناء الذى يؤلف ليكون فى خدمة هؤلاء المغنين أولاً . ومن يقرأ شعر عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات ، والعرجى فى مكة ، والأحوص فى المدينة ، والوليد بن يزيد فى دمشق يرى أن شعر هؤلاء يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة . فقد بنى العرب القصور ، واكتظت هذه القصور بالجوارى والإماء الأجنبيات من كل لون ، وأترف ذوقهم ورق شعورهم ، وأنشد الشعراء فى ذلك الكثير من الأشعار التى تعبر عن ذوقهم وترفهم ونظرتهم الجديدة إلى الحياة .

وإذا ما تركنا الحجاز والشام ومدنهما الكبيرة إلى نجد وجدنا العرب

يعيشون هناك كما كان يعيش آباؤهم من قبل معيشة فيها شظف وحرمان أسبغ عليها الإسلام روحانية أحدثت سموا فى النفوس ؛ وسموا فى نظرة الرجل المحب إلى المرأة المحبوبة . وشاع فى هذه البيئة لون من الغزل الذى تميز عن غزل الحجاز والشام بعفته وطهارته ، فلم يعرف العرب فى هذه البيئة البدوية ترف الحجاز والشام ، ولم تفسد أذواقهم الحضارة ؛ بل رقق الإسلام نفوسهم وصفاها . فكان طبيعيا أن يجئ غزلهم بعيدا عن الإباحية والصراحة ، معبرا عن نفوسهم وحياتهم . وتقص علينا كتب الأدب والتاريخ كثيرا من قصص هؤلاء الشعراء العذريين الذين ينتمى أغلبهم إلى بنى عذرة ، أو بنى عامر.[1]

" وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضرا واسعا رغم احتفاظهم بعصبياتهم ؛ إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحولت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان " [2] . ولذلك نرى سكان البصرة من الموالى والعرب يتنافسون فى بناء القصور الفخمة ويتأنقون فى تشييدها وإحاطتها بالحدائق والبساتين .

---

١ - اقرأ كتاب : التطور والتجديد فى الشعر الأموى - د / شوقى ضيف - دار المعارف - ط ٦ - بدون تأريخ ص ١٠١ وما بعدها .

٢ - العصر الإسلامى - د/ شوقى ضيف - دار المعارف - ط ٨ - بدون تاريخ - صـ ١٩٦.

كما أصاب العرب الذين نزلوا مصر والقيروان والأندلس حظا لا بأس به من الحضارة والترف والنعيم فى العصر الأموى .

وهذه الحركة العمرانية المزدهرة ، وهذا التقدم والتطور الحضارى اللذان عما أرجاء الدولة الإسلامية فى العصر الأموى ما كانا ليتحققا لولا انتعاش الجانب الاقتصادى فى عهد الدولة الأموية وكثرة موارد الثروة لهذه الدولة .

ولكن من الحق القول بأنه مع ذلك التقدم الحضارى ، ومع تقدم المجتمع ورقيه فى العصر الأموى بقيت للبداوة نزعة فى نفوس الأمويين ، فلم يكن خلفاؤهم وأمراؤهم يترفعون عن معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسماح لهم بالكلام عندهم والاستماع إليهم ، حتى ولو كان فى كلام بعضهم مالا يليق بمخاطبة الخليفة ولا يكلم به الحكام . فقد روى الجاحظ أن رجلا من بنى مخزوم – وكان زبيريا – دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك : " أليس قد ردك الله على عقبيك ؟ فقال له الرجل: أو من رُدَّ إليك فقد رُدَّ على عقبيه ؟ ! فاستحيا وعلم أنه قد أساء"[1].

---

١ – البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – ١٩٩٠ م – ٤ / ٠٧٥ .

ومع ما جلبته عليهم الفتوح من مال ، وما مهدت لهم من سبل الحضارة ؛ إلا أنهم لم يخرجوا خروجا تاما عن منازع البادية فى حياتهم غير أنهم توسعوا كثيرا فى الملاهى ؛ فانتظمت الأمصار موجة قوية من الغناء واللعب على الآلات ، ونشأت فى المدن المختلفة - ولا سيما مدن الحجاز - مجالس وحلقات خاصة تضم جماعات من المغنين والمغنيات اتخذت من الغناء مهنة للارتزاق . وجاء فى كتاب الأغانى أن عبد الحكيم بن عمرو الجمحى اتخذ بيتا فى المدينة فجعل فيه شطر نجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادا،فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم [1] .

وكان الخلفاء فى دمشق يعملون على تنشيط حركة اللهو والغناء . وذكر المسعودى أنه فى أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء فى مكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب [2] . وأشهر الخلفاء انغماسا فى ذلك : سليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد ابن يزيد . وفى أيامهم كثرت الملاهى ولم تنحصر فى الخاصة ، بل تعدتهم إلى العامة .

---

١ - الأغانى - أبو الفرج الأصفهانى - الدار التونسية للنشر - تونس - طبعة عام ١٩٨٣ م/ ٤ / ٥٢ .

٢ - مروج الذهب-المسعودى-المطبعة البهية المصرية - طبعة عام ١٣٥٦هـ -٢/٩٤.

ومن مظاهر التطور الاجتماعى فى العصر الأموى نشوء دور التعليم، وازدياد عدد المتعلمين فيها ؛ فقد كان العرب فى أول أمرهم أميين لا يعرف القراءة والكتابة منهم إلا عدد محدود . ثم أخذ عددهم يتزايد مع مرور الوقت وزادوا وتضاعفت عددهم مرات ومرات فى العصر الأموى . يقول ابن خلدون فى ذلك: " لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار ، وملكوا الممالك ، ونزلوا البصرة والكوفة ، واحتاجت الدولة إلى الكتابة ، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه . فترقت الإجادة فيه واستحكم ، وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان"[1].

فالعصر الأموى كان عصر انتقال اجتماعى تطورت فيه الكثير من عادات العرب ومعارفهم ، ودخل اللغة العربية فيه كثير من المصطلحات الإدارية والاجتماعية والعلمية التى لم يكن للمجتمع العربى عهد بها من قبل .

وهذه الحياة الرغدة المترفة التى كان يعيشها معظم أبناء المجتمع اقترن بها فراغ هائل وخاصة فى البيئة الحجازية ؛ إذ كانت الدولة منصرفة

---

١ - مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - دار الفكر - بدون تاريخ - ص ٤١٩.

عنهم وقلما استخدمت منهم أحدا فى شئونها ، لعلم الأمويين بمعارضتهم لهم - هذا الفراغ كان عليهم أن يملأوه . وقد ملأه الكثيرون منهم بفنون من اللهو كان الغناء على رأسها ، وملأه بعضهم ببعض الهوايات المحببة كطيران الحمام ، والرمى بالبندق ، أو بلعب النرد والشطرنج . أما المثقفون وهواة الأدب من أبناء المجتمع فقد شغلوا وقت فراغهم بمدارسة العلوم والفنون ، وعقد المجالس العلمية التى يتحاور المجتمعون فيها فى مسائل العلوم المختلفة ، بجانب تناول العديد من قضايا الشعر والأدب .

- أما عن الحياة العقلية والفكرية والثقافية فقد نشطت كثيرا فى العصر الأموى ، وأثرت إلى حد بعيد فى توجيه النتاج الشعرى فى هذا العصر ، وفى تغذية عقول شعرائه بألوان من الفكر والثقافة والتى كان لها صدى قوى فى أشعارهم .

فقد نشطت حركة تعليم القراءة والكتابة فى هذا العصر ، ونشأت فى مساجد الحواضر حلقات تعليمية كان فيها معلمون للصبيان ؛ مما أدى إلى نهضة علمية عظيمة نشطت معها حركة النسخ والتدوين ، وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية لعلوم الدين واللغة ، كما بدأت فى هذا العصر حركة النقل والترجمة . وأول من قام بذلك خالد بن يزيد [(١)]

---

١ - انظر : الفهرست لابن النديم - طبعة دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٨ م - ص ٤٩٧ .

ويذكر ابن النديم أن سالما كاتب هشام بن عبد الملك نقل بعض رسائل أرسطو ، وذكر كتبا فى مواضيع مختلفة دونت فى هذا العصر [1] . وظل الأمر كذلك حتى انتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية ، وانتقل العباسيون بعاصمة الدولة إلى بغداد ، وانصرفوا إلى مدارسة العلوم ، وإقامة المدارس ؛ فانتظمت أسباب التعليم والتدوين والترجمة ، وحدثت تلك الحركة الفكرية العظيمة التى عرف بها ذلك العصر .

كما كان من مظاهر نشاط الحياة العلمية والثقافية تعدد تلك الحلقات العلمية الكثيرة التى تدرس فيها علوم الدين وانتشرت فى العواصم الكبرى فى الدولة من مثل مكة ، والمدينة ، ودمشق ، والبصرة ، والكوفة ، وغيرها من المدن الإسلامية . وانصب الاهتمام فى هذه الحلقات على دراسة علوم التفسير والحديث النبوى ، واستنباط الأحكام الفقهية والتشريعية منهما . وتحت تأثير هذه الحركة العلمية الدينية صدرت ألوان من الشعر الأموى تأثر فيه الشعراء بالنظر فى الدين واستلهام معانيه ، وجاء مصورا للعاطفة الدينية والعديد من المضامين الإسلامية ، وجاء ضرب منه معبرا عن حياة الزهاد وأفكارهم .كما تردد فى هذا الشعر الكثير من الألفاظ والعبارات والمصطلحات الدينية .

---

١ - انظر المرجع السابق صـ ١٧١ .

وبجانب نشاط الحركة الثقافية الدينية وجدت حركة ثقافية عقلية اتخذت مسارا أميل إلى التفكير العقلى والفلسفى القائم على البحث والحوار والجدل والمناظرة . وعرف المشتغلون بهذا اللون الثقافى بالمتكلمين. وكانت لهم مذاهبهم الكلامية التى شاعت فى البيئة العراقية أكثر من غيرها من البيئات .

وقد عرف العصر الأموى من هذه المذاهب الكلامية : الشيعة ، والقدرية ، والجبرية ، والمرجئة . وظهرت فيه بذور مذهب الاعتزال.وقد نشأت أكثر هذه الفرق نتيجة الظروف السياسية ، وانقسام المجتمع إلى عدة أحزاب وأهواء سياسية . وكان لكل منهم مبادئه وآراؤه الدينية ، بجانب المبادئ والآراء السياسية ، واتخذت من المسائل الاعتقادية مجالا للبحث والجدل والمناظرة . وكان الناس - ومعهم الشعراء - يحضرون مجالس هذه الفرق ، ويستمعون إلى ما يدور فيها من حوار وجدل . وكان لذلك أكبر الأثر فى عقليتهم وتفكيرهم ، وفى أسلوب نظم الشعراء للشعر .

وخطت الحركة العلمية والعقلية خطوات أخرى مع بدايات النظر إلى العلوم الدخيلة التى أخذ بعض المثقفين من المسلمين بترجمتها إلى اللسان العربى . وكان منها علوم ومعارف يونانية وفارسية وهندية

وسريانية وغيرها . وكان هذا مؤذنا ببدء نهضة علمية عقلية كانت أساسـ للحركة العلمية المزدهرة فى العصر العباسى . وكان تأثير هـــذا اللــون الثقافى فى الشعر ضعيفا بعض الشئ ؛ لأن الأمويين كانوا أشد ميـــلا إلى تشجيع الحياة الأدبية من تشجيعهم للعلوم والمعارف العقلية ؛ لحاجتهم إلى اللون الأول من الثقافة فى الترويج لسياستهم وتحبيب الناس فيهم [1] .

ومن خلال الكلام السابق نجد أن مصادر الثقافة فى العصر الأمــوى تتكون من روافد ثلاثة : رافد جاهلى ، وآخر إسلامى ، وثالث أجنــبى . فأما الرافد الجاهلى فيتمثل فى الشعر والأيام ، ومعرفة أنســـاب القبـــائل وتقاليد الجاهلية . وكان هناك الكثيرون من أبناء المجتمع من نهل من هـــذا الرافد حتى ظهر بينهم بعد وقت قصير علماء بمعرفة الشـــعر وروايتـــه ، والأنساب ، وأخبار الجاهلية وأيامها .

وأما الرافد الإسلامى فيتمثل فى القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والسيرة النبوية ، ثم فى الفتوح الإسلامية وأحداثـــها وحـــروب علـــىّ وخصومه . وقد ظهر فى هذا المجال علماء عنـــوا بالتـــاريخ الإســـلامى وأحداثه ، وآخرون عنوا بقراءات القرآن الكريم ، وبدراســـة الحديـــث النبوى ، وما يتصل بذلك من تشريع وفقه .

---

١ – انظر : اتجاهات الشعر فى العصر الأموى – د / صلاح الدين الهادى – صـــ ٧٤ وما بعدها .

أما الرافد الثالث وهو المتمثل فى العلوم الأجنبية التى تعرف عليـــها العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لــــدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ؛ فقد تعرفوا على تخطيـــط المـــدن ، وطريقة استغلال الأرض ، وشق الترع والقنوات ، وعلى طـــرق جبابـــة الخراج ، وضبط الدواوين ، وتمكنوا من تعريبها فى عهد عبد الملك بـــن مروان . وبجانب هذه المعارف التطبيقية أخذ العرب عن الأجانب كثـــيرا من معارف الثقافة اليونانية والفارسية والهندية وغيرها[1].

وكان لهذه النهضة العلمية والثقافية فى العصر الأموى الأثر الكبـير فى الأدب عامة وفى الشعر خاصة ؛ فقد جاء الشعر الأموى معـــبرا عـــن العقلية العربية الجديدة ، كما جاء ممثلا للحياة الاجتماعيـــة مـــن جميـــع نواحيها وتطور مع تطورها . وظهر لأول مرة فى تاريخ الشـــعر العـــربى ظاهرة ( التخصص ) ؛ فقد تخصصت كل بيئة من بيئات العصر الأمـــوى بلون معين من الشعر ازدهر بها وتميزت به ،حتى أصبح هو اللون البارز فى حياتها الفنية . وتميزت كل بيئة من البيئات الثلاث الكـــبرى : الشـــام ، والحجاز ، والعراق ، بلون شعرى خاص يميزها عن غيرها .

فالشام كان موطنا للشعر السياسى المتناسب مع موطن الحكومـــة

---

١ - انظر : العصر الإسلامى - د/ شوقى ضيف/ ١٩٩ وما بعدها .

ومقر السلطان . كما نشط هناك شعر المديح الذى وفد به الشعراء من كل صوب ، وتوجهوا به إلى خلفاء بنى أمية وأمرائهم . أما الحجاز فقد عرف بلون شعرى آخر وهو الغزل المعبر عن حالة الترف والثراء التى عمت أرجاء هذه البيئة ، وتبعتها موجة من الغناء والموسيقى .

وهذه التيارات والنزعات الأدبية قد أثرت فى أذواق الناس وفى نقدهم للشعر ؛ ففى البيئة الحجازية كان الحجازيون بما فطروا عليه من رقة الطبع ، وميل إلى الغزل أقوى الناس معرفة بمعانية وإحساسا بدقائقه ، وقدرة على تمييز جيده من رديئه . وكان نقد الشعر فى الحجاز مطبوعا بطابع الرقة والذوق الفنى ، ومتصلا اتصالا وثيقا بما يمس المشاعر والروح الإنسانية ، ومعبرا عن القيم التى كانت تعيش فى البيئة الحجازية فى العصر الأموى .

أما العراق فكانت البصرة والكوفة أشهر مدنه . وكانت البصرة أكثر تأثرا بالثقافات الأجنبية ؛ لقربها من بلاد فارس ، ولكثرة من بها من عناصر أجنبية من مثل الفرس والنبط والسريان وغيرهم . وقد خرجت البصرة جماعة من الأعلام فى ميدان الثقافة الإسلامية والعربية فى العصر الأموى من أمثال الحسن البصرى ، وابن سيرين . كما اشتهرت البصرة بالأدب والشعر ، وكان بها الرواة الحاذقون ، ووفد إليها مجموعة من

الشعراء الكبار يمدحون رؤساء قبائلها . وكان بها سوق المربد الذى يعــد بمثابة سوق للشعر والأدب قبل أن يكون سوقا للتبادل التجارى ؛ فكــان مقرا لتبادل الأشعار ، والمعارضة بين الشعراء بعضهم البعض . كما كــان النقاد يتناولون فيه القصائد بالنقد ؛ ويفد إليه الــرواة لحفــظ الأشــعار وتدوينها .

أما الكوفة فكانت تجمع أشتاتا من القبائل المختلفة ، وكانت أقــرب إلى الحيرة المشهورة بأديرها المسيحية . وكان بها سوق الكناســـة الــذى يؤدى دورا علميا وأدبيا لا يقل كثيرا عن دور سوق المربد فى البصرة .

وبهذا كانت البيئة العراقية بيئة علمية تغلب عليها الثقافة والمعرفــة ، وازدهرت فيها علوم الدين واللغة ، بجانب العلوم والثقافـــات الأجنبيـــة وازدهرت دراستها فى ذلك العصر ، وأثمرت عن علماء يدرسون مســائل العلوم المختلفة ، ويخوضون فى المسائل الفقهية والتشريعية ، وقامت بينــهم ندوات علمية اتخذت شكل مناظرات علمية ، ووجدت بجانبها منــاظرات أدبية قوية تمثلت فى النقائض الكثيرة التى دارت بين جرير والفرزدق مــن ناحية ، وبين جرير والأخطل من ناحية أخرى . وتأثر فيها الشعراء بالحياة العقلية والاجتماعية فى البيئة العراقية . وقد أثر ذلك كله فى نمو الفكـــر العربى ، وفى نشأة العديد من العلوم الجديدة كعلم الكلام ، وعلم النحــو

وغيرهما .

وهكذا أدت الحركة العلمية والثقافية المزدهرة فى العصر الأموى دورها فى تطور الشعر العربى وتحول اتجاهاته وموضوعاته . كما ساعدت هذه الحركة على عقد الكثير من المجالس الأدبية والعلمية التى تتناول الأدب والمسائل العلمية بالنقد والتوجيه . فكان من نتيجة ذلك أن ظهر الميل إلى الشعر العقلى مثل ما يلحظ فى شعر الكميت بن زيد الأسدى وغيره ، وكما أخذ الشعراء يميلون إلى التجديد فى فنون الشعر واضعين فى الحسبان التعبير عن الأنماط الحضارية الجديدة . وتأثر النقد فى هذا العصر بالنحو ودراسته لغلبة هذا الاتجاه على النقاد فى البصرة والكوفة . وأخذ النقاد يوجهون اهتمامهم نحو الشعراء ويضعون لهم المقاييس التى يحكمون على الشعر من خلالها ، فما وافقها أقروه ، وما خالفها أعرضوا عنه ورفضوه[1].

من خلال ما سبق يمكن أن نقرر أنه كانت هناك عدة أسباب أدت إلى كثرة عقد المجالس الأدبية فى العصر الأموى نجملها فيما يلى :

١ - اقرأ فى ذلك : تاريخ النقد الأدبى والبلاغة - د / محمد زغلول سلام - صـ ٨٧ وما بعدها . وكتاب : فى الشعر الأموى - د / يوسف خليف - مكتبة غريب - ١٩٩١ م - صـ ٥٧ وما بعدها . وكتاب : تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى - د / يوسف خليف - طبعة عام ١٩٧٥ م - دار الثقافة - صـ ٥١ وما بعدها .

أولا : حياة التحضر التى عاشها المجتمع العربى فى العصر الأمـــوى بفضل الترف والثراء الذى نعم به معظم أبناء المجتمع نتيجة اتساع الدولـة الإسلامية ، وكثرة مواردها فى عهد الأمويين ؛ مما جعل كثيرا من أبنـــاء هذا المجتمع يعيشون فى فراغ طويل كانوا يزجونه فى عقد هــذه المجــالس يتجاذبون فيها أطراف الأحاديث حول الأدب ، ويوازنون بين الشعراء .

ثانيا : ازدهار الحياة الثقافية والعلمية فى هذا العصر ؛ ممـــا مكـــن العديد من أثرياء المجتمع ومترفيه من الجلوس فى مثل هـــذه الحلقـــات ، وتبادل الحديث حول الأدب والأدباء ، وإبداء الرأى ومحاولـــة توجيـــه الشاعر نحو الطريق الأمثل للإجادة فيه .

ثالثا : عروبة الخلفاء الأمويين وولاتهم وتعصبهم للعروبة ، وبقـــاء ملكاتهم عربية فطرية خالصة ؛ فكان منهم الراوية المحب للشـــعر تهزهـــم عباراته وصوره ، ويطربون لموسيقاه ، ومنهم الناقد الأديـــب ، ومنـــهم الشاعر المجيد . وهذا ما جعلهم يحولون مجالسهم إلى مجـــالس للســـمر . وكان الشعر والأدب أفضل ألوان حديث السمر عندهم . حيث يجتمـــع الشعراء والأدباء والنقاد يتجاذبون الأقوال حول الشعر والأدب . وقـــد يذكر الخليفة بيتا من الشعر أو يطرحه علـــى جلســـائه ، ويســـألهم أن ينقدوه، أو يلغز فى معنى من المعانى ، أو يوازن بين الشـــعراء .. إلى غـــير

ذلك مما تمتلئ به المجالس وتتحول به إلى مجالس للشعر والأدب.

رابعا : أن الأمويين – رغم استقرار الخلافة بأيديهم – ظلوا يعـانون طوال مدة حكمهم من الفتن والثورات الداخلية التى أشعلتها الأحـــزاب المعارضة لهم فى أرجاء الدولة . فكانوا لذلك يرون أنهم فى حاجة إلى نـوع من الدعاية للترويج لحكمهم ، ولتأليف القلوب حولهم . ورأوا فى تشجيع الشعر والشعراء ، وعقد المجالس الأدبية لذلك أكبر وسيلة مـــن وســائل الدعاية وتأليف القلوب وجمعها حولهم . فحرص الأمويون وأمراؤهم علـى اجتذاب الشعراء واتخاذهم ألسنة تنافح عن حكمهم وتدعـــو إلى تقبلــه وتأييده ، وعرفوا للشعر دوره فى الدعاية للخليفة وإذاعة محامده وأفعاله . وكانت مجالس كل منهم بمثابة القبلة التى يتطلع إليـــها كبـــار الشـــعراء والسدرة التى يحلمون بالانتهاء إليها .

خامسا : أن الأمويين – وفى مقدمتهم الخلفاء والــــولاة – كـــانوا يعرفون للشعر مكانته ، ويدركون أثره القوى فى تهذيب النفوس وسمـــــو العاطفة . وكان معاوية بن أبى سفيان أسبق الخلفاء إلى معرفة دور الشـــعر وأثره فى ثقافة الفرد والتأثير فى المجتمع . وقد أثرت عنه فى ذلك أقـــــوال عديدة منها قوله : " يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب

الأدب " . وقوله : " اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم "[١] . وقولـه عن الشعر وأثره فى النفس : " فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل " [٢] . وقوله أيضا لعبد الله بن الحكم : " يا ابن أخى إنك شهرت بالشعر ، فإياك والتشـبيب بالنساء ، فإنك تغر الشريفة فى قومها والعفيفة فى نفسها ، والهجاء ؛ فإنك لا تعدو أن تعادى كريما ، أو تستثير به لئيما . ولكن افخر بمآثر قومـك ، وقل من الأمثال ما توقر به نفسك ، وتؤدب به غيرك " [٣] .

وكان عبد الملك بن مروان أشد اهتماما بتشجيع الشعر وحفظـــه وروايته . وكانت مجالسه حافلة بالأدباء والشعراء الذين جعلوا من الشعر بابا واسعا لمعرفة آداب العرب وعاداتهم .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى على ما فيه من حدة وصرامة يسير فى هذا الاتجاه ؛ فكان يعقد الكثير من مجالس الشعر والأدب ، ويستشـهد بالشعر فى جميع المواقف ، ويهتم بالنظر فى الشعر وحفظه وروايته ونقده .

وكان غالبية خلفاء بنى أمية وأمرائهم على هذه الشاكلة فى تشجيع

---

١ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيق القيروانى - تحقيق : محمد محـى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - ط ٤ - ١٩٧٢ م - ١/ ٢٩ .

٢ - العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسى - شرح وضبط : إبراهيم الإبيـارى - دار الكتاب العربى - بيروت - ١٩٩٠ م - ٥ / ٢٥٨ .

٣ - العقد الفريد ٥ / ٢٦٥.

الأدب ، وحب الشعر ، وعقد الكثير من المجالس لروايته وتبادل الـــرأى فيه ونقده . فقد رأوا فى هذه المجالس وسيلة من وسائل اصطناع الشــعراء حتى يكثر قاصدوهم والمشيدون بذكرهم . ففى ذلك بعد لصيتهم ، وقوة لنفوذهم ومكانتهم .

سادسا : وجود كثير من المتأدبين وأرباب البيوتات ومـــن لديـــهم ذوق أدبى فى المجتمع العربى الأموى . وهؤلاء أحبوا أن يشبعوا رغبـــاتهم ، ويستجيبوا لميولهم ، فعقدوا الكثير من المجالس الأدبية مقلدين الحكـــام فى ذلك . وكان هؤلاء يمثلون عددا لا بأس به فى المجتمع الأموى وخاصـــة فى مكة والمدينة ؛ فقد حاول الأمويون صرف الحجازيين عن الخلافة والحيـــاة السياسية فأغرقوا مدن الحجاز بالمتع الحسية كالأموال والجوارى والإماء ، والمتع العقلية كالغناء والموسيقى ؛ فصرف كثير من أبناء هذه البيئة وقـــت فراغهم فى النظر فى الشعر ونقده ، وفى تفضيل شـــاعر علـــى آخـــر ، وترجيح بيت على بيت ، أو معنى على معنى . وعقدوا من أجـــل ذلـــك كثيرا من المجالس الأدبية فى قصورهم .

سابعا : وعامل آخر كان له تأثيره الواضح فى المجتمع الأموى مـــن ناحية ، وكان له دوره البارز فى اشتغال الناس بالشعر والأدب ، وعقـــد المجالس لنقده والموازنة بين رجاله من ناحية أخرى ، وهو عودة العصبيـــة

القبلية إلى ما كانت عليه فى المجتمع العربى فى عهد الجاهلية . فقد " قويت الخصومة بين الشعراء ، وفشا التهاجى بينهم . وأمد بنو أمية ذلك اللهب بالوقود . وزاده اشتعالا ما تأصل فى نفوس العرب من حب الفخر والمباهاة . كان بنو أمية لا يطمئنون إلى شعراء مصر ، ويقدمون عليهم شاعرا من ربيعة كالأخطل ، أو من قضاعة كابن الرقاع . وكان بشر بن مروان يهيج فى مجالسه حزازات الشعراء ويغْرى بعضهم ببعض . وكان جرير ينهش الفرزدق والأخطل ، وكان ينهش جريرا بضعة وأربعون شاعرا . وهذه العصبية التى دعت إلى الهجاء وإلى النباح دعت كذلك إلى أن يشتغل الناس بالشعر والشعراء ، ويستمعوا لهذا وذاك ، ويترقبوا نقيضة شاعر لآخر ، ويمضى بهم هذا بالضرورة إلى النقد وإلى الحكم "[1].
وكان هذا يتم عن طريق عقد المجالس الأدبية فى كثير من الأحيان ، وجعلها مكانا لمن يتناظرون بين أيدهم ، ويستحوذون على إعجابهم .

### ب – مفهوم المجالس الأدبية وتاريخها فى الأدب العربى :

المجالس : جمع مجلس . والمجلس فى اللغة : موضع الجلوس ... والمجلس : جماعة الجلوس [2].

---

١ – تاريخ النقد الأدبى عند العرب – طه أحمد إبراهيم – دار الحكمة – بيروت – لبنان – بدون تاريخ – صـ ٣٥ .
٢ – لسان العرب – طبعة دار المعارف – مادة ( جلس ) .

ووردت كلمة ( مجالس ) فى القرآن الكريم مرة واحدة فى سورة المجادلة فى قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قِيلَ لكم تفسَّحُوا فى المجالس فافْسَحوا يفسحِ اللهُ لكم ، وإذا قيل انشُزُوا فانشُزُوا يرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتُوا العلمَ درجاتٍ . والله بما تعملون خبير﴾[1].

ومما جاء فى تفسير ( المجالس ) فى هذه الآية أن المراد بها مجالس النبى ﷺ ؛ فقد كانوا يتناقشون فى مجلسه ﷺ فأمروا ان يفسح بعضهم لبعض . وقيل : المراد بالمجالس : مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب؛فقد كانوا يتشاحون على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة.[2] وذكر القرطبى أن " الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة " [3] .

وهذا التفسير يوحى بأن المراد بالمجلس هو مجلس الأشراف ، ومكان المشاورة والاستظهار بالقوم والعشيرة . وإن كانت هذه المجالس تنعقد فى

---

١ - الآية رقم ١١ من سورة المجادلة .

٢ - فتح القدير - محمد بن على الشوكانى - مراجعة وتعليق : هشام البخارى ، وخضر عكازى - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٧ - ٥ / ٢٣٤ .

٣ - المرجع السابق ٥ / ٢٣٤.

المساجد فى عصر صدر الإسلام ؛ فقد كانت المساجد تؤدى نفس الـــدور الذى تؤديه المجالس والأندية التى كان يعقدها أبناء القبــــائل فى العصـــر الجاهلى .

أما عن المراد بالمجالس الأدبية : فهى تلك المجالس التى يدور الحديث فيها بين المجتمعين حول الأدب والأدباء والشعر والشعراء ، وما قد يتطرق إليه الحديث عن الغناء وبعض وسائل اللهو والتسلية . على أننى أقصد من المجالس الأدبية فى هذه الدراسة : المجالس التى يدور فيها الحديــــث بــين المجتمعين حول الأدب والأدباء ، والشعر والشعراء خاصة دون مـــا قـــد يتناوله المجتمعون من حديث عن الغناء ووسائل اللهو والتسلية .

وهذا النوع من المجالس لم يكن شيئا جديدا أو مستحدثا فى العصـــر الأموى ؛ وإنما هى قديمة ترجع جذورها إلى العصر الجاهلى الذى كـــانت تنعقد فيه صور من هذه المجالس ممثلة فى الأسواق العديدة التى كانت تقــام فى فترات مختلفة من العام ، ويجتمع فيها الشعراء يتبـــادلون الأشـــعار ، ويحكم بينهم أحدهم . وكان أشهرها فى ذلك : سوق عكاظ ، وســـوق مجنة ، وسوق ذى المجاز. فهذه الأسواق كانت تعد بمثابة مجالس ومنتديـــات أدبية ، بجانب مالها من نشاط تجارى وسياسى واجتماعى ؛ فقـــد كـــانت تضرب فيها القباب للشعراء ، ويكثر فيها إنشاد الشعر والاحتكـــام إلى

النابغين فيه . وكان يتخلل ذلك معارك شعرية رائعة يبرز فيها كبار المنشدين ، ويتلقف الرواة فيها كل ما يذاع ، وينشرونه بين القبائل فى أنحاء شبه الجزيرة العربية . ويمكن أن نعتبر ما اشتهر من وفود الشعراء إلى سوق عكاظ من أنحاء الجزيرة العربية وجلوس النابغة الذبيانى فى قبة من أدم ليحكم بينهم فيما يستمع إليه منهم صورة من صور المجالس الأدبية فى العصر الجاهلى .

كما عرف العصر الجاهلى باجتماع مجموعات من الشعراء يتذاكرون الشعر ، ويتحاكمون إلى أحدهم فى تقويم شعر كل منهم . وفى هذا أيضا صورة من صور المجالس الأدبية . ومن ذلك ما يروى عن تحاكم امرئ القيس ، وعلقمة الفحل إلى أم جندب زوجة امرئ القيس لتحكم فى أيهما أشعر . فقد روى أنه " تنازع امرؤ القيس بن حجر ، وعلقمة بن عبدة المعروف بعلقمة الفحل فى الشعر أيهما أشعر فقال كل منهما : أنا أشعر منك . فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكما بينى وبينك . فحكماها . فقالت أم جندب لهما : قولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد . فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مرَّا بى على أم جندبِ ... نقضِّ لبانات الفؤادِ المعذَّبِ

وقال علقمة :

ذهبتَ من الهجرانِ فى غير مذهب ... ولم يكُ حقا طولُ هذا التجنبِ

فأنشداها جميعا القصديتين : فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منــــك .
قال: وكيف ذلك ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوطِ ألهوبٌ وللسَّـــاق درةٌ     وللـــزجرِ منه وقعُ أخرجَ مهذبِ

فهجدت فرسك بسوطك فى زجرك ، ومريته فأتعبته بســـــاقك . وقـــال علقمة :

فأدركهنَّ ثانياً من عَنَانِهِ     يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلِّبِ

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه ولم يتعبه "[١] .

ومن ذلك أيضا ما يروى أنه " تحاكم الزبرقان بن بدر ، وعمرو بــن الأهتم ، وعبدة بن الطبيب ، والمخبل السعدى إلى ربيعـــة بــن حـــذار الأسدى فى الشعر أيهم أشعر . فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحـــم أسخن لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئا فينتفع به . وأما أنت يا عمـــرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر،فكلما أعيد فيها النظـــر نقـــص البصر . وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شـــعر غيرهم . وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطـــر ولا تمطر "[٢].

---

١ - الموشح - المزربانى - تحقيق : على محمد البجاوى - دار الفكر العـــربى - ١٩٦٥ م صـــ ٣٥ .

٢ - الموشح للمرزبانى صـــ ٩٦

كما كثر فى ذلك العصر تلاقى الشعراء بأفنية الملـــوك فى الحـــيرة وغسان . وكان بعضهم ينقد بعضا ؛ كالذى نقرأه عما كان يحدث بـــين المنخل اليشكرى والنابغة الذبيانى فى بلاط النعمان بن المنذر . وهذا أيضـــا يمكننا أن تعده صورة من صور المجالس الأدبية .

وهذه المجالس كان لها دورها فى وضع الأصول الأولى للنقـــد الأدبى عند العرب ، والذى كان يتجه إلى تقويم الصياغة والمعانى ، ويعرض لهمـــا من ناحية الصحة ، ومن ناحية الصقل والانسجام ، كما توحى به السليقة العربية .

فإذا ما انتقلنا إلى عصر صدر الإسلام وجدنا صورا كثيرة من هـــذه المجالس تنعقد بين هواة الأدب والشعر . سواء فى عهد الرســـول ﷺ أم فى عهد الخلفاء الراشدين . فيمكن أن تعتبر ما كان يحدث من إنشاد بعـــض الشعراء شعرا فى مجلس من مجالس النبى ﷺ مـــع أصحابـــه ، وتعليـــق الرسول على ما يستمع إليه من شعر،يمكن أن نعتبر هذا صورة من صـــور المجالس الأدبية.ومن ذلك ما يروى من أن النابغة الجعدى أنشد بين يـــدى رسول الله ﷺ قصيدته التى يقول فيها :

أتيتُ رسولَ الله إذ جاءَ بالهدى ... ويتلـــو كتاباً كالمجرَّة نيِّرا

علونـــا السماءَ مجدُنا وسناؤنا ... وإنا لنبغى فوقَ ذلك مظهرَا

فغضب النبى ﷺ وقال : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله . فقال النبى ﷺ : أجل إن شاء الله [١] .

ومنه ما رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح . ويقول رسول الله ﷺ : " إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسوّل الله "[٢]. فمجلس الأدب – كما نرى – يعقد فى بيت من بيوت الله ، وشهود المجلس هم الصحابة الكرام وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

ومنه ما يروى أن رسول الله ﷺ " سأل عبد الله بن رواحة كالمتعجب من شعره فقال : كيف تقول الشعر ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين – ولم يكن قد أعد شيئا . فأنشد أبياتا منها:

فخبرونى أثمانَ العباءِ متى كنتُمْ    بطاريقَ أو دانَتْ لكم مُضَرُ

فعرف الكراهية فى وجه النبى ﷺ لما جعل قومه أثمان العباء فقال :

نجالدُ الناسَ عن عِرضٍ ونأسرُهم    فينا النبىُّ وفينا تنزلُ السورُ
وقد علمتُمْ بأنا ليس يغلبنا    حىٌّ من الناس إن عزوا وإن كثروا

---

١ – انظر العمدة ١ / ٥٣ .
٢ – انظر العمدة ١/ ٢٧ .

ينتهى إلى أن يقول فى النبى ﷺ :

فثبّت الله ما أعطاك من حسَـن      تثبيتَ موسى ونصرًا كالذى نُصِرُوا

فأقبل عليه النبى ﷺ بوجهه فقال : وإيـــاك فثبـت الله يـا ابـن رواحة"[1].

كما عرف كل من عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - بكثرة عقدهما لمثل هذه المجالس . ومن ذلك ما يروى عـن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه تحدث مع وفد غطفان فقال : أى شعرائكم الذى يقول :

أتيتكَ عـــاريا خلِقًا ثيابى      على خوفٍ تُظَنّ بِى الظنونُ

فألقيتَ الأمانـــةَ لم تخنها      كذلك كـان نوحٌ لا يخونُ

فقالوا : النابغة . قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً      وليس وراءَ الله للمرء مذهَبُ

قالوا : النابغة . قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

فإنـّـك كالليل الذى هو مدركى      وإن خلتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

قالوا : النابغة . قال : هذا أشعر شعرائكم " [2] .

---

١ - العمدة ١ / ٢١٠

٢ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة - تحقيق وضبط : مفيد قميحة ، ونعيـم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ - ١٩٨٥م - ص ٨٤ .

ومنه ما يروى من أن عمر بن الخطاب قال لبعض جلسائه : أنشدوني لأشعر شعرائكم . قيل : ومن هو ؟ قال : زهير . قيل : وبم صار كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتتبع وحشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه " [1] .

ومن ذلك ما يروى فى تفضيل علىّ بن أبى طالب امرأ القيس على غيره من الشعراء أنه تناقش أدباء جيش علىٍّ فى حضرته بالبصرة ، وكان بينهم أبو الأسود الدؤلى الشاعر اللغوى ، وكان يبدى تعصبا لشاعره الذى يفضله - أبى دؤاد الإيادى - وقد فض الإمام النزاع بين المتناظرين فقال : ( كل شعرائكم محسن ولو جمعهم زمان واحد ، وغاية واحدة ، ومذهب واحد فى القول ، لعلمنا أيهم السابق . وكلهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فيه . وإن يكن أحد فضلهم فالذى لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، امرؤ القيس بن حجر ؛ لأنى رأيته أصحهم بادرة ، وأجودهم نادرة )[2] .

ومثل هذا الذى كان يحدث بين الرسول ﷺ وبعض الشعراء ، أو بين الخليفة وبعض جلسائه يعد صورة حقيقية للمجالس الأدبية التى يتداول فيها القول حول الأشعار ويحكم عليها أو على قائليها .

---

١ - الشعر والشعراء ٦٩ .
٢ - الأغانى ١٦ / ٢٩٧ .

ولما جاء العصر الأموى واصلت الأسواق أداء مهمتـــها ودورهـــا الثقافى ممثلة فى سوقى المربد بالبصرة ، والكناسة بالكوفة . وكان ســـوق المربد - خاصة - معرضا لكل قبيلة ، ومكانا لعرض الجيد مـــن شـــعر القبائل المختلفة ؛ حيث تعد فيه المجالس " ويخرج إليها الناس كل يوم كـــل إلى فريقه وحلقته وشاعره . وتتعدد فيه الحلقـــات يتوســـطها الشـــعراء والرجاز ، ويؤمها الأشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون " [1] . وبذلك تطور سوق المربد من محبس للإبـــل وبيعـــها ومكان لتخزين التمر وتبادله - وهو الغرض الأول مـــن إنشـــائه - إلى سوق للأدب ومجلس كبير له .

غير أن صورة المجالس الأدبية أخذت تتغير فى العصر الأموى عمـــا كانت عليه من قبل . فبجانب ما كان يحدث فى سوقى المربد والكناســـة من مجالس ومنتديات أدبية أخذت القصور تزخـــر بمجـــالس الشـــعراء والأدباء بعدما شعر حكام الدولة الأموية بأهمية وخطورة الـــدور الـــذى يلعبه هؤلاء الشعراء ، والمهمة التى يمكنهم القيام بها .

وكان عقد هذه المجالس فى القصر مظهرا من مظاهر الترف والنعمـة

---

١ - الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق حتى نهاية القـــرن الثـــالث الهجـــرى . د/على محمد هاشم - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ م - صـــ ٣٤ .

المستجدة التى غرق فيها أفراد الطبقة الأرستقراطية من المجتمع الأموى . واتضحت هذه الصورة أكثر فى البيئة الحجازية وفى قصور الخلفاء والأمراء فى الشام ، وفى قصور بعض الأمراء فى البيئة العراقية[1].

وكانت مجالس الأدب وكثرة انعقادها ، والدور الذى لعبته فى تنمية الذوق الفنى سمة من سمات عهد كل خليفة من الخلفاء الأمويين كل على حسب درجة ميوله الأدبية . ويأتى عبد الملك بن مروان فى مقدمة من عقد مثل هذه المجالس من الخلفاء الأمويين،نظرا لما تمتع به هذا الرجل من أدب رفيع ، وثقافة أدبية واسعة ، وسليقة أدبية دفعته إلى الاهتمام بشؤون الشعر والأدب وإكرام أهلهما .

وبجانب خلفاء بنى أمية وأمرائهم كان أعيان القوم وأشرافهم - وخاصة فى البيئة الحجازية - يعقدون مجالس حافلة لأنواع اللهو والطرب وفنون الأدب . كما وجد فى المجتمع الأموى عدد لا بأس به من النساء العربيات اللاتى عقدن الكثير من المجالس الأدبية فى قصورهن . وكان منهن الشاعرات والأديبات والناقدات كليلى الأخيلية ، وعزة جميل ، وعقيلة بنت عقيل بن أبى طالب ، وسكينة بنت الحسين ، وهند بنت أسماء زوجة الحجاج ، وغيرهن ممن جعلن من قصورهن ودورهن مسرحا

١ - انظر المرجع السابق صـ ٥٢ .

للإنشاد ، والنقاش والنقد وتناقل الأشعار ، ورواية أخبار الأدب والنقد ؛ مما ينبئ عن ثقافتهن وانفتاحهن على شؤون الحياة ، واهتمامهن بقضايا الشعر والأدب[1].

وقد أسهمت هذه المجالس فى تحريك النشاط الأدبى ، وفتحت الباب واسعا أمام المشتغلين بالأدب واللغة لإشباع رغباتهم ومزاولة نشاطهم . فقد ترددت فى هذه المجالس الكثير من الأقوال النقدية التى كانت أساسا لوضع النظريات النقدية ، وكان لها أكبر الأثر على تقدم الأدب وازدهاره، وعلى نمو وتطور الحركة النقدية فى الأدب العربى ، واستعان بها نقاد الأدب فيما بعد لتدعيم آرائهم والقواعد التى أرسوها للنقد الأدبى العربى ؛ إذ أن هذه المجالس قد أنتجت مجموعة من المقاييس النقدية التى استخدمها النقاد والعلماء فى تمييز الشعر ، أو تفضيل شاعر على آخر والحكم له أو عليه ، كما سيتضح من حديثنا عن هذه المجالس فى فصول البحث القادمة إن شاء الله .

والواقع أن مثل هذه الأحكام النقدية التى كانت تصدر فى مجالس بنى أمية لتوضح مدى اهتمام الخاصة والعامة فى هذا المجتمع بالجانب النقدى والأدبى ، وانتشار ذلك بين الناس على نطاق واسع . كما أمدتنا

---

١ - اقرأ : الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق - د / على محمد هاشم صـ ٦٠ وما بعدها.

تلك المجالس بصورة واضحة عن حياة القوم وعاداهم وتقاليدهم وآدابهم ومعارفهم ؛ فقد كانت تخوض فى كثير من جوانب العلم والمعرفة ، وفى السياسة والاجتماع والأخلاق . بجانب ما كانت تعرض له من مسائل أدبية ونقدية . كما كشفت لنا النقاب عن وجه طبقة الخلفاء والأمراء والولاة وعلية القوم الذين لم نكن نعرف عنهم إلا ما يصل إلى مسامعنا من أخبار السياسة ، وحوادث الحروب والصراعات السياسية والحربية . وأوقفتنا هذه المجالس على فضل هؤلاء فى احتضان العلوم ، وتشجيع الفنون ، وبذلهم للمال والوقت والجهد فى سبيل الحفاظ على الفكر الإنسانى ضاربين بذلك مثلا رائعا فى الخلق والشرف والالتزام بكل مفيد ناجح .

# الفصل الأول

## المجالس الأدبية حول شعر المديح ونقده

عقدت فى قصور الخلفاء والأمراء والولاة فى عصر بنى أمية الكثير من المجالس الأدبية التى دار فيها الحوار حول شعر المديح ونقده . وصدرت عن المجتمعين فى هذه المجالس العديد من القواعد والأسس النقدية التى استعان بها نقاد الأدب العربى فيما بعد فى وضع القواعد النقدية حول شعر المديح والحكم عليه وتقويمه .

وكان عبد الملك بن مروان فى مقدمة هؤلاء الذين عقدوا الكثير من المجالس الأدبية حول شعر المديح ، وتوافد شعراء عهده على هذه المجالس لمدحه والإنشاد بحضرته . وكان هو من جانبه يبدى رأيه فيما يسمع ، ويقومه تقويما حسنا ، وينقده بذوقه الفنى الصافى . وقلده فى ذلك غيره من خلفاء بنى أمية وولاقم وأمرائهم الذين عقدوا الكثير من هذه المجالس لاستماع شعر المديح الذى كان يوجه إليهم ، وكانوا يثيبون الشعراء ويجذلون لهم العطاء على كل شعر جيد . كما كانت لهم مجالس يسمرون فيها بالشعر ويشاركون فى النقاش النقدى الذى يدور حوله ، وعرف هؤلاء جميعا بذوقهم العربى الأصيل ، وبالتعلق بالشعر والأدب .

وقبل أن نذكر أمثلة من هذه المجالس وما دار فيها من نقد أذكر أن

النقاد العرب تحدثوا عن أهم مقومات الإجادة فى شعر المديح ، ووضعــوا لذلك الكثير من القواعد والأسس التى ينبغى على الشاعر مراعاتها حــتى تتحقق له الإجادة فى مديحه . وسوف نعرف أن كثيرا مما ذكره النقاد مــن قواعد وأسس فى هذا الصدد إنما استخلصوه مما صدر عن نقـــاد هـــذه المجالس سواء كانت فى العصر الأموى أم فيما سبقه من عصرى الجاهليـــة وصدر الإسلام . وقد وجدت فى مجالس العصر الأموى العديد من الأمثلة لمعظم ما ذكره النقاد حول تقويم شعر المديح ونقده .

— تحدث النقاد عن الصفات التى يمدح بها الشاعر ممدوحه فـأكثروا وأطالوا ؛ فقدامة بن جعفر يرجع الصفات التى يمدح بها الرجال إلى أربعة، وجعلها جماع الفضائل عنده ، وهى : العقل ، والشـــجاعة ، والعـــدل، والعفة . وجعل المادح بهذه الصفات النفسية مصيبا والمادح بغيرها مخطئا . ولذا طالب الشاعر ألا يتجاوز هذه الصفات النفسية إلى ما سواها مـــن الصفات الجسمية ؛ لأن الشاعر فى المديح إنما هو بسبيل وصف الرجـــال من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان .

والعقل عند قدامة أصل ترجع إليه فضائل كثيرة : ثقافة المعرفـــة . والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصدع بالحجة ، والعلــم . والحلم عن سفاهة الجهلة ، وما إلى ذلك . وجعل مــن أقســام العفــة :

القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك مما يجرى مجراه . ومن أقسام الشجاعة : الحماية ، والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والنكاية فى العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير فى المهامة الموحشة ، وما أشبه ذلك . وجعل من أقسام العدل : السماحة ، والتبرع بالنائل ، والانظلام وإجابة السائل ، وقرى الأضياف ، وما جانس ذلك .

وذكر قدامة أنه بتركيب أصول الفضائل الأربع مع بعضها تنتج فضائل جديدة ؛ فبتركيب العقل مع الشجاعة يحدث الصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد . وينتج عن تركيب العقل مع السخاء: إنجاز الوعد ، وما أشبه ذلك . وينتج عن تركيب العقل مع العفة: الرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما إلى ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع السخاء ينتج الائتلاف والاختلاف ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع العفة : إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم . وعن تركيب السخاء مع العفة : الإسعاف بالقوت ، والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك .

ويجعل قدامة من هذا التقسيم مقياسا لجودة المديح ؛ فللشاعر أن يمدح بفضيلة من الفضائل الأربع وما يتفرع عنها أو يمدح بها كلها مجتمعة. والبالغ فى التجويد أقصى حدوده عنده هو من استوعبها ولم

يقتصر على بعضها . وليس للشاعر أن يتجاوز هذه الصفات إلى غيرها من الأوصاف الجسمية المحمودة [1] .

ويخالف الآمدى قدامة بن جعفر فى تقليل شأن المديح بالصفات الجسمية ، واقتصار المحمود من المديح على المدح بالصفات النفسية فيقول فى الرد على قدامة فى ذلك : " فأما الجلال ، والبهاء ، والهيبة ، وسائر ما مضى من ذلك فى هذا الباب فإنه واجب فى مدح الخلفاء والملوك والعظماء ؛ لأنه من الأوصاف التى تخصهم ويحسن موقع ذكرها عندهم . وكذلك جمال الوجه وحسنه مما يجب المدح فيه ؛ فإن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ويتيمن به العرب ؛ فإنه يدل على الخصال المحمودة. كما أن قبح الوجه والدمامة يسقط الهيبة ، ويدل على الخصال المذمومة ، وذلك ما تكرهه العرب وتتشاءم ، بل أول ما تلقاه من الإنسان وتعاينه وجهه "[2].

كما خالف ابن رشيق قدامة بن جعفر فى ذلك فذكر أن " أكثر ما يعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ،

---

١ - انظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر - تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهرية - ط ١ - ١٩٧٨ م - صـ ٩٦ : ٩٩ .

٢ - النقد المنهجى عند العرب - د / محمد مندور - صـ ١٣٦ نقلا عن كتاب الآمدى المفقود : تبيين غلط قدامة فى كتاب نقد الشعر .

وكثرة العشيرة كان ذلك جيدا . إلا أن قدامة قد أبى منه وأنكره جملة . وليس ذلك صوابا . وإنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح . فأما إنكار ما سواها كرة واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ولا يوافقه عليه " [1] .

ويرى ابن سنان الخفاجي رأى الآمدى وابن رشيق ، وعلق على مذهب قدامة بن جعفر بقوله : " وقد أنكر هذا المذهب على أبي الفرج أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى وقال : إنه خالف مذاهب الأمم كلها عربيها وأعجميها ؛ لأنه الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ويتيمن به ويدل على الخصال المحمودة . وهذا الذى ذكره أبو القاسم صحيح . ولو لم يكن فى ذلك إلا ما قد جبلت النفوس عليه من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى وأغنى . فإن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق عليه فهذا حكم جميع الفضائل النفسانية . فإن الكريم قد خلق كريما ، والشجاع شجاعا ، والعاقل عاقلا ، وكما لا يقدر القبيح الوجه على أن يستبدل صورة غير صورته،كذلك لا يقدر الجاهل على أن يستفيد عقلا فوق عقله . ويلزم قدامة ألا يجيز المدح بشرف النسب ، وكرم الأصل،لأن ذلك أيضا يجرى مجرى الصور ، ولا صنيع للممدوح فى شئ

١ - العمدة : ٢ / ١٣٥ .

منهما.والأمر فى هذا ظاهر " [1] .

والحق مع الآمدى وابن رشيق وابن سنان . وإن كان المدح بالفضائل النفسية أفضل وأحسن وقعا من المدح بالصفات الجسمية . وفى الأمثلة التى ذكرها قدامة نفسه ما يثبت صحة ما ذهب إليه هؤلاء النقاد.
فقد ذكر قدامة أن من مختار المديح قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهُم ... وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ
فإن جئتَهم ألفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يُشْفَى بأحلامها الجهْلُ
على مكثريهم حقُّ من يعتريهمُ ... وعندَ المقلّين السماحةُ والبذلُ
فما كان من خيرٍ أتَوْهُ فإنما ... توارثه آباءُ آبائِهم قبلُ [2]

فقد مدحهم بحسن الوجوه ، إلى جانب ما استتم لهم من حسن المقال ، وتصديق القول الفعل ، وكرم المحتد ، ورجاحة العقل .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن نقاد العرب يتفقون على أن الإشادة والمدح بالصفات النفسية هو من أحسن المديح وأرفعه . وهو مدح يهز النفوس ويؤثر فيها ؛ لما فيه من إشادة وسمو بالنفس الإنسانية ، وتصوير الممدوح بالاتصاف بالمثل العليا للإنسانية . أما المدح بالصفات الجسمية والعرضية فقد اختلف النقاد فيه ما بين موافق ورافض .

---

١ - سر الفصاحة - تحقيق : على فودة - مكتبة الخانجى - ط ٢ - ١٩٩٤ م - ص ٢٥٠.

٢ - أنظر : نقد الشعر ١٠١.

ويمكن للشاعر أن يقتصر فى مدح الممدوح بفضيلة واحدة أو اثنتين رآهما فيه.وليس من الضرورى أن يجمع فى مديحه له كل الفضائل النفسية، بل ربما أعجب الشاعر ببعض هذه الصفات فى الممدوح دون بعض ، فلا نلزمه بما لم يعجب به فى الممدوح . وقد ذكر ذلك قدامة بن جعفر ، ووافقه على ذلك الدكتور أحمد بدوى [١] . وإن كان قدامة قد استحب أن يستقصى الشاعر صفات الممدوح النفسية ، وجعل من استوعبها هو البالغ فى التجويد أقصى حدوده ، ولم يقتصر على بعضها [٢] .

وقد أشار أبو تمام فى وصيته للبحترى إلى أهم ما ينبغى على الشاعر مراعاته فى قصيدة المديح فقال : " فإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرِّف مقامه ، ونضِّد المعانى، واحذر المجهول فيها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد " [٣] .

وعلى هذا فالمدائح تختلف حسب الممدوحين ومكانة كل منهم فى الارتفاع والاتضاع والتبدى والتحضر . فمنهم الملوك والوزراء وقادة الجيوش ومن دونهم ." فإذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال

---

١ - أسس النقد الأدبى عند العرب - دار نهضة مصر - القاهرة - طبعة عام ١٩٩٤ م صـ ١٩٤ ، ١٩٥.

٢ - أنظر : نقد الشعر ١٠١.

٣ - زهر الآداب - الحصرى القيروانى - دار الفكر العربى - ط٢ - بدون تأريخ - ١ / ١١١ .

فيه ، ولا كيف أطنب . وذلك محمود وسواه المذموم . وإن كان سوقة فإياك والتجاوز به خطته ؛ فإنه متى تجاوز به خطته كان كمن نقصه فيها . وكذلك لا يجب أن يقصر عما يستحق ، ولا أن يعطيه صفة غيره فيصف الكاتب بالشجاعة ، ولا القاضى بالحمية والمهابة . وكذلك لا يجب أن يمدح الملك ببعض ما يتجه فى غيره من الرؤساء وإن كان فضيلة " [١] .

وعلى الشاعر أن يتجنب فى مديحه للملوك التقصير ، ويتحاشى مع ذلك التطويل لأن للملك سآمة وضجرا . وربما عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحرم من لا يريد حرمانه . ولا يمدح الملوك بما تمدح به العامة . ولذا عابوا على الأحوص فى المدح قوله :

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضُهُمْ مذقُ اللسانِ يقولُ ما لا يفعلُ

ويمدح الكاتب والوزير بالعقل ، والعدل ، والعفة ، والوفاء ، وحسن الروية ، وسرعة الخاطر ، وشدة الحزم ، وحسن التنفيذ والسياسة، وقلة الغفلة ، وجودة النظر للخليفة ، والنيابة عنه فى المعضلات بالرأى أو بالذات ، وبأنه محمود السيرة ، لطيف الحس . فإن انضاف إلى ذلك البلاغة ، والخط ، والتفنن فى العلم كان غاية [٢] .

وأفضل ما مدح به القائد : شدة البأس ، والنجدة ، والجود ،

١ - العمدة : ٢ / ١٢٩ . وانظر نقد الشعر صـ ١٠٦ وما بعدها .
٢ - أنظر العمدة : ٢ / ١٣٤ ، ونقد الشعر ١٠٨.

والشجاعة ، والتخرق فى الهيئات ، والبذل والعطية ، وشدة البطـــش ، والبسالة ، وما شاكل ذلك .

ويمدح القاضى بما يناسب العدل والإنصاف ، وتقريب البعيـــد فى الحق وتبعيد القريب فى الباطل ، والأخذ للضعيف من القوى ، والمســاواة بين الفقير والغنى ، وانبساط الوجه ، ولين الجانب ، وقلة المبالاة فى إقامــة الحدود واستخراج الحقوق . فإن زاد على ذلك ذكر الورع ، والتحــرج وما شاكلهما فقد بلغ الغاية .

وأما مدح غير الملك والكاتب والوزير والقائد والقاضى فيمدح كل إنسان بالفضل فى صناعته والمعرفة بطريقته التى هو فيها [1] .

هذا عن أهم ما قاله به النقاد فى أصول وقواعد المديح الجيد ، ومــا طالبوا به الشعراء فى مديحهم حتى يبتعدوا به عن الهجنة والفساد. وهنــاك ملحوظات أخرى يجب على الشاعر مراعاتها فى مديحه سوف نقف عليــها من وراء بعض ما ورد فى كتب التراث الأدبى من مجالس أدبية حول شــعر المديح ونقده . والآن مع أمثلة منها :

أ - مما يتصل بالمديح بالفضـــائل النفســـية دون الصفـــات الجسمية ما ذكره المرزبانى أنه لما أنشد عبد الله بن قيس الرقيـــات عبــد

---

١ - انظر العمدة ٢ / ١٣٥ ، ونقد الشعر ١٠٩.

الملك بن مروان قوله :

يعتدلُ التاجُ فوقَ مفرقِهِ على جبينٍ كأنه الذَّهَبُ

قال له عبد الملك : أما لمصعب بن الزبير فتقول :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـــه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

وأما لي فتقول :

على جبينٍ كأنه الذَّهَبُ [1]

وذكر الأصطفهاني أن ابن قيس الرقيات مدح عبد الملك بهذه القصيدة حتى وصل بها إلى قوله :

إن الأغرَّ الذى أبوه أبو العا صِي عليه الوقارُ والحجبُ

يعتدل التـاجُ فوق مفرقِهِ على جبـينٍ كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس : تمدحني بالتاج كأني من العجم ، وتقول في مصعب :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـــه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

ملكُه ملكُ عزةٍ ليس فيـــه جبروتٌ منـهُ ولا كبرياءُ

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا [2] .

---

١ – الموشح ٢٤٤.

٢ – الأغاني ٥ / ٧٠.

فعبد الملك لم يعجبه المدح بالجمال الحسى أو جمال الشكل ، وفضل عليه الجمال المعنوى أو جمال النفس.ومن هنا اعتبر ما مدح به مصعب بن الزبير أدل على الاتصاف بالصفات العربية الأصيلة مما مدح هو به. ولذا حرم الشاعر من العطاء .

وذكر قدامة بن جعفر أن " وجه عتب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التى هى العقل ، والعفة والعدل،والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة "[1] .

فقدامة – وكما سبق أن عرفنا – يعتبر المدح بالبهاء والزينة معيبا ؛ لأنه مدح الخليفة بما هو عرضى ، وبما لا يتصل بفضائل النفوس وهذا مما لا فخر فيه لمفتخر . ولم يوافق الآمدى على كلام قدامة هذا ، بل ورماه بسببه بالغباء وفساد الذوق وعدم الفهم لصدور هذا الكلام منه ، فقال معلقا على رأى قدامة هذا : " وهذا مثل واضح لغباء قدامة ، وفساد ذوقه ، وفهاهة نقده ، فهو لم يفهم شيئا من نقد عبد الملك بن مروان ، ولافهم شيئا من بيتى عبيد الله ، وإنما هى رغبة باطلة فى أن يقيم نفسه ناقدا للشعر مع أنه لا يفهم فى الشعر شيئا "[2].

---

١ – نقد الشعر ١٨٥ .

٢ – النقد المنهجى عند العرب د / محمد مندور ١٣٧، نقلا عن كتاب الآمدى المفقود : تبيين غلط قدامة فى كتابه نقد الشعر .

وهذا كلام لا ينبغى أن يصدر عن أديب يتمتع بذوق فنى ، فضــلا عن علمه بأسلوب الحوار والجدل والمناقشة مثل الآمدى .

ويرى الدكتور صلاح الدين الهادى أن ابن قيس الرقيــات غــير مقصر فى مدحه عبد الملك بما مدحه به ؛ لأن الأمويين " لما جعلــوا مــن الخلافة الإسلامية ملكا متوارثا كما اعترف بذلك مؤسس دولتهم معاويــة ابن أبى سفيان قائلا فى فخر : ( أنا أول الملوك ) لم يكن لهــم أن يلومــوا الشعراء إن مدحوهم بما يمدح به الملوك من قوة السلطان ، وشدة البــأس على الأعداء ، وعظمة الهيبة ، وأبهة الملك ، واعتدال التاج فوق رؤوسهم .. وما إلى ذلك مما هو أليق بمدح الملوك منه بمدح الخلفاء الذين يســتند حقهم فى الخلافة إلى أسس شرعية دينية "[1] .

وهذا كلام صادق إلى حد كبير ، ولكن كان ينبغــى للشــاعر أن يراعى أن عبد الملك ملك عربى يرتاح إلى الاتصاف بما يعــتز الإنســان العربى أن يتصف به وليس ملكا ساسانيا أو روميا .

وتعليقا على رأى الآمدى السابق فى كلام قدامة بن جعفــر أبــان الدكتور محمد مندور أن هناك فرقا واضحا بين مدح ابن قيس الرقيــات لمصعب ، وبين مدحه لعبد الملك . ولكن هذا الفرق لا يرجع إلى ما فهمــه

١ - اتجاهات الشعر فى العصر الأموى ٨٤ .

قدامة من مدح عبد الله لمصعب بأنه شهاب من الله ، ومدحه لعبد الملك باعتدال التاج فوق رأسه ؛ وإنما لما لحظه عبد الملك من توافر الحاسة الدينية التى تجرى فى الصورة الرائعة فى مدحه لمصعب ، وهى صورة الشهاب المقدس تتبدد عنه الظلمات،وعدم وجود ذلك فى صورة مدحه لعبد الملك . وهذا راجع إلى الحالة النفسية للشاعر وهو يمدح كلا الرجلين ، وهو شئ لم يفهمه قدامة . يقول الدكتور محمد مندور : " ومن منا لا يحس بالفرق القوى فى نغمات عبيد الله عندما مدح مصعب بن الزبير الذى جاهد الشاعر إلى جواره عن إيمان ومحبة ، ومدحه لعبد الملك الذى ساقته إلى جواره محن الأيام ، وأين ( الشهاب من الله الذى تتجلى عن وجهه الظلماء ) من ( الجبين الذى كأنه كالذهب والتاج يتألق فوقه)؟ أين تلك الحاسة الدينية التى تجرى فى الصورة الرائعة ، صورة الشهاب المقدس تتبدد عنه الظلمات ؟ أين هذا من ( الجبين الذى كأنه الذهب ) ، وما فى التشبيه من ابتذال وركاكة وكذب ؟ وهل يظن قدامة أن عبد الملك قد عتب على عبد الله لأنه مدحه بالجمال ولم يمدحه بالعقل والعدل والعفة ، وما إلى ذلك من تقاسيمه المضحكة التى يريد أن يقصر عليها المدح"[1] .

ومع ما فى هذا الكلام من جلاء للحق ، وكشف لمرمى الشاعر من

---

١ - النقد المنهجى عند العرب - دار نهضة مصر - بدون تأريخ - صـ ١٣٧ .

مديحه لكلا الرجلين فإنى ألتمس العذر لقدامة بن جعفر وحكمه على وجه عتاب عبد الملك للشاعر المادح ؛ فكلام عبد الملك يوحى بما قاله قدامة ، وخاصة حينما ننظر إلى ما ذكره أبو هلال العسكرى عن عبد الملك بن مروان حينما استمع إلى ما قاله الشاعر فى مديحه : " فأعطيته المدح بكشف الغمم ، وجلاء الظلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة " [١] . فهذا كلام يوحى بما فهمه قدامة وعبر عنه بكلامه السابق .

ويرى المرحوم طه إبراهيم أن بيت عبيد الله بن قيس " لم يقع موقعا حسنا من نفس عبد الملك لا لأنه عدل فى مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة ، بل لأن بين البيتين بونا شاسعا فى الجمال والقوة والروح ؛ لأن بيت ابن الرقيات فى مصعب أروع وقعا ، وأعلى نفسا ، وأمس بالنور العلوى ، وأشد إتقالا بالله الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض ، ولهذا وحده عتب عبد الملك على الشاعر ، وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية فليس فى بيت مصعب شئ منها على النحو الذى يفهمه قدامة " [٢] .

ومعنى هذا أن عبد الملك لا يحب أن يوصف بالتاج والذهب ،

---

١ – الصناعتين – تحقيق : على محمد البجاوى،ومحمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية صيدا وبيروت – طبعة عام ١٩٨٦ م – صـ ٩٨ .

٢ – تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ١٣٤ .

ويتطلع إلى الوصف بصفات دينية تدل على حرصه على الإسلام وحمايته له . وهذا ما افتقده فى بيت عبيد الله فعاتبه وحرمه من العطاء . وهو كلام قريب من كلام الدكتور محمد مندور السابق . وعلى كل فنقد عبد الملك نقد جيد يدل على تمتعه بذوق فنى جيد .

– ومن المجالس الأدبية المتصلة بهذا الجانب ما رواه ابن عبد ربه أنه " لما مدح جرير الخطفى الحجاج بن يوسف بشعره الذى يقول فيه :

من سدَّ مطلعَ النفاقِ عليكمُ  أمَّن يصولُ كصولةِ الحجَّاج

أم مَنْ يغارُ على النساءِ حفيظةً  إذ لا يثِقْنَ بغيرة الأزواجِ

وقوله :

دعا الحجاجُ مثل دعاءِ نوحٍ  فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا

قال له الحجاج : إن الطاقة تعجز عن المكافأة لكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسر إليه بكتابى هذا . فسار إليه ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن له فقال :

أتصحُو بل فؤادُك غيرُ صاحى

قال له عبد الملك : بل فؤادك . فلما انتهى إلى قوله :

تعزَّتْ أمُّ حــــرزةَ ثم قــالت  رأيتُ الواردين ذوى امتيـاحِ[1]

---

١ – امتياح : عطاء .

ثقِي بالله ليس لـــه شـــريكٌ ومَنْ عنـــدَ الخليفــةِ بالنجـــاحِ
سأشكرُ إن رددتَ إليَّ ريشي وأنبـــتَّ القـــوادمَ في جَنَـــاحي
ألستم خيرَ من ركب المطايَـــا وأنـــدَى العـــالمين بطـــونَ راحِ

ارتاح عبد الملك وكان متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت . ثم قال له : يا جرير : أترى أم حرزة ترويها مائة ناقة من نعم كلب ؟ قال : إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله . فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب سود الحدقة . فقال : يا أمير المؤمنين : إنها أباق ونحن مشايخ ، وليس بأحدنا فضل عن راحلتيه ، فلو أمرت بالرعاء ، فأمر له بثمانية من الرعاء . وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده فقال له جرير : والمحلب يا أمير المؤمنين ، وأشار إلى صحفة منها ، فنبذها إليه بالقضيب وقال : خذها لا نفعتك . ففي ذلك يقول جرير :

أعطوا هنيدةَ يحدوها ثمانيةٌ ما في عطائهم منٌّ ولا سَرَفُ (١)

---

١ - هنيدة : اسم للمائة من الإبل ، أو لما فوقها ودونها ، أو للمائتين . العقد الفريد - ابن عبد ربه ٢ / ٦٤ . وانظر الأغاني ٨ / ٦٦ وما بعدها . وذكر أبو على القالى أن الخليفة حينما استمع إلى قول جرير : ألستم خير من ركب المطايا ... البيت قال : نحن كذلك ثم قال لجرير : ردها على . فردها جرير أى أعادها ، والخليفة يزداد طربا . انظر كتاب : ذيل الأمالى والنوادر - دار الجيل ودار الآفاق - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ م - ص ٤٤ .

ووجه إعجاب الحجاج بمديح جرير فى الأبيات المذكورة أنه مدحه بالصفات العربية الأصيلة التى يمتدح بها العربى ويحب أن يتصف بها . فقد مدحه بالقوة ، والشجاعة مع الإيمان الصافى الخالى من الرياء والنفاق ، ووصفه - مع ذلك - بالمحافظة على الحرمات والغيرة عليها ، وبالتقوى والقرب من الله ﷻ .

كما وصف جرير أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بالكرم ، وسد حاجات المحتاجين ثم جعله من أناس هم خير الناس وأنداهم . وهى صفات يحبها العربى ويأنس إليها؛ولذلك أجزل له عبد الملك العطاء .

ويدل موقف عبد الملك والحجاج من هذا المدح وإعجابهما به على أن الشاعر ينبغى أن يسلك هذا المسلك فى مديحه للحكام والملوك . وقد صرح بذلك عبد الملك حين قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت .

- ومن المجالس الأدبية التى تتصل بهذا الباب ما رواه الأصمعى أن الحجاج دخل على الوليد بن عبد الملك فأنشد :

كم قد حَسَرنا من علاةٍ عنَّسِ ... كبداءَ كالقوسِ وأخرى جلسِ

فصار إلى قوله :

بين ابن مروانٍ قريعِ الأنسِ ... وابنةِ عباسٍ قريعِ عبسِ

فقال له الوليد : ما صنعت شيئا . أنشدنى غير هذا فأنشده :

وقد أرانى للغوانى مِصيَدا    ملاوةً كأن فوقى جَلَدا

فقال : مصيدا وجلدا ! لم تصنع شيئا . أفرغت مدحك فى عمر بن عبيد الله بن معمر إذ قلت :

حول ابن غرَّاءَ حصان إن وَتَرْ    فازَ وإن طالبَ بالوغم اقتدَرْ [1]

وتقول فى :

بين ابن مروانٍ قريع الأنسِ    وابنةِ عباسٍ قريع عبسِ

فقال : يا أمير المؤمنين : إن لكل شاعر غربا ، وإن غربى ذهب فى ابن معمر "[2] .

فالخليفة لم يعجب بمدح الشاعر إياه بأبيه وأمه ، وأنه ابن فلان وفلانة ، وفضل عليه المدح بالصفات النفسية وبالأخلاق التى كان العربى يفخر باتصافه بها كالعقل ، والعفة ، وسمو الأصل ، والجود والكرم.. إلى غير ذلك . وهو فى ذلك معبر عن الذوق العربى فى المديح .

– ومن هذا الباب أيضا – حب المدح بالصفات النفسية والصفات العربية الأصيلة – ما رواه ابن سلام عن أبى يحيى الضبى قال : لما هرب

---

١ – الوغم : الذحل والترة .

٢ – الموشح للمرزبانى ٢٧٦ .

الفرزدق من زياد حين استعدى عليه بنو نهشل فى هجائه إيــــاهم ، أتـــى سعيد بن العاصى – وهو على المدينة أيام معاوية – فاستجاره فأجـــاره ، والحطيئة وكعب بن جعيل حاضران ، فأنشده الفرزدق :

ترى الغرَّ الجحاجحَ من قريـشٍ  إذا ما الأمرُ فى الحدثان عــــالا
بنى عمِّ النبىِّ ورهطِ عمــــرو  وعثمانَ الألى غلبـــوا فعــالا
قيامـــاً ينظـــرون إلى ســـعيدٍ  كـــأنهمُ يـــرْونَ بـــه هِـــلالا

فقال الحطيئة : هذا والله لشعر ، لا ما تعلل به منذ اليوم أيها الأمير. فقال كعب بن جعيل : فضِّلْه على نفسك ولا تفضِّلْه على غيرك . فقال : بلـــى والله أفضله على نفسى وعلى غيرى . أدركتَ من قبلك وســـبقتَ مـــن بعدك . ثم قال له الحطيئة : يا غلام : لئن بقيت لتبرزن علينا". (1)

ووجه إعجاب الحطيئة بهذه الأبيات أن الشاعر خاطب الأمير فيـــها بكل ما يجب أن يخاطب به ، ومدحه بما يغذى فيه جوانب الفخر ، ويمـــلأ نفسه إعجابا من توجه سادة قريش إليه فى الملمات ، وبعلو المنزلة ، وقربـه من النبى ﷺ وابتعد فيها عن مدحه بالصفات العرضية أو ما يتعلق بحســـن صورته الخارجية .

– ومن هذه المجالس أيضا ما روى أنه وفد الأخطل علـــى معاويـــة

---

١ – طبقات فحول الشعراء – ابن سلام الجمحى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ٢ – ١٩٨٨ م صـــ ١١١ .

فقال: قد امتدحتك بأبيات فاسمعها . فقال : إن كنت شـــبهتنى بالحيـــة والأسد أو الصقر فلا حاجة لى بها ،وإن كنت قد قلت كما قالت الخنساء:

فما بلـــغَ المهدونَ للناسِ مدحةً ... وإن أطنبوا إلا الذى فيكَ أفضلُ
وما بلغـــتْ كفُّ امرئٍ متناولاً ... مـــن المجد إلا والذى نلتَ أطولُ

فقل . فقال الأخطل : والله لقد أحسنت ، وقد قلت فيك بيتين مـــا هما بدونهما ثم أنشد :

إذا متَّ ماتَ العُرْفُ وانقطع الندى ... فلم يبقَ إلا من قليلٍ مصرَّدِ
وَرُدَّتْ أكـــفُّ السائلين وأمسَكُوا ... عن الدينِ والدنيا بجزنٍ مجددِ [1]

واستجادة معاوية لبيتى الخنساء سببه فى رأيى ما يحملانه من معـــانى التسامى بالممدوح ، وإعلاء أمره ، وبلوغه قمة المجد ، وهى صفات ترجـع إلى تمجيد نفس الممدوح وترسيخ الفضائل النفســـية فيـــه ، ولا تتصـــل بالصفات الجسمية التى لا يعجب بها معاوية وطالب الأخطل بألا يرددهـــا على مسامعه . وقد وافقه الأخطل فى استجادة بيتى الخنساء وزعم أنه أعد بيتين يحملان من المديح ما لا يقل عن مديح الخنساء . وإن كنت أرى أن بيتى الأخطل دون بيتى الخنساء فى إصابة المدح وإرضاء الممدوح ، خاصـــة إذا نظرنا إلى مطلعهما ، وحديث الشاعر فيه عن موت الممدوح وما قـــد يثيره هذا فى نفسه من اشمئزاز وانقباض .

---

١ - زهر الآداب للحصرى ٢ / ٩٢٣ .

- ويندرج تحت هذا الباب أيضا ما حكاه صاحب زهـــر الآداب قال: " روى أبو عبيدة عن محمد بن عمران المرزبانى قال : قال أبو عمـرو ابن العلاء الشيبانى : قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف الثقفى وعنده وجوه أصحابه وأشرافهم . فبينما هو جالس معهم إذ أقبلت جارية فأشار إليها وأشارت إليه . فلم تلبث أن جاءت جارية من أجمل النســاء وأكملهن وأتمهن خلقا ، وأحسنهن محاورة . فلما دنت منـه سـلمت ثم قالت : أتأذن أيها الأمير ؟ قال : نعم . فأنشدت :

أحجـاجُ إن الله أعطـاك غايـةً يقصِّر عنها مَـنْ أرادَ مَدَاهـا
أحجاجَ لا يُفلَلْ سلاحُك إنما الـ منايا بكفِّ اللهِ حيـثُ تراهـا
إذا وردَ الحجاجُ أرضاً مريضـةً تتَّبع أقصَـى دائـها فشـفاها
شفاها من الداءِ العياءِ الذى بهـا غلامٌ إذا هـزَّ القنـاةَ ثناهـا
إذا سمع الحجاجَ صـوتَ كتيبـةٍ أعدَّ لها قبـلَ النزولِ قِراهـا
أعـدَّ لهـا مصقولـةً فارسـيةً بأيدى رجالٍ يحلبـون صراهـا

حتى أتت على آخرها . فقال الحجاج لمن عنده : أتعرفون من هذه؟ قالوا : ما نعرفها ولكن ما رأينا امرأة أطلق لسانا منها ، ولا أجمل وجـها، ولا أحسن لفظا . فمن هى أصلح الله الأمير ؟ قال : هى ليلى الأخيليـة صاحبة توبة بن الحمير التى يقول فيها :

ولو أن ليلـى الأخيليةَ سلَّمت علـىَّ ودونـى جندلٌ وصفائحُ

لسلمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزقا　　إليها صدى من جانب القبرِ صائحُ

ثم قال لها : يا ليلى : أنشدينا بعض ما قاله فيك توبة . فأنشدته :

نأتكَ بليلى دارُهـا لا تزورهـا　　وشطت نواها واستمرَ مريرُهـا
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تبرقَعَتْ　　وقد رابني منها الغداةَ سفورُها
عليَّ دماءُ البدنِ إن كان زوجُها　　يرى لي ذنباً غيرَ أني أزورُهـا
وإني إذا ما زرتُها قلتُ يا اسلمي　　فهل كانَ في قولي اسلمي ما يضيرُها

حتى أتت على آخرها . فقال : يا ليلى : ما رابه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير : ما رآني قط إلا متبرقعة . فأرسل إليَّ رسولا إنه ملم بنا فنظر أهل الحي رسوله فأعدوا له وكمنوا ، ففطنت لذلك من أمرهم . فلما جاء ألقيت برقعي وسفرت . فأنكر ذلك فما زاد على التسليم وانصرف راجعا . فقال لها الحجاج : لله درك ! فهل كانت بينكما ريبة قط ؟ قالت: لا والذى أسأله صلاحك ، إلا أني رأيت أنه قال قولا فظننت أنه خضع لبعض الأمر فقلت :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تبُحْ بها　　فليس إليها ما حييتَ سبيلا
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن تخونه　　وأنتَ لأخرَى صاحبٌ وخليلُ

فما كلمني بشئ بعد ذلك حتى فرق الموت بيني وبينه" [1] .

---

١ - زهر الآداب ٢ / ٩٣٦ ، وانظر العقد الفريد ١ / ٣٤٢ . والصرى : بقية اللبن . وزقا : صاح .

وواضح من سكوت الحجاج على ما أنشدته فيه ليلى من شعر المديح إعجابه بهذا الشعر ورضاه عنه . وما ذلك إلا لأن أبياتها تضمنت من المعانى ما ينبغى أن يشتمل عليها شعر المديح من وصف الممدوح بالقوة والشجاعة ، والجود والعفة ، مع الدعاء له بطول البقاء ، وإسباغ صفة العدل عليه كحاكم . والنقاد وفى مقدمتهم قدامة بن جعفر يرون أن هذه الصفات من أهم ما ينبغى أن يدور حوله شعر المديح ويتضمنه .

وفى الوقت نفسه روى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات :

أحجاجُ إن اللهَ أعطاك ...

إلى قولها : غلامٌ إذا هزَّ القناةَ ثناها . قال لها : لا تقولى غلام ، ولكن قولى : همام "[1].

ويقصد الحجاج من تعقيبه هذا أن تبالغ الشاعرة فى وصف شجاعته وأن تبعد عنه ما يوحى بعدم حنكته بالأمور . فلم يقبل أن تصفه ليلى بأنه ( غلام ) ؛ وذلك لما توحى به هذه الكلمة فى نفس السامع من معانى الطيش والنزق والصبوة والجهل .

ب – تحدث النقاد كثيرا عن المطالع فى الشعر ، أو عن المبادى

---

١ – زهر الآداب ٢ / ٩٣٧ .

وافتتاحات القصائد ؛ فطالبوا الشعراء بأن يبذلوا غاية الجهد فى إجـــادة مطلع القصيدة وإتقانه ؛ لأن حسن الافتتاح داعية الانشـــراح ، ومطيـــة النجاح . وهو أول ما يقرع السمع ، ويستدل به على ما عند الشاعر من أول وهلة ، كما يقول ابن رشيق [1] .

كما طالبوا الشاعر أن لا يكون فى مطالع قصائده ما يشـــم منـــه رائحة تشاؤم أو تطير ، وألا تشتمل على ما لا يصح أن يوجه به الخطـاب إلى الممدوح [2] .

وقد أشار ابن طباطبا قديما إلى هذا الأمر فى قوله : " وينبغى للشاعر أن يتحرز فى أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به ، أو يستجفى من الكـــلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف إقفار الديار ، وتشتت الألاف ، ونعـى الشباب ، وذم الزمان . لا سيما فى القصائد الـــتى تتضمـــن المدائـــح أو التهانى. ويستعمل هذه المعانى فى المراثى ووصف الخطوب الحادثة ؛ فـــإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه وإن كان يعلـــم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح "[3] .

---

١ - انظر : العمدة ١ / ٢١٧ ، ٢١٨ .
٢ - انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب - د / أحمد بدوى - دار نهضـــة مصـــر - ١٩٩٤ م - صـــ ٢٩٧ .
٣ - عيار الشعر - تحقيق : د / عبد العزيز ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشـــر - ١٩٨٥ م صـــ ٢٠٤ .

ويرى أبو هلال العسكرى رأى ابن طباطبا فى ذلك ، ويستعمل فى التعبير عنه كثيرا من عباراته ؛ فذكر أنه ينبغى للشاعر أن يبتعد فى أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه ، ويستجفى من الكلام ، والمخاطبة ،والبكاء ، ووصف إقفار الديار ، وتشتيت الألاف ، ونعى الشباب ، وذم الزمان . لاسيما فى قصائد المديح والتهانى . وإن جاز استعمال ذلك فى المراثى ووصف الخطوب الحادثة فإن الكلام إذا بدئ بذلك كان أدعى إلى أن يتطير منه سامعه حتى وإن ظن الشاعر أنه يخاطب نفسه بذلك دون الممدوح [١] . كما ذكر أبو هلال أن " الابتداء إذا كان حسنا بديعا ومليحا رشيقا كان داعية إلى الاستماع لما يجئ به من الكلام " [٢] . وهذا هو ما أشار إليه ابن رشيق فى كلامه السابق .

كما نبه ابن الأثير إلى هذا الأمر فى حديثه عن مبادى وافتتاحات القصائد فى كتابه المثل السائر ، وجاء كلامه فى هذا الصدد ترديدا لكلام سابقيه ، وخاصة ما جاء فى كلام ابن طباطبا ، وأبى هلال العسكرى ، وابن رشيق القيروانى [٣] .

---

١ - الصناعتين ٤٣١ بتصرف .
٢ - المرجع السابق ٤٣٧ .
٣ - أنظر المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - طبعه عام ١٩٩٠ - ٢ / ٢٢٤ .

وهكذا نجد إجماعا من النقاد على وجوب أن يهتم الشاعر بمطالع قصائده ، وأن يعنى بتجويد افتتاحات أشعاره ، ويبتعد فيها عن كل ما قد يعكر صفو الاستماع إلى الشعر ، ويقلل من انشراح السامع وخاصة فى شعر المديح . وفى المجالس الأدبية فى العصر الأموى إشارة إلى هذا الأمر و تنبيه الشعراء إليه من خلال ما قيل فيها من نقد يتعلق بمطالع بعض القصائد والأشعار .

- ومن ذلك ما يروى أنه دخل الفرزدق على عبد الملك بن مروان فقال له : من أشعر أهل زماننا ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين . قال : ثم من ؟ قال : غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة . ثم دخل عليه جرير بعد ذلك فقال له: من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين . قال : ثم من ؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة . فأحب عبد الملك أن يراه لقولهما . فوجه إليه فجيء به فقال : أنشدني أجود شعرك . فأنشده :

ما بالُ عينكِ منها الماءَ ينسكبُ كأنها من كُلًى مفريةٍ سربُ

وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء . قال : فغضب عليه ونحاه . فقيل له : ويحك ! إنما دهاك عنده قولك : ( ما بال عينك منها الماء ينسكب ) . فاقلب كلامك . فصبر حتى دخل الثانية فقال له : أنشد. فأنشد :

ما بالُ عينيَّ منها الماءُ ينسكِبُ

حتى أتى على آخرها فأجازه وأكرمه " [١] .

وإنما عيب على ذى الرمة مطلع قصيدته هنا لأنه جاء فيه بكـــلام يشتم منه رائحة التعريض بالخليفة . ولذلك روى أنه قال للشاعر حينمـا استمع منه إلى هذا البيت : " وما سؤالك عن هذا يا جـاهل " [٢] . وإن كان الشاعر لم يقصد ما تطرق إليه ذهن الممدوح . وقد يكـون الخليفـة على علم بأن الشاعر إنما يخاطب نفسه ولم يقصده هو ولكنه استثقل هـذه المواجهة . فكان من الواجب أن يراعى الشاعر ذلك بحضرته .

- ويروى أن جريرا حينما أنشد عبد الملك قوله :

أتصحُو بل فؤادُك غيرُ صاحى        عيشـةَ همَّ صحبُك بالرواحِ

قال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن اللخناء " [٣] .

فالشاعر هنا أساء المطلع ، ولم يتخير الوجه الأفضل فى مخاطبـة الخليفـة فجبهه الخليفة بما أبان عن غضبه وضيقه بما قال .

- ومن ذلك أيضا ما يروى أن الأخطل حضر مجلسا لعبد الملك بـن مروان فقال له الأخطل : أيزعم ابن المراغة أنه بلغ مدحتك فى ثلاثة أيـام

---

١ - الموشح ٣٠٢ .
٢ - العمدة ١ / ٢٢٢ .
٣ - الموشح ٣٠٤ .

وقد أفنيت بمدحك فى قصيدة حولا ما بلغت كل الذى أردت ؟ فقال لـــه عبد الملك : فأنشدنى . فأنشده :

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بَكَرُوا      وأزعجتهُم نوىً فى صرفِها غِيَرُ

فتطير عبد الملك وقال : بل منك أنت إن شاء الله . فجعله الأخطل:

خفَّ القطينُ فراحوا اليومَ أو بكروا [1] .

فالشاعر واجه الخليفة فى مطلع قصيدته بما يثير فيه روح التشـــاؤم والتطير ، واستقثل منه الخليفة هذه المواجهة فقال له ما قـــال ، وكأنـــه يطلب منه أن يأتى بقصيدته حسنة المطلع جيدة الابتداء بعيدة عن الإيحـــاء بالتشاؤم .

- ومما يندرج فى هذا الباب ما روى عن محمد بن يحيى الصولى قال: مما يعد على جرير أفنا قوله لبشر بن مروان :

قد كان حقك أن تقول لبارقٍ      يــا آلَ بارقَ فيم سُبَّ جريرُ

فلما سمع بشر هذا قال : قبح الله ابن المراغة : أما وجـــد رســـولا غيرى ؟ وأى شئ يستحق منى أن أقول هذا لبارق ؟[2] .

فجرير هنا أساء الحديث عن الوالى ، وكان عليه أن يـــدرك وجـــه

---

١ - انظر الموشح صـــ ١٩٣ ، ٣٠٣ .

٢ - انظر الموشح ١٦٥.

الصواب فى حديثه عن الوالى وينزله المنزلة اللائقة به ، ويصغر من منزلتـــه هو بجانب منزلة الوالى ، ولكنه فعل العكس فغضب الوالى من كلامه وقال فى حقه ما قال .

جـــ - كما طالب النقاد الشاعر ألا يكون فى شـــعره مـــا يكرهه الممدوح أو يثير غضبه أو ينغص عليه لذتــــه ، وأن يختـــار للأوقات ما يشاكلها من التعبير، وينظر فى أحوال الممدوحين ويقصـــد إلى محاباتهم ، ويميل إلى شهواتهم ، وإن خالفت شهوته ويبتعد عن ذكـــر مـــا يكرهون سماعه (١) .

- وفى المجالس الأدبية فى العصر الأموى ما يشير إلى هذا المعـــنى . ومن ذلك ما يروى أن أبا النجم العجلى أنشد هشام بـــن عبـــد الملـــك أرجوزته اللامية . فلما وصل إلى قوله :

والشمسُ قد صارت كعين الأَحْوَلِ

وذهب عنه الروى فى الفكر فى عين هشام - وكان هشام أحـــول - فأغضبه وأمر به فطرد (٢).

- ومن هذا ما رواه الأصفهانى أن عبد الملك بن مروان أنشد قـــول

---

١ - انظر العمدة ١ / ٢٢٣.

٢ - الموشح ٣٠٤ ، وأنظر الأغانى ١٠ / ١٦٣.

كثيِّر فيه ( متحدثا عن خلافته ) :

فما تركوها عنوةً عن مودةٍ ولكنْ بحدِّ المشرفيِّ استقالها

فأعجبه وسأل الأخطل عن رأيه فيه ،فقال له الأخطل : ما قلت لـك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

أهلُّوا من الشهر الحرام فأصبحُوا موالِيَ ملكٍ لا طريفٌ ولا غصبُ

جعلته لك حقا ، وجعلك أخذته غصبا . قال : صدقت " [1]

والمعنى فى بيت الأخطل أفضل فى باب النقد من معنى بيت كثـيِّر . حيث جعل الأخطل الخلافة حقا لعبد الملك ، وملكا سائغا له . وجعل من ينازعونه فيها موالى له عن رضى واقتناع . بينما ذكر كثيِّر استيلاء عبـد الملك على الخلافة ، وأنه انتزعها ممن كانت لهم انتزاعا ، واغتصبها منـهم بحد سيفه اغتصابا . وفى هذا ما يغضب الخليفة ويكره سماعه .

" وانتقاص الأخطل لبيت كثير - كما هو معلوم - لا يصدر عـن تقرير فنى . وقد ينضح بالملق السياسى الذى يتقرب به إلى عبد الملك وهو ملق لا شك فيه ؛ لأنه نصرانيته تحجب الحق فى الخوض فى إمامة المسلمين. وقد يجد بيت كثيِّر بخلاف ذلك تقديرا كبيرا من خصـوم عبـد الملـك

١ - الأغانى ٨ / ٢٨٧ ، وأنظر الموشح ٢٠١ .

ومعارضى خلافته ، لأنه يعبر عن رأيهم السياسى فى الخلافة " [١].

- ومما يندرج تحت هذا الباب ما ذكره المرزبانى عن عمرو بن سعيد قال : حدثنى أبى قال : قدم علينا إبراهيم بن متمم بن نويرة فنزل بنـــا . فكلمت فيه عبد الملك بن مروان فقلت : يا أمير المؤمنين : ما رأيت بدويا يشبهه عقلا وفضلا . قال : أدخله . فأدخلته فرأى منه ما رأينا منه . فقال أنشدنا بعض مراثى أبيك فى عمك . فأنشده :

نعم الفوارسُ يومَ نشبةَ غادروا    تحت الترابِ قتيلَك ابنَ الأزورِ

فلما انتهى إلى قوله :

أدعوتَــه بالله ثــمَّ قتلتَــه    لو هُوْ دعاكَ بمثلها لم يغدُرِ

قال : فالتفت عبد الملك إلىَّ فعرفت ما أراد . فقلت : يا أمير المؤمنـــين : إن كنت علمت أو طلعت أو شاورت أو جرى فى هذا قول أو فعل فكـل مرة [٢] له طالق ، وكل مملوك له حر ، وكل مال له فى المساكين ، وعليـه المشى إلى بيت الله . وحلف بنو عمرو بن سعيد - وهم أخواله - مثلها . فقال عبد الملك : وذاك وذاك . فقام والله ما أمر له بشىء . فلما انصرفنـا

١ - الشعراء نقادا - د / عبد الجبار المطلبى - سلسلة آفاق - دار الشـئون الثقافيـة العامة - بغداد - ط ١ - ١٩٨٦ م صـ ٢٠٨.

٢ - مرة : يعنى امرأة .

جمعنا له بيننا دراهم وكسوة وجهزناه ورجع إلى بلاده "[١] .

قال المرزباني : " وإنما كره عبد الملك استماع هذا الشعر لقتله عمرو بن سعيد الأشدق بعد إعطائه الأمان ، وقدر أن ابن متمم وضعه بنو عمرو بن سعيد على إنشاد البيت الأخير " [٢] .

فوجه غضب الملك هو أن البيت يوحى بوصف الخليفة بالغدر وعدم الوفاء بالذمة والعهد فى الوقت الذى وصف المقتول فيه بالأمانة والوفاء. أى أن الشاعر ذكر على مسامع الخليفة ما يكره ولم يراع مقتضى الموقف الذى ينشد فيه قصيدته .

ويعلل ابن رشيق سبب وقوع الشاعر فى مثل هذه الهنات فيقول : " وإنما يؤتى الشاعر فى هذه الأشياء إما من غفلة فى الطبع وغلظ ، أو من استغراق فى الصنعة وشغل هاجس بالعمل ، يذهب مع حسن القول أين ذهب . والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها وينظر فى أحوال المخاطبين " [٣] .

أى أن الشاعر قد يقع فى هذه الهنات لأنه ينشغل بنظم الشعر فقط دون أن يتنبه للظرف الذى ينشد فيه الشعر ، ولا لمن يلقى إليه هذا

---

١ - الموشح ٣٠٣ ، ٣٠٤.
٢ - الموشح ٣٠٤ .
٣ - العمدة ١ / ٢٢٢ .

الشعر . وقد يكون كلامه غير متناسب مع مقامه ومكانته . ويذكر ابن عبد ربه أنه " قد يأتى من الشعر فى طريق المدح ما الذم أولى به من المدح، ولكنه يحمل على محمل ما قبله وما بعده " [1].

د – وطالب النقاد الشاعر أن يتجنب فى مديحه التشبيب بامرأة يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح من أمة أو قريبة أو غيرهما ، وكذلك ما يتصل به سببه أو يتعلق به وهمه لكرههم ذلك . ومن ذلك ما يروى عن عبد الله بن كثير التميمى قال : دخلت على زياد بن أبيه فقال: أنشدنا . فقلت : من شعر من ؟ قال : من شعر الأعشى . قال : فأرتج على إلا قوله :

رحلت سمية غدوة أجمالها      غَضْبَى عليك فما تقولُ بدا لها

قال : فقطب زياد وعرفت ما وقعت فيه ، وقيل للناس : أجيزوا فأجزت . فوالله ما عدت إليه . وكانت اسم أم زياد سمية فكره ذكر ذلك"[2].

– ومن ذلك ما يروى أن أرطاة بن سهية الشاعر لما أنشد عبد الملك بن مروان قوله :

---

١ – العقد الفريد ٥ / ٣٨٧ .

٢ – الموشح ٣٠٢ وروى الأصفهانى الخبر عن حماد الرواية – أنظر الأغانى ٦ / ٨٨ .

وما تبغى المنيةُ حين تغـدو ... على نفس ابن آدمَ من مزيدِ
وأحسبُ أنها ستكرُّ حتـى ... تُوَفـِّى نـذرَها بأبى الوليدِ

فقال له عبد الملك : ما تقول ثكلتك أمك ؟ قال : أنا أبو الوليد يـا أمير المؤمنين. وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد أيضا . ولم يـزل يعـرف كراهة شعره فى وجه عبد الملك إلى أن مات" [1] .

فقد أسمع الشاعر الخليفة بعض ما يكره وما يحمـل مـن التطـير والتشاؤم ما نغص على الشاعر لذته وكدر مجلسه . وهو وإن لم يقصد بمـا قال الخليفة ، إلا أنه كان من الواجب عليه ألا يكون فى عباراته ما يثير فى ذهن الممدوح ما لا يريد هو أن يتجه إليه الذهن .

وما قاله أرطاة بن سهية فى بيته السابقين يشبه إلى حد كبير قـول موسى شهوات – وقيل غيره – فى مدح أحد الملوك :

ليس فيما بدا لناَ منك عيْبٌ ... عابهُ الناسُ غير أنَّك فانِ
أنت نعم المتاعُ لو كنتَ تبقى ... غير أن لا بقـاءَ للإنسانِ

فيجب أن يعلم الشاعر أن ذكر الموت ينغص على الملوك لذاتهـم ، فيبتعد عن ذكره فى مديحه لهم .

---

١ – اقرأ: عيار الشعر لابن طباطبا صـ ٢٠٧ ، واقرأه فى الموشح صـ ٣٠٥ مع بعـض الزيادات .

هـ - وذكر النقاد أن المدح يستحب فيه أن يصحب بلون من المبالغة فى الوصف وخاصة إذا كان الممدوح خليفة أو ملكا أو أميرا، لأن الممدوحين من هؤلاء يحبون المبالغة فى مدحهم،وأن يرفع الشعراء أقدارهم فوق البشر . وقد ذكرت قبل ذلك قول ابن رشيق أنه "إذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه ، ولا كيف أطنب . وذلك محمود "(١) . وعبر قدامة عن هذا المعنى قبل ابن رشيق فقال : " إن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية " (٢) . وفى قوله : " ومن الشعراء أيضا من يغرق فى المدح بفضيلة واحدة أو اثنتين ؛ فيأتى على آخر ما فى واحدة منهما أو أكثر . وذلك إذا فعل مصيبا به الغرض فى الوقوع على الفضائل ومقتصرا على المدح الجامع لها . لكنه يجود فى المديح حينئذ كلما أغرق فى أوصاف الفضيلة وأتى بجميع خواصها أو أكثرها "(٣).

وفى المجالس الأدبية فى العصر الأموى أمثلة تدل على ذلك وتصدقه. ولا يبعد أن يكون النقاد قد قالوا باستحباب المبالغة فى المدح من خلال اطلاعهم على ما سطر من نقدات فى هذه المجالس .

---

١ - العمدة ٢ / ١٢٩.
٢ - نقد الشعر ١٠٠ .
٣ - نقد الشعر ١٠٦ .

- ومن هذه المجالس ما رواه المرزبانى قال : أنشد كثير عبد الملك ابن مروان مدحته التى يقول فيها :

على ابن أبى العاصى دلاصٌ حصينَةٌ    أجادَ المسدِّى سردَها وأذالها
يئودُ ضعيفَ القوم حملُ قتيرها    ويستضلعُ القرمُ الأشمُّ احتمالَها[1]

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب إلى من قولك إذ يقول :

وإذا تجئ كتيبةٌ ملمومةٌ    شهباءُ يَخْشَى الذائدون نهالَها
كنتَ المقدمَ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ    بالسيف تضربُ معلِماً أبطالَها

فقال : يا أمير المؤمنين : وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم . فأرضاه "[2] .

فكثيرٌ يصف عبد الملك بأنه فى الحرب يحمل درعا متينة متقنة الصنع، طويلة ثقيل حديدها ، حتى إنه لا يستطيع الضعيف حملها ، ويستثقل القوى رفعها . وهو بذلك يصف أمرا واقعيا ؛ لأن عبد الملك يفعل ذلك إذا حارب . ولكن عبد الملك لا يرضيه اكتفاء الشاعر بوصف

---

١ - الدلاص : الدرع اللينة الملساء . المسدى : ناسج الدرع . السرد : حلق الدرع . أذالها : أطال ذيلها وهو مما يستحسن فى الدروع . القتير : رؤوس المسامير فى الدرع ويرادبها الدروع أيضا . يستضلع : يستثقل .

٢ - الموشح ١٩٧ ، وانظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجحمى صـ ١٦٧ .

الواقع ، وإنما يريد من الشاعر أن يصوره محاربا باسلا فى حروبه ، يتقدم جنده ، ويقابل جيش عدوه المتعدد الأجناس ، المتسلح بالدروع والرماح. أما هو فيتقدم جنده بلا درع يحميه يضرب أبطال الأعداء بالسيف غير هياب ولا مستتر . أى أنه يريد من شاعره أن يبالغ فى وصفه بالشجاعة ، ولا يقتصر على وصف الواقع. ولذلك فضل قول الأعشى على قول كثيِّر؛ لما فيه من المبالغة فى وصف شجاعة الممدوح ؛ فقد بالغ الأعشى فى وصف شجاعة ممدوحه حتى جعله شديد الإقدام بغير جنة . وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم ، وأحق بالصواب كما قال كثير، إلا أن وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه ؛ لأن المبالغة عند أهل العلم أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط [1] .

– ومن المجالس الأدبية التى أشير فيها إلى هذا المبدأ النقدى ما رواه المرزبانى وغيره عن محمد بن يحيى قال : يقال إن جريرا ما انتصف من الفرزدق فى مجلس قط إلا عند الحجاج يوما . زعم ابن سلام عن أبى الدهماء قال : قال الحجاج للفرزدق وجرير – وبين يديه خلعة – وقيل جارية : أيكما مدحنى ببيت فضل فيه فهذه الخلعة – أو الجارية – له . فقال الفرزدق :

١ – أنظر الموشح ١٩٧

مَنْ يأمن الحجاجَ والطيرُ تتقى عقوبتَه إلا ضعيفُ العزائمِ

وقال جرير :

مَنْ يأمــن الحجاجَ أما عقابُه فمــرٌّ وأمــا عقــدُه فوثيقُ
يُسِرُّ لك البغضاءَ كلُّ منافقٍ كما كلُّ ذى دينٍ عليك شفيقُ

فقال الحجاج : " والطير تتقى عقوبته " كلام لا خير فيه لأن الطير تتقــى كل شئ الثوب والصبى ، وغير ذلك . خذها يا جرير"[1] .

فالحجاج لم يرض بمدح الفرزدق الذى أنزل فيه من وصف شــجاعة الممدوح ، أو اكتفى فيه باليسير الهين من الوصف بالشجاعة ؛ لأنه مدحــه بشئ لا يدل على القوة والمهابة . فقد دلل على قوة الممدوح وهيبته بــأن الطير تخاف عقوبته . والطير - كما يقول الحجاج فى روايــة أبى هــلال العسكرى - تتقى كل شئ ، وتنفر من الصبى والخشبة . بينمــا ارتفــع جرير بمكانة الممدوح بما يدل على هيبته وقوته ، وهو أن عقابه مر وعـهده وثيق لا رجعة فيه .

وهذا يدل على أن الشاعر ينبغى أن يميل فى مديحه إلى شــئ مــن المبالغة التى تضفى على الممدوح هالة من القدسية والمهابة .

ويرى الدكتور أحمد بدوى " أن بيتى جرير معيبان كذلــك ؛ لأن

١ - الموشح ١٥٥ ، وانظر الصناعتين صـ ١٠١ .

صدر البيت الأول ينفى أن يأمن الحجاج أحد . بينما يصفه الشـــاعر فى آخر البيت بأنه وثيق العقد ، أى أنه إذا عاهد وفى . ومعنى ذلك أن مـــن عاهده على السلم ضمن له وفاء الحجاج تمام هذا العهد وأمن جانبـــه . وفى ذلك ما ينفى شمول أن الحجاج لا يأمنه أحد . وليس فى الإخبار بـــأن المنافق يسر له البغضاء كبير فائدة . فالأبيات الثلاثة يطبعـــها الضعـــف الناشئ عن الارتجال"[1] .

وفات على الدكتور أحمد بدوى أن غرض الشاعر بالبيت الأول من بيتى جرير أنه لا يأمن من الحجاج أحد غير من لم يكن بينه وبين الحجـــاج عهد أو ميثاق . أما من كان بينه وبين الحجاج شئ من ذلك فهو آمـــن . وفى ذلك دلالة أخرى على هيبته وقوته .

– ومما يتصل بذلك ما جاء فى الأغانى من أنه دخل نصيـــب علـــى إبراهيم بن هشام فأنشده مديحا له . فقال إبراهيم : ما هذا بشئ . أيـــن هذا من قول أبى دهبل لصاحبنا ابن الأزرق حيث يقول :

إن تغدُ من منقلَىْ نجرانَ مرتحِلاً ... يرحلْ من اليمنِ المعروفُ والجودُ [2]

فغضب نصيب ونزع عمامته وبرك عليها وقال : لئن تأتونا برجال مثـــل ابن الأزرق نأتكم بمثل مديح أبى دهبل أو أحسن . إن المديح والله يكـــون

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٠٧ .
٢ – منقلى : مثنى منقل وهو الطريق فى الجبل .

على قدر الرجال . قال : فأطرق ابن هشام وعجبوا من إقـــدام نصيــب عليه،ومن حلم ابن هشام وهو غير حليم"[١] .

والخبر يدلنا على شئ هام فى النقد الأدبى ؛ وهو أن الشاعر ينبغـــى أن يصقل مديحه بشئ من المبالغة والتفخيم حتى وإن كان الممــــدوح دون ذلك ، ولا يقتصر فى مديحه له على ما هو واقع . وليـــس فى احتجـــاج نصيب بما احتج به ما يبرر تقصيره فى المديح .

" وإذا كان النقاد يقولون : إن لكل إنسان مدحا خاصا به ، فليـس معنى ذلك أنهم يريدون أن يقف عند الصفات الحقيقية للممدوح ، بـــل معناه أن لكل صنف من الناس صفات خاصة به ينبغى أن يقصد المـــادح إليها إذا أراد أن يقرض مدحا ... ولذا سهل على بعض الشعراء أن ينقل شعر المدح من إنسان إلى آخر؛ لأن الشعر لم يلتزم تسجيل سمات معينـــة لإنسان معين " [٢] .

و – وذكر النقاد أنه لا يجوز للشاعر المادح أن يكون معجبا بنفسه، مفتخرا بها أو بشعره أمام الممدوح ، بل عليه أن ينكـــر ذاتـــه فى حضرة ممدوحه – وخاصة إذا كان ملكا أو حاكمـــا – ." اللـــهم إلا أن

---

١ – الأغانى : ١ / ٣٤١ .

٢ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٢١٣ ، ٢١٤ .

يريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيثنى على نفسه ويذكر فضل قصيدته ؛ فقد جعلوه مجازا مسامحا فيه " [1] .

وفى مجالس الأمويين الأدبية ما يدل على ذلك ويوحى به من خلال ما علق به الممدوحون على ما سمعوه من الشعراء الذين توجهوا إليهم بالمديح ، وأشركوا فيه أنفسهم .

– ومن ذلك ما يروى من أن مروان بن الحكم حج فسار بين يديه جميل بن عبد الله بن معمر ، وجواس بن قطبة أخو عبد الله بن قطبة . فقال مروان لجواس : انزل فارجز بنا – وهو يريد أن يمدحه – فنزل جواس وقال – وكان قد بلغه عن مروان أنه توعده إن هاجى جميلا – :

يقول أميرى هل تسوقُ ركابَنا فقلتُ اتخذْ حادٍ لهنَّ سِوائيا
تكرمتُ عن سوقِ المطىِّ ولم يكن سياقُ المطايا همتى ورجائيا
جعلتَ أبى رهنًا وعرضىَ سادراً إلى أهل بيت لم يكونوا كفائيا
إلى شرِّ بيتٍ من قضاعةَ منصبًا وفى شرِّ قوم منهم قد بدا ليا

فقال مروان : اركب لا ركبت ! ثم قال لجميل : انزل فارجز بنا – وهو يريد أن يمدحه – فنزل جميل فقال :

أنا جميلٌ فى السنام الأعظمِ القارعِ الناسَ الأغرِّ الأكرمِ

---

١ – العمدة ١ / ٢٠١ .

أحمى ذمارى ووجدتُ أقرَمى        كانوا على غارب ِطود ٍخضرم ِ
أعيا على الناس ِفلم يهدَّم ِ .

فقال مروان : عد عن هذا . فقال جميل :

لهفاً على البيت المعدى لهفا        من بعد ما كان قد استكفا
ولو دعا اللهَ ومدَّ الكفَّا        لرجفتْ منه الجبالُ رجفا

فقال له : اركب لا ركبت "[1].

ووجه غضب الخليفة وعدم رضاه عن هذا الشعر هو أن الشاعرين قد افتخر كل منهما فى حضرة الخليفة.وكان ينتظر منهما أن ينشداه مديحا فيه، إلا أنهما انشغلا بالحديث عن أنفسهما وتعديد صفاتهما عما أراد الخليفة منهما . وهذا يصدق ما أشار إليه النقاد بعد ذلك من أنه يجب على الشاعر أن يتجاهل نفسه فى حضرة الممدوح ولا ينشغل بنفسه فى حضرته وفى أثناء مديحه له ، وإنما يجعل همه محصورا فى تمجيد الممدوح وإعطائه حقه من التكريم والإعظام .

– ومثل ذلك ما رواه صاحب الأغانى من أن جميلا كان مع الوليد ابن عبد الملك فى سفر على نجيب . فزجر به مكين العذرى فقال :

---

١ – الأغانى ٨ / ١٣٣ ، ٢٢ / ١٤٧ مع الاختلاف فى بعض الأبيات وزيادة شاعر بين الروايتين .

يا بكرُ هل تعلمُ مَنْ عَلاكا     خليفـــةَ اللهِ علـــى ذُراكَا

فقال الوليد لجميل : انزل فازجر - وظن الوليد أنه يمدحه - فنزل فقال :

أنا جميـــلٌ فـــى السنامِ من معدّ     فى الذروةِ العلياءِ والركنِ الأشدّ
والبيتُ من سعدِ بن زيدٍ والعُدَد     مـــا يبتغـــى الأعداءُ منى ولَقَدّ
أضرى بالشتمِ لســـــانى ومَرَدْ     أقـــودُ من شئتُ وصعبٍ لم أُقَدْ

فقال له الوليد : اركب لا حملك الله "[١].

وهذا الكلام يضع أيدينا على مبدأ مهم فى نقد الشعر تنبـــــه إليـــه الخليفة وأحس به ، ولفت نظر الشاعر إليه ، وهو ألا يفخر الشاعر بنفسه فى حضرة الممدوح ، وإلا تعرض لغضب الممدوح وعدم رضاه عن شعره؛ لأنه بذلك يعد مسيئا لحضرة الممدوح .

- وفى مجلس لعبد الملك بن مروان أنشده الأخطل قصيدته الرائيـــة فى مديحه ، فلما انتهى من القصيدة إلى قوله :

وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنا     لما آتاك ببطنِ الغوطةِ الخبرُ

قال عبد الملك : بل الله أيدنى [٢] .

وتعليق عبد الملك هذا يعبر عن ضيقه بمن الشاعر بوقوفـــه وقومـــه

١ - الأغانى ٨ / ١٣٤.
٢ - انظر الموشح ٣٠٣ .

بجانب الأمويين فى إحدى حروبهم . وهو بذلك يشير إلى أنه على الشاعر أن ينكر ذاته فى حضرة الممدوح ، ولا يتكلم بما يفهم منه أنه يمن على الممدوح بفضله عليه ، أو تذكيره بوقوفه بجانبه كما حدث من الأخطل هنا فى مديحه لعبد الملك .

– ومن ذلك أيضا ما يروى من أن العجير السلولى وفد على عبد الملك بن مروان فأقام ببابه شهرا لا يصل إليه لشغل عرض لعبد الملك ، ثم وصل إليه ، فلما مثل بين يديه أنشد :

ألا تلك أمُّ الهبرزىِّ تبيَّنتْ ... عظامى ومنها ناحلٌ وكسيرُ
وقالت تضاءلتَ الغداةَ ومن يكن ... له من عمانىِّ النجوم نظيرُ
وقرعِى بكفَّىَّ بابَ مَلْكٍ كأنما ... به القومُ يرجون الأُذَيْنَ نسورُ
ويوم تبارى ألسنُ القوم فيهمُ ... وللموتِ أرحاءٌ بهن تدورُ
لو انَّ الجبالَ الصمَّ يسمَعن وقعَها ... لعُدْنَ وقد بانت بهن فطُورُ
فرحتُ جوادا والجوادُ مثابرٌ ... على جريه ذو علةٍ ويسيرُ [1]

فقال له : يا عجير : ما مدحت إلا نفسك ، ولكنا نعطيك لطول مقامك . وأمر له بمائة من الإبل يعطاها من صدقات بنى عامر"[2] .

---

١ – الهبرزى : الحمى . كسير : مكسور .عام الماء : عام خصيب مشهور بالكلأ . الأذين : الحاجب .

٢ – الأغانى : ١٣ / ٦٥ .

وقد أصاب عبد الملك فى نقده لهذه الأبيات ؛ فلقد نسى العجير أنه ينشد بحضرة الخليفة فتوجه إلى نفسه بالمديح والفخر بدلا من توجهه إلى عبد الملك والتطامن بين يديه ؛ فأخل بذلك بما يستوجبه مقام المدح ، وهو تجاهل الشاعر لذاته ، وانشغاله بمدح الممدوح ، وتعداد فضائله ، وإبراز مناقبه.

- ومن هذا الباب ما يروى من أنه اجتمع الفرزدق ونصيب عند سليمان بن عبد الملك ، فقال سليمان : يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين . قال : لماذا ؟ قال : بقولى :

| | |
|---|---|
| وركبٍ كأن الريحَ تطلب عندهم | لها ترةً من جذبها بالعصائبِ |
| سَرَوْا وسرَتْ نكباءُ وهى تلفُّهم | إلى شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ |
| إذا آنسوا ناراً يقولون ليتَها | وقد خَصِرتْ أيديهمُ نارُ غالبِ |

يريد أباه . وهو غالب بن صعصعة . فأعرض عنه سليمان كالمغضب ؛ لأنه إنما أراد أن ينشد مدحا فيه. ففهم نصيب مراده فقال : يا أمير المؤمنين : قد قلت أبياتا على هذا الروى ليست بدونها . فقال : هاتها . فأنشد نصيب يقول :

| | |
|---|---|
| أقولَ لركبٍ قافلين لقيتُهم | قفاذات أو شالٍ ومولاكَ قاربُ |
| قِفوا خبرونى عن سليمانَ أننى | لمعروفه من آل ودَّانَ طالبُ |
| فعاجُوا فأثنوا بالذى أنتَ أهلُه | ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ |

فقالوا تركنـاهُ وفى كـلِّ ليلـةٍ     يطيفُ به من طالبى العرفِ راكبُ

إلى آخر الأبيات. فقال سليمان : أحسنت . والتفت إلى الفرزدق فقـال كيف تسمع يا أبا فراس ؟ قال : هو أشعر أهل جلدته . قـال : وأهـل جلدتك . فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخيرُ الشعر أكرمُه رجالاً     وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ [1]

ووجه اعتراض سليمان بن عبد الملك علـى شـعر الفـرزدق ، وإعراضه عنه أن الشاعر لم يتنبه إلى مقصد الخليفة ، ولم يحسـن إشـباع غروره ، وأساء حين افتخر بنفسه وبأبيه فى حضرة من كان ينتظر منـه أن يعلى من مكانته ، وأن يخصه بثنائه ومدحه .

فالفرزدق هنا قد بنا به ذوقه الاجتماعى من جهتين : افتخـاره فى حضرة الخليفة ، وأنه لم يدرك قصد الخليفة ، وهو أنه يريد مديحا موجـها إليه هو . وهما جهتان تنبعان من وجوب مراعاة الشاعر لما توجبه الرسـوم السلطانية فى مثل هذه المجالس . وإلا فشعر الفرزدق غير معيب من حيـث الموضوع . وقد لمح نصيب من الخليفة هدفه ، وعرف مقصده فصب عليه من مديحه ما أرضاه وأعلى من شأنه ، وأشبع غروره وكبرياءه .

---

١ - انظر : زهر الآداب ١ / ٣٣٥ . والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٦٠ . والأغـانى ١ / ٣١٦ . وذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى ٤٠ .والكامل للمـبرد تحقيـق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر لعربى ١ / ١٨٣ . والعمدة ١ / ٧٣ ، ٧٤ .

- ومثل هذا ما يروى عن الحجاج أنه عهد إلى يزيد بن أم الحكم الثقفى على فارس وأتاه يودعه ، فقال له : أنشدنى ، وقدر أنه يمدحه ، فأنشده يزيد :

وأبى الذى سلبَ ابنَ كسرى رايةً    بيضاءَ تخفقُ كالعُقابِ الطائرِ

فاسترد الحجاج العهد منه ، وقال لحاجبه : إذا رده عليك فقل له : أورثك أبوك مثل هذا ؟ فقال له الحاجب ذلك . فقال يزيد : قل للحجاج:

وورثتُ جدِّىَ مجدَه وفعالَه    وورثتَ جدَّك أعنزاً بالطائفِ [1]

وهذا يؤكد ما سبق من أن الشاعر فى مديحه ينبغى أن يتجاهل نفسه ويتواضع ما دام فى حضرة الممدوح - وخاصة إذا كان خليفة أو حاكما- ويجعل همه تزكية الممدوح ، والارتفاع بمنزلته ، وإبراز مناقبه .

ز - وقريب مما سبق ما تردد فى النقد الأدبى من وجوب تأدب الشاعر فى خطابه مع ممدوحه ، وعدم التجرؤ عليه ، وأن يظهر الشاعر شدة حاجته للممدوح وعدم استغنائه عن حمايته وكرمه

وقد استمد النقاد هذا المبدأ من سلوك الأمراء والخلفاء - وفى

---

١ - العمدة : ١ / ٧٣ .

مقدمتهم خلفاء وأمراء بنى أميه - تجاه الشعراء الذين لا يحسنون خطابهم معهم ، ولا يراعون مقامهم فى مديحهم فأنزلوا من قدر الممدوح .

- ومن مجالس العصر الأموى الأدبية التى تؤكد هذا المبدأ ما يروى من أنه " لما قتلت بنو تغلب عمير بن الحباب السلمى أنشد الأخطل عبد الملك، والجحاف السلمى عنده :

ألا سائل الجحافَ هل هو ثائر ... بقتلى أصيبتْ من سليمٍ وعامرِ

فخرج الجحاف مغضبا حتى أغار على البشر - وهو ماء لبنى تغلب - فقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلا وقال :

أبا مالكٍ هل لمتَنى قد حضَضّتَنِى ... على القتلِ أو هَلْ لامنى لكَ لائمُ

متى تدعُنى أخرَى أجُبْكَ بمثلها ... وأنـتَ أمرؤٌ بالحق ليس بعالمِ

فخرج الأخطل حتى أتى عبد الملك فقال :

لقد أوقعَ الجحافُ بالبشر وقعةً ... إلـى الله منها المشتكَى والمعوَّلُ

فإلا تغيِّرْهـا قـريشٌ بـمثلها ... يكن عن قريشٍ مستمازٌ ومزَحَلُ[1]

فقال له عبد الملك : إلى أين يا ابن اللخناء ؟ فقال : إلى النار . فقـال : والله لو غيرها قلت لضربت عنقك[2] .

---

١ - مستماز : موضع ينفصل إليه ويتباعد . مزحل : موضع يزحل إليه أى يرحل إليه .

٢ - الصناعتين صـ ٨٧ .

ووجه عيب الخليفة هذا الشعر هو أن الشاعر هدد عبد الملك - وهو الخليفة - بتركه إياه ، والرحيل عنه ، والانصراف إلى غيره إن لم يستجب لمطلبه . وهذا حمق وسوء مخاطبة للخليفة ، وما كان له أن يسكت عنه لولا حسن تصرف الشاعر فى خروجه من هذا المأزق .

— ومن هذا الباب - سوء تعبير الشاعر فى مديحه وخطأه فى مخاطبة الممدوح - ما رواه صاحب الأغانى عن ضوء بن اللجلاج قال : دخلت حماما بالكوفة وفيه الأخطل . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى ذهل . قال : أتروى للفرزدق شيئا ؟ قلت : نعم . قال : ما أشعر خليلى على أنه ما أسرع ما رجع فى هبته . قلت : وما ذاك ؟ قال : قوله :

أبنى غدانةَ إننى حررتُكم ... فوهبتُكم لعطيةَ بن جعالِ
لولا عطيةُ لا جتدعتُ أنوفَكم ... من بين ألأم آنفٍ وسبالِ

وهبهم فى الأول ورجع فى الآخر . فقلت : لو أنكر الناس كلهم هذا ما كان ينبغى أن تنكره أنت . قال الأخطل : كيف ؟ قلت : هجوت زفر بن الحارث ثم خوفت الخليفة منه فقلت :

بنى أميةَ إنى ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتن فيكم آمناً زفرُ
مفترشاً كافتراشِ الليثِ كلكله ... لوقعةٍ كائنٌ فيها له جزرُ

ومدحت عكرمة بن ربعى فقلت :

قد كنت أحسبُه قيناً وأخبرُه ُ    فاليومَ طيّرَ عن أثوابه الشَّرَرُ

قال : لو أردت المبالغة فى هجائه ما زدت على هذا . فقال له الأخطـــل : والله لو لا أنك من قوم سبق لى منهم ما سبق لهجوتك هجاء يدخل معــك قبرك . ثم قال :

ما كنتَ هاجِيَ قوم بعد مدحتهِمْ    ولا تكدِّر نعمى بعدما تجبُ

اخرج عنى" (١) .

وقد عاب الأخطل هنا على الفرزدق فى مديحه بنى غدانة أنه دافـــع عنهم ورفع من منزلتهم فأعلاها . ثم من عليهم وتوعدهم فى البيت الثانى، فأساء التعبير فى خطابه لهم وهو فى مقام مدحهم . وقد بين الذهلـــــى أن الأخطل قد وقع فيما وقع فيه الفرزدق أكثر من مرة ؛ فلقد هجا زفر بـــن الحارث فى مديحه للأمويين ثم رفع من شأن قوته وشجاعته بعـــد ذلـــك . فأساء بذلك الخطاب للخليفة الممدوح ، ولم يأت بما يتناسب مع مقامـــه . كما أراد مدح عكرمة بن ربعى فهجاه حينما ذكَّره بصفة كريهة كـــادت تنسى فجدد ذكرها والحديث فيها . وقد أدرك الأخطل خطأه ، وأحـــس بما وقع فيه من هنات ، فضاق بالرجل الذى كشف له عيوبه .

– ومن ذلك ما ذكره المرزبانى أنه لما أنشد الراعى النميرى عبـــــد

---

١ – الأغانى ٨ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الملك بن مروان قصيدته التى شكا فيها السعاة فبلغ قوله :

وتركتُ قومى يقسِمُون أمورَهم    أإليـــكَ أم يتلبَّثُـــون قليلا

قال له عبد الملك : يتلبثون قليلا رحمك الله ! "[1] .

فلم يرض عبد الملك عن البيت لأنه يوحى بأن قوم الشاعر يتباطئون ، بـل يترددون فى الوفود على الممدوح . وما هكذا يخاطب الخلفـــاء . فكـــان ينبغى أن يبين الشاعر شدة لهفتهم على مقابلة الممدوح ، وحرصهم علـــى سرعة الوصول إليه للظفر بعفوه ورضاه .

- ومما يندرج تحت هذا الباب ما رواه أبو عبيدة قال : أنشـــد ذو الرمة بلال بن أبى بردة :

رأيتُ الناسَ ينتجعُون غيثاً    فقلتُ لصيدحِ انتجعى بلالا

فقال بلال : يا غلام : اعلفها قتا ونوى . أراد بذلك قلة فطنـــة ذى الرمة فى المدح [2] .

فالممدوح يريد من الشاعر أن يبدى رغبته فيـــه هـــو ، وأن يعـــبر بصراحة عن رغبته فى الاغتراف من كرم الممدوح ونداه . فإذا ما توجـــه إلى غيره ، أو عبر تعبيرا يوحى باستغنائه عن ندى الممدوح وقلة حاجته إلى

---

١ - الموشح ٢١٠ ، ٢١١ .

٢ - الموشح ٢٣٤ ، والعقد الفريد ٥ / ٣٢٢ .

كرمه ونواله فإن الممدوح يبدى تبرمه وعدم رضاه على الشاعر وشعره . وقد وقع ذو الرمة هنا فى شئ من هذا فذكر أنه رأى الناس يتوجهون ناحية الجود والكرم والغيث (يقصد الممدوح ) ، فأمر ناقته ( صيدح ) بالتيمم ناحية بلال . وقد فهم الممدوح أن كلام الشاعر يوحى برغبة ناقته – وليس رغبته هو – فى نيل عطاء الممدوح وكرمه . ولذا طلب من غلامه أن يعلفها قتا ونوى .

ولا شك أن الشاعر أراد من انتجاع ناقته ناحية الممدوح انتجاعه هو ورغبته هو فى الاغتراف من نداه وكرمه . ولذلك روى أن ذا الرمة حينما خرج من عند بلال قال له أبو عمرو – وكان حاضرا – : هلا قلت له : إنما عنيت بانتجاع الناقة صاحبها ، كما قال الله – عز وجل –: ﴿ واسأل القريةَ التى كُنَّا فيهَا ﴾ يريد أهلها . وهلا أنشدته قول الحارثى :

وقفتُ على الديارِ فكلَّمتنى فما ملكتْ مدامعَها القلوصُ

يريد صاحبها . فقال له ذو الرمة : يا أبا عمرو : أنت مفرد فى علمك ، وأنا فى علمى وشعرى ذو أشباه [1] " .

ولكن الممدوح يرغب فى أن يسمعها صريحة معلنة .

وقد حكم ابن عبد ربه على تعليق بلال بن أبى بردة على البيت بأنه من

---

١ – الموشح ٢٣٥ .

التعنت الذى لا إنصاف معه ؛ لأن قول ذى الرمة : " انتجعى بلالا " إنما أراد به نفسه . ولم تزل الشعراء تصف النوق فى مدائحها وزيارتها لمن تمدحه . ولكن من طلب تعنتا وجده ، أو تجنيا على الشاعر أدركه عليه[١].

- وفى مجلس آخر أنشد فيه ذو الرمة قصيدته الرائية فى بلال بن أبى بردة ، فلما بلغ قوله يخاطب ناقته :

إذا ابنُ أبى موسى بلالاً بلغتِهِ فقامَ بفأسٍ بين وصلَيْكِ جازرُ

قال له عبد الله بن محمد بن وكيع : هلا قلت كما قال سيدك الفرزدق :

قد استبطأتْ ناجيةٌ ذَمُولاً وإن الهمَّ بى وبها لسامِ

إلامَ تلفّتينَ وأنتِ تحتى وخيرُ الناسِ كلهمُ أمامى

متى تأتى الرصافةَ تستريحى من التصدير والدبرِ الدَّوامى[٢]

وهذا يشير إلى أن الشاعر ينبغى أن يبرز - بأقصى ما يستطيع من جهد - جود الممدوح وكرمه ، وأن يعبر عن ذلك بأسلوب واضح فضفاض بدلا من التعبير المجازى غير المباشر . فلقد أعجب الناقد بأبيات الفرزدق التى شرح فيها شدة احتياجه وناقته إلى كرم الممدوح ونداه ، وتمنيه سرعة الوصول إليه لإزاحة الهم عنها وعنه ، فى الوقت الذى أجمل

---

١ - العقد الفريد ٥ / ٣٢٢ .

٢ - الموشح ٢٢٩ .

فيه ذو الرمة التعبير عن هذا المعنى ، ولجأ إلى استخدام الكناية بدلا من التصريح والتعبير المباشر .

هذا ولم يكن كثير من النقاد يرضون عن مذهب ذى الرمة فى المدح. " فقد كان يسرف فى الوقوف بالديار ووصف الناقة والسفر والمفاوز . حتى إذا فرغ من ذلك كله فترت نفسه فلم تبق فيه بقية صالحة للمديح . ولم تكن تلك الطريقة موفقة لا من الوجهة الاجتماعية ، ولا من الوجهة النفسية فى العصر الإسلامى . فالممدوح متعطش للثناء فإن تأخر عنه مل . والمهجو لابد أن يعالج بالقوارص ، فإن توانت انفل حدها . وذو الرمة كان يتأخر ويتوانى ويطيل فى الوسائل والمواضعات ، ويقل فى الغايات والمقاصد . هذا إلى طابع شعره الوحشى ، وإلى حرصه على الغريب . من أجل ذلك تأخر ذو الرمة عن الذين خاضوا فى الأغراض الاجتماعية فى العصر الإسلامى ، وكان مغلبا فى الهجاء غير محظوظ من المديح "[1] .

– أما عندما يحسن الشاعر خطاب ممدوحه ويراعى مقامه ، ويرضى غروره ، ويشبع كبرياءه فإن الممدوح يقبل عليه ويهش لشعره ويحسن الثناء عليه . ويدلنا على ذلك ما ذكره الأصفهانى عن الشاعر النصيب أنه كان إذا قدم على هشام بن عبد الملك أخلى له مجلسه ، واستنشده مراثى

---

١ – تاريخ النقد الأدبى عند العرب – طه أحمد إبراهيم – ص ٤٣ .

بنى أمية . فإذا أنشده بكى وبكى معه . فأنشده يوما قصيدة له مدحه بها يقول فيها :

إذا استبقَ الناسُ العُلَا سبقتهُمُ　　　يمينُك عفواً ثم صلّت شمالُها

فقال هشام : يا أسود بلغت غاية المدح ، فسلنى . فقال : يدك بالعطية أجود وأبسط من لسانى بمسئلتك . فقال : هذا والله أحسن من الشعر . وحباه وكساه وأحسن جائزته "[1] .

والحوار فى هذا المجلس ينم عن رضا الممدوح واستحسانه لهذا الشعر وإعجابه به . وسر توفيق الشاعر فى البيت المذكور أنه أحسن فى خطابه الممدوح ، وراعى حق وجوده فى رحابه ، بجانب اعتماده على الاستعارة الطريفة فى تصوير علو مكانة الممدوح ، وكرمه وفيض عطائه .

ح — ومما يدل على أصل مبدأ ( أعذب الشعر أكذبه ) والذى قال به عدد من النقاد العرب ما جاء فى المجلس التالى نصه :

" روى عن حمزة بن بيض قال : دخلت يوما على مخلد بن يزيد فقلت :

إن المشارقَ والمغاربَ أصبحَتْ　　　تجبَى وأنتَ أميرُها وإمامُها

فضحك وقال : مه . فقلت :

---

١ - الأغانى ١ / ٣١٨ .

أغفيتُ قبلَ الصبحِ نومَ مسهَّدٍ　　　فى ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها

قال : ثم ماذا يكون ؟ . قلت :

فرأيتُ أنك جُدتَ لى بوصيفةٍ　　　موسومةٍ حَسَنٌ على قيامُها

قال : قد فعلت . فقلت :

وببدرةٍ حُملتْ إلىَّ وبغلةٍ　　　شقراءَ ناجيةٍ يصل لجامُها

قال : قد حقق الله رؤياك . ثم أمر لى بذلك كله . وعلم الله أنى ما رأيت من ذلك شيئا "[١] .

فمثل هذا الموقف من تعبير الشاعر عن أشياء لم تحدث فى الواقع أثار جدلا بين النقاد فى قبول مثل هذا الشعر أو رفضه . فقدامة بن جعفر يقول فى ذلك : " إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا ، بل إنما يراد منه إذا أخذ فى معنى من المعانى كائنا ما كان أن يجيده فى وقته الحاضر لا أن ينسخ ما قاله فى وقت آخر "[٢] .

ويقول أبو هلال العسكرى فى حديثه عن الشعر : " أكثره قد بنى على الكذب ، والاستحالة من الصفات الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان " [٣].

---

١ – الأغانى ١٦ / ١٥٧ .

٢ – نقد الشعر ٦٨ .

٣ – الصناعتين ١٣٦ .

وجعل ابن رشيق من فضائل الشعر أن الكذب الذى أجمع النـــاس على قبحه حسن فيه [١] .

ومع تقدير النقاد للصدق فى الشعر نجد معظمهم لا يجعل الصدق — باعتباره المطابقة للواقع — مقياسا فى تقدير الشعر ، ولا يلزمون الشاعر فى المدح ، والفخر ، والهجاء ، بأن يقف عند الواقع ولا يتعداه ، بل يبيحـون له فيها الكذب ، وأن يأتى من الأحكام بما لا يتفق مع الحقيقة ولا يعنيـهم إلا صواب المعنى . ولا يعتبرون مخالفة الشاعر للحقيقة مقللا مـن قيمـة الشعر، ولا منزلا من درجة جودته . ومثل هذا مـا رأينـاه فى المجلـس السابق؛ فمخلد بن يزيد يعلم تماما أن ما يذكره الشاعر هو ضرب مـن الخيال والكذب ، ومع ذلك فقد أعجب بما أنشده من شعر وحقق له مـا حدثه به وتمناه فى حلمه الموهوم .

على أنه ينبغى أن نعلم أن الكذب الذى أباحه النقاد للشـعراء فى شعرهم ليس معناه قلب الحقائق التاريخية أو الدينية والأخلاقية . فذلـك خطأ معيب باتفاق الجميع . كما أنه لا يعنى قلب حقائق الوجـود ، ولا تصوير العواطف تصويرا غير إنسانى ، فذلك مردود على صاحبه . ولكن الكذب الذى أباحه نقاد العرب للشعراء فى شعرهم نوعـان : أحدهمـا وصف الممدوح أو المهجو — مثلا — بما ليس فيه من صفات . وثانيـهما : ألوان الخيال المختلفة التى يستخدمها الشاعر ليجعل شعره أكثر وضوحـا

١ — العمدة ١ / ٢٢ .

وتأثيرا [١] .

وأما معنى قولهم : خير الشعر أصدقه " فقد يجوز أن يراد به خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبيح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال "[٢].

ط – وإذا كان المدح الجيد هو المدح بالفضائل النفسية ، فإن قدامة بن جعفر ومن وافقه يرون أنه يجب على الشاعر فى مديحه أن يتوجه إلى شخص الممدوح – دون غيره – بمديحه وتعداد صفاته هو ، ولا يتجاوز الممدوح غيره ، أو يقتصر على مدح أباء الممدوح وأجداده وتعداد مآثرهم فحسب . فإذا اقتصر الشاعر فى مديحه على ذكر سؤدد الآباء وارتفاع منزلتهم ، وسمو مكانتهم ، وما إلى ذلك دون أن يتوجه إلى شخص الممدوح كان ذلك معيبا [٣] . فربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقصا للولد إذا تأخر عن منزلة والده ؛ إذ كثيرا ما يكون الأبناء فى منزلة دون منزلة الآباء فى الفضل ، ويكون ذكر الوالد حينئذ تقريعا للولد وازدراء به. وفى ذلك يذكر أبو هلال العسكرى أنه " قيل لبعضهم : لم لا

---

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٤٢٧ ، ٤٢٨ بتصرف .
٢ – المرجع السابق ٤٢٨ .
٣ – انظر : نقد الشعر ١٨٤ .

تكون كأبيك ؟ فقال : ليت أبي لم يكن ذا فضل ، فإن فضله صار نقصـــا لي"(١).

– وفي مجالس العصر الأموى ما يشير إلى هذا المبدأ النقدى ما روى من أن الحجاج بن يوسف أوفد وفدا إلى عبد الملك بن مــ... وفيهم جرير ، فجلس لهم ، ثم أمر بالأخطل فدعى له . فلما دخل عليـ... قال له: يا أخطل : هذا سبك – يعنى جريرا – وجرير جـــالس . فـــأقـ... عليه جرير فقال : أين تركت خنازير أمك ؟ قال : راعية مع أعيار أمـــ... وإن أتيتنا قريناك منها . فأقبل جرير على عبد الملك فقـــال : يـــا أمـــير المؤمنين: إن رائحة الخمر لتفوح منه . قال: صدق يا أمير المؤمنين ، ومـــ... اعتذارى من ذلك :

تعيبُ الخمرَ وهى شرابُ كسرى ... ويشربُ قومُك العجبَ العجيبـ...
منى العبدِ عبدِ أبى ســـــــواجٍ ... أحـــقُّ من الـــمُدامةِ أن تعيـــبا

فقال عبد الملك : دعوا هذا وأنشدني يا جرير . فأنشـــــده ثـــلاث قصائد كلها فى الحجاج يمدحه بها . فأحفظ عبد الملك وقال له : يا جرير: إن الله لم ينصر الحجاج وإنما نصر خليفته ودينه . ثم أقبل على الأخطـــل فقال الأخطل يمدحه :

---

١ – الصناعتين ٩٩ .

شمسُ العداوةِ حتى يُستقاد لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال عبد الملك : هذه المزمرة . والله لو وضعت على زبر الحديد لأذابتها . ثم أمر له بخلع فخلعت عليه حتى غاب فيها . وجعل يقول : إن لكل قوم شاعرا ، وإن الأخطل لشاعر بنى أمية " [١] .

ووجه غضب عبد الملك من جرير وشعره هنا أن الشاعر توجه فى حضرة الخليفة إلى مدح غيره ؛ فمدح واليه الحجاج . وكان الأجدر به أن يوجه مديحه إلى الخليفة ، ويعدد فضائله بدلا من مدح غيره فى مقامه وعلى مسامعه .

- أما إذا تعرض الشاعر فى مديحه لذكر الآباء والأجداد وأعطى الممدوح - فى الوقت نفسه - نصيبا من المديح والتمجيد وتعداد فضائله، فلا بأس وكان فعله حسنا ولا غبار عليه . وهذا واضح من خلال هذا المجلس الذى رواه صاحب الأغانى من أن الوليد بن يزيد جلس يوما فى مجلس عام ، ودخل إليه أهل بيته ومواليه ، والشعراء وأصحاب الحوائج فقضاها . وكان أشرف يوم رئى له . فقام بعض الشعراء فأنشد ، ثم وثب طريح وهو عن يسار الوليد ، وكان أهل بيته عن يمينه ، وأخواله عن شماله وهو فيهم فأنشده :

---

١ - الأغانى ٨ / ٣٠٧ .

أنت ابنُ مسلنطحِ البطاحِ ولم تطرق عليك الحُنَى والوُلُجُ
طوبى لفرعيْك من هنا وهنا طوبى لأعراقك التى تَشِجُ
لو قلتَ للسيل دعْ طريقك والمو جُ عليه كالهضب يعتلجُ
لساخَ وارتدَّ أو لكان له فى سائرِ الأرضِ عنك منعوجُ[1]

فطرب الوليد بن يزيد حتى رئى الارتياح فيه ، وأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وقال : ما أرى أحدا منكم يجيئنى اليوم بمثل ما قال خالى ، فلا ينشدنى أحد بعده شيئا . وأمر لسائر الشعراء بصلات وانصرفوا . واحتبس طريحا عنده وأمر ابن عائشة فغنى فى هذا الشعر " [2] .

ووجه إعجاب الوليد بهذا المدح وطربه له أن الشاعر مدح الخليفة فأعطى آباءه نصيبا من الثناء ، وجعل لفرعيه حظا من الذكر الحسن ؛ فمدحه بكرم الأصل وطيب الفرع . ثم خصه هو بالنصيب الأوفر من المدح والثناء ، وبالغ فى مديحه بالجود ، والكرم ، وسداد الرأى ، ونفاذ الكلمة . وهى صفات متى اجتمعت فى حاكم جعلته عظيم المكانة ، رفيع الشأن .

— ومما يتعلق بهذا المبدأ الفنى ما يروى أن عبد الملك بن مروان قال

---

١ - المسلنطح . من البطاح : ما اتسع واستوى سطحه منها . تطرق عليك : تطبق عليك . تشج : تشتبك وتلتف . يعتلج : يلتطم .
٢ - الأغانى ٤ / ٣١٧ .

لأسيلم بن الأحنف الأسدى : ما أحسن ما مدحت به ؟ فاستعفاه ، فـأبى أن يعفيه ، وهو معه على سريره . فلما أبى إلا أن يخبره قال : قول القائل:

ألا أيها الركبُ المخبُّون هل لكـم    بسيدِ أهلِ الشام تحبـوا وترجعـوا
من النفرِ البيضِ الذين إذا اعـتزُوا    وهابَ الرجالُ حلقةَ الباب قعقعُـوا
إذا النفرُ السودُ اليمـانون نمنمُـوا    له حوكَ برديْـه أرقُّـوا وأوسَـعُوا
جلا المسكَ والحمامَ والبيضَ كـالدُّمَى    وفرق المدارى رأسَـه فـهو أنـزَعُ

فقال له عبد الملك : ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك :

قد حسَّت البيضةُ رأسى فما    أطعَمُ نومًا غيرَ تهجاع [(1)]

ووجه تقليل عبد الملك من شأن المديح فى الأبيات الأولى أن الشـاعر فى مديحه للمدوح جعل النصيب الأكبر منه فى الحديث عن آبـاء الممـدوح وأجداده ، وبيان علو مكانتهم ، ولم يتحدث عن الممدوح ذاته إلا قليـلا . كما جاء حديثه عن الممدوح فى تعداد بعض صفاته الحسية دون الفضـائل النفسية . أما المدح فى البيت الأخير ففى الوصف بالشجاعة مع المبالغة فى وصف الممدوح بها ( وهى فضيلة نفسية ) عن طريق الكناية البديعة .

ي - وذكر النقاد أن من عيوب المديح أن يطيل الشاعر الغزل فى مقدمة قصيدة المديح ويوجز فى مديحه حتى تصير أبيات المدح وكأنهـا

---

١ - الموشح ٣٠٨ ، ٣٠٩ . وحست البيضة رأسى : أذهبت الشعر وأزالته .

ختام لقصيدة فى الغزل .

- وفى مجالس العصر الأموى الأدبية إشارة إلى هذا المبدأ . فيحكى " أن شاعرا أتى نصر بن سيار بأرجوزة فيها مائة بيت نسيبا وعشرة أبيات مديحا . فقال له نصر : والله ما أبقيت كلمة عذبة ، ولا معنى لطيفا إلا وقد شغلته عن مديحى بنسيبك . فإن أردت مديحى فاقتصد فى النسيب . فغدا عليه فأنشده :

هل تعرف الدارَ لأم عمرو ؟ دَعْ ذا وحَبِّرْ مدحةً فى نصرِ

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ، ولكن بين الأمرين "[1] .

ومعنى ذلك أنه لا بأس بالمقدمة الغزلية لقصيدة المديح ، ولكن مع المجئ بها متناسبة مع أبيات المديح ؛ فلا يطيل فيها طولا تطغى به على المديح ، ولا تكون قصيرة قصرا شديدا يحس معه القارئ أنها مبتورة ، أو أن القصيدة خالية من مثل هذه المقدمة .

وإذا جاء الشاعر لقصيدته فى المديح بمقدمة غزلية عليه أن يتجنب التشبيب فيها بامرأة يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح من أم أو أخت أو قريبة أو غيرهن ، وكذلك ما يتصل به سببه أو يتعلق به وهمه .

---

١ - العمدة ٢ / ١٢٣ .

ك - وفى المجالس الأدبية حول شعر المديح فى العصر الأموى ما يتعلق بما يسمى بالنقد العلمى الذى يدور النقد فيه حول المقياس اللغوى أو العروضى . وهو ما عرف أيضا بـ ( نقد العلماء ) ، وهو ذلك النقد الصادر عن اللغويين والنحاة المعنيين بالشعر، والذين كانوا يطيلون النظر فيه بغية التماس شاهد أو استنباط قاعدة لغوية . فقد وجدت فى العصر الأموى وما بعده طائفة من النحاة وعلماء اللغة وقفوا بالمرصاد للشعراء يحصون عليهم ما يقعون فيه من أخطاء يخالفون بها القواعد النحوية أو العروضية . وكان لهؤلاء العلماء من النقد - مع ما لهم من حس لغوى - ما يقوم على الأصول الفنية التى استقرت فى اللغة أو فى النحو أو فى العروض [١] . وكان الخلفاء يشاركون هؤلاء العلماء فى هذا النقد فى بعض الأحيان ، وخاصة إذا وقع الشاعر فى خطأ لغوى أو نحوى ، أو عروضى فى بيت من الأبيات التى تتلى فى مجلس من مجالسهم الأدبية . وقد وجدت بعض هذه النقدات حول بعض أبيات شعر المديح .

- ومن النقد العلمى المتعلق بالمقياس اللغوى فى نقد الشعر ما يروى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعبيد الله بن قيس الرقيات : ويحك يا ابن قيس : أما اتقيت الله حين تقول لابن جعفر :

---

١ - انظر : تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه إبراهيم صـ ٤٩ وما بعدها .

تقدّتْ لى الشهباءَ نحو ابن جعفرٍ ... سواء عليها ليلُها ونهارُها
تزورُ امرءاً قد يعلمُ اللهُ أنه ... تجودُ لـه كفٌّ قليلٌ غرارُها

ألا قلت : قد علم الله ، ولم تقل : قد يعلم الله ؟! فقال ابن قيس : قد والله علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا ، وعلمه الناس " [١] .

فالنقد هنا من باب النقد اللغوى الذى يهدف إلى تقويم لغة الشاعر وتوجيهه إلى استعمال الألفاظ حسب القواعد النحوية والصرفية . واعتراض عبد الملك على الشاعر نشأ من تقييده الفعل المضارع بـ (قد)، وهو قيد يفيد القلة ، وهذا لا يصح لغويا لأنه مسند إلى الله ﷻ. ولم يدرك الشاعر قصد الخليفة وإنما ظن أن الخليفة ينفس على ابن جعفر أن الله يعلم بجوده . ولهذا أجاب الخليفة بقوله : ( قد - والله - علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا ، وعلمه الناس ) . ولو أن ابن قيس قال فى بيته: (يعلم الله ) بدون ( قد ) ، أو لو قال ( قد علم الله ) ما كان للخليفة أن يعترض.

وقد يكون الشاعر قد فهم مقصد الخليفة وأراد برده عليه أنه لم يقصد استعمال ( قد ) هنا على حقيقتها ، وإنما استعملها على سبيل تشبيه المضارع بالماضى . أى جاء به على مثال ما فى قوله - تعالى - :

---

١ - الأغانى ٥ / ٧١ .

﴿قد يعلمُ اللهُ المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البـأسَ إلا قليلاً " [١] .

وروى الأصفهانى أن ابن أبى عتيق قال لابن قيـس الرقيـات : إن قولك : سواء عليها ليلها ونهارها . يوحى بأنها ناقـة عميـاء ، لأنـه لا يستوى الليل والنهار إلا على عمياء . فقال له ابن قيس : إنمـا عنيـت التعب . فقال : فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه [٢] .

– ومن هذا اللون من النقد ما يروى من أن الفرزدق أنشد قوله :

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ مـن المالِ إلا مسحتًا أو مجلَّفُ

فسأله عبد الله بن إسحاق الحضرمى النحوى : على أى شئ ترفـع (مجلف ) ؟ فرد الفرزدق : على ما يسوءك وينوءك . علينـا أن نقـول وعليكم أن تتأولوا [٣] .

فالنقد فى البيت منصب على رفع كلمته ( مجلف ) ، وهى معطوفـة على كلمة ( مسحتا ) بالنصب . فحق ( مجلف ) النصب مثلها .

وقد أغضب ابن أبى اسحاق الفرزدق فهجاه الفرزدق بقوله :

---

١ – الآية رقم ١٨ من سورة الأحزاب .
٢ – الأغانى ٥ / ٧٩ .
٣ – نزهة الألباء فى طبقات الأدباء – ابن الأنبارى – طبع حجر ببولاق – ١٢٩٤هـ – ص ٢٤ ، ٢٥ .والمسحت : الهالك . والمجلف : الذى بقيت منه بقية .

ولو كان عبدُ اللهِ مولىً هجوتُه ولكنَّ عبدَ الله مولى مواليا

ولم يهتم ابن أبي اسحاق إلا باللحن فى هذا البيت فقال للشاعر : لحنت وكان ينبغى أن تقول : مولى موال [١] .

والنقد فى هذا منصب على كلمة ( مواليا ) وصحتها ( موال ) مثل: جوار وغواش ؛ لأن الجمع المتناهى يمنع صرفه ، فإذا كان معتل الآخر أثبتت الياء فى حالَ النصب وحركت بالفتح دون تنوين ، وأجرى فى الرفع والجر مجرى المنقوص ، فتحذف ياؤه ويعوض عنها بالتنوين وتقدر الحركة على آخره .

– ومن المجالس التى كان النقد فيها من باب النقد اللغوى أيضا ما جاء فى الأغانى أن ذا الرمة دخل على بلال بن أبى بردة – وكان بلال راوية فصيحا أديبا – فأنشده بلال أبيات حاتم طيئ قال : –

لحا اللهُ صعلوكاً مناهُ وهمُّه من العيشِ أن يلقى لبوساً ومطعَمًا
يرى الخِمْسَ تعذيباً وإن نال شِبْعَةً يبيتُ قلبُهُ من شدةِ الهمِّ مبهما

هكذا أنشد بلال . فقال ذو الرمة : يرى الخِمْصَ تعذيبا . وإنما الخِمْسُ للإبل وإنما هو خِمْصُ البطن . فمحك بلال [٢] – وكان محكا –

---

١ – انظر : طبقات فحول الشعراء ٣٦ .
٢ – محك : جادل .

وقال : هكذا أنشدنيه رواة طيئ . فرد عليه ذو الرمة ، فمحك بـــلال . ودخل أبو عمرو بن العلاء فقال له بلال : كيف تنشدهما ؟ وعرف أبـــو عمرو الذى به فقال : كلا الوجهين جائز . فقال : أتــأخذون عــن ذى الرمة ؟ فقال : إنه لفصيح وإنا لنأخذ عنه بتمريض ، وخرجا من عنـــده . فقال ذو الرمة لأبى عمرو : والله لولا أنى أعلم أنك حطبـــت فى حبلـــه وملت مع هواه لهجوتك هجاء لا يتعدى إليك اثنان بعده " [1] .

والخبر يدور حول صحة استعمال كلمة ( الخِمْس ) بالسين المهملـــة فى التعبير عن خواء البطن من الطعام . وواضح أن رأى ذى الرمـــة هـــو الصواب وهو أن الصحيح فى ذلك هو ( الخِمْص ) بالصاد وليس بالسين. ولكن أبا عمرو بن العلاء أحب ألا يغضب الأمير فحكم بصحة الوجـــهين أو بصواب التعبير باللفظين .

وفى لسان العرب ما يؤيد قول ذى الرمـــة ؛ ففيـــه " الخِمْس : بالكسر: من أظماء الإبل وهو أن ترد الإبل الماء اليـــوم الخـــامس " [2] . وفيه " الخَمْص والخَمَص والمخمصة : الجوع . وهو خـــلاء البطـــن مـــن الطعام جوعا " [3] .

---

١ – الأغانى ١٧ / ٣٣٢ .
٢ – لسان العرب . مادة ( خمس ) .
٣ – لسان العرب – مادة ( خمص ) .

- ومن هذا اللون النقدى ما يروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال: كنا عند بلال بن أبى بردة فأنشد الفرزدق :

تريكَ نجومَ الليل والشمسُ حَيَّةٌ     زحامُ بناتِ الحارسِ بن عُبَاد

فقال عنبسة بن معدان : الزحام مذكر . فقال الفرزدق : اغرب "[1].

فالنقد الذى تعرض له بيت الفرزدق فى هذا المجلس هو من باب النقد اللغوى المتعلق بصحة استخدام الشاعر للألفاظ اللغوية . فقد أنث الشاعر الفعل " تريك " وفاعله ( زحام ) مذكر ، وكان الأولى أن يقول (يريك ) بتذكير الفعل .

وذكر المرزبانى عن عبد الله بن جعفر راوى الخبر أن " الزحام له وجهان : أن يكون مصدرا مثل : الطعان ، والقتال . من قولهم : زاحمته زحاما . فهذا مذكر كما قال عنبسة . أو يكون جمعا للزحمة يراد بها الجماعة المزدحمة . فهذا مؤنث ؛ لأن الزحام هو المزاحمة ، كما أن الطعان هو المطاعنة . وقول عنبسة أقوى وأعرف فى الكلام " [2] . وعلى هذا يكون النقد الموجه إلى البيت نقدا صائبا وقع فى موقعه .

- ومن المجالس الأدبية التى كان النقد فيها متعلقا بالقافية ومدى

---

١ - الموشح ١٤٥ .
٢ - الموشح ١٤٥ .

ملاءمتها للبيت الذى ختم بها ، ما يروى من أن عبد الله بن قيس الرقيات أنشد عبد الملك بن مروان قصيدته التى يقول فيها :

إن الحوادثَ بالمدينة قد أوجعْننى وقرَعْنَ مروتيه
وَجَبَبْنَنِى جبَّ السنام ولم يتركنَ ريشاً فى مناكبيه

فقال له عبد الملك : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيه . فقال ابن قيس: ما عدوت كتاب الله : ( ما أغنى عنى ماليَه . هَلَكَ عنِّى سلطانِيَهْ)[١].

فعبد الملك بن مروان يرى أن القافية فى هذا الشعر جاءت قلقة نافرة غير متلائمة مع الأبيات التى بها ، وذلك للينها واسترخائها . ومن مثل هذه الملحوظات استنبط النقاد مبدأ نقديا تحدثوا عنه وطالبوا الشاعر بألا تكون القافية رخوة فى موضع الشدة . فإذا كانت كذلك كان بها عيب من عيوب القافية [٢] .

على أن الدكتور أحمد بدوى يرى أن ابن قيس الرقيات فى هذه القصيدة " قد أجاد تقليد المنهج القرآنى ؛ فإذا كان فى الآية تحسر وتوجع ففى شعر ابن قيس مثله " [٣] .

---

١ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الحاقة . وانظر الشعر والشعراء ص ٣٦٢ . والتخنيث : الاسترخاء واللين .
٢ - انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٥٣ .
٣ - المرجع السابق ٣٥٣ .

ومع صحة كلام الدكتور أحمد بدوى فى إجادة الشاعر تقليد المنهج القرآنى من جهة المعنى والصياغة ، إلا أن القارئ لهذا الشعر يحس فعـــلا بنبو وثقل فى نطقه للقافية ، على عكس ما يجده القارئ للآيات الكريمـــة من خفة وتناسب ؛ مما يجعل هناك فرقا واضحا بين الاستعمالين . وعلـــى هذا فلا معنى لما ذكره الدكتور أحمد بدوى بأن نقاد العرب لم يذكروا مـــا يبينون به وجهة نظرهم فى الفرق بين المنهج القرآنى ومنهج ابـــن قيـــس الرقيات الذى قلد فيه القرآن ؛ فإن الإحساس والذوق لهما احترامـــهما ومكانتهما فى النقد الأدبى ، وهما الفيصل فى الحكم بالجودة أو الـرداءة فى كثير من قضايا النقد .

ل – ومن المقاييس النقدية التى وردت الإشارة إليها فى بعـض المجالس الأدبية فى عصر بنى أمية : المقياس الدينى والأخلاقى .

وقد تحدث النقاد عن هذا المقياس ، واختلفوا حوله وحول العمل به فى تقويم الشعر . "" فرأى بعضهم أن يتقيد الشعر بعقائد الدين ، وقواعـد الخلق . وألا يتناول من المعانى ما يبيح للناس الخروج عليهما أو الاستهانة بأمورهما . وأن يجعل الشعراء عواطفهم متفقة مع الديـــن والخلـــق ، وأن يحظر عليهم القول فيما يجافى الدين أو يشجع ميول الهوى . وأن تحظـــر رواية الشعر الذى يتسم بالإباحية أو يحرص عليها .....

بينما يرى البعض الآخر أن هذا المقياس لا دخل له فى تقويم الشعر، وأن ليس على الشاعر من حرج فى أن يعبر عن إحساساته وما يعتلج فى صدره ، أو يجول فى نفسه . سواء أوافق الخلق أم خالفه ، أقره الدين أم لم يقره . فالشاعر حر فيما يقول ، وعلى سامعه أو قارئه أن يحكم عقله فيما يقبل من آرائه أو يرفض ، وليس ثمة قيود يقيد بها الشاعر ، مادام يعبر عما يحس " [1] .

– ومن المجالس الأدبية التى اتخذ المقياس الدينى والأخلاقى فيها أساسا للحكم على الشعر ، ما جاء فى العقد الفريد من أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ، فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول . حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود – وكانت له من عمر مكانة . فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين : إن الشعراء ببابك وأقوالهم باقية ، وسنانهم مسنونة . قال يا عون : مالى وللشعراء . قال يا أمير المؤمنين : إن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد مُدِح وأعطى . وفيه أسوة لكل مسلم ... قال صدقت . فمن بالباب منهم ؟ قلت : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة . قال : لاقرب الله قرابته ، ولا حيا وجهه . أليس هو القائل :

---

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

ألا ليتَ أنى يــومَ حــانَتْ منيــَّتى ... شممتُ الذى ما بين عينيكِ والفــمِ

وليتَ طهورى كان ريقَــك كلَّــه ... وليت حنوطى من مشاشكِ والفــمِ

ويا ليت سَلمى فى القبورِ ضجيعَــتى ... هنــالك أو فى جنــةٍ أو جــهنمِ

فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ويعمل عملا صالحا . والله لا دخــل علىَّ أبدا . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : جميل بن معمر العذرى . قال: هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيَا جميعاً وإن نمُــتْ ... يوافى لدى الموتَى ضريحى ضريحَـها

فما أنا فى طولِ الحياة براغــبٍ ... إذا قيل سوَى عليــها صفيحُــها

أظلُّ نهارى لا أراها ويلتقـــى ... مع الليلِ روحى فى المنام وروحُـها

اعزب به فوالله لا دخل علىَّ أبدا . فمن غير ذكرت ؟ قلت : كثيِّر عزة . قال : هو الذى يقول :

رهبانُ مــدين والذين عهدتُهم ... يبكون من حَذَرِ العذابِ قعودا

لو يسمعُون كما سمعتُ حديثَها ... خــرُّوا لعزةَ ركَّعاً وسجُودا

اعزب به . فمن بالباب غير مــن ذكــرت ؟ قلــت : الأحــوص الأنصارى . قال : أبعده الله ومحقه . أليس هو القائل وقد أفســد علــى رجل من أهل المدينة جارية هرب بها منه :

اللهُ بينى وبين سيِّدها ... يفرُّ عــنِّى بها وأتبعُ

اعزب به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :

همـا دلتـانى مـن ثمـانين قامـةً … كما انقضَّ باز أقتمُ الريش كاسرُه

فلما استوتْ رجلاى فى الأرض قالتـا … أحـىٌّ يرجَّـى أم قتيـلٌ نحـاذرُه

وأصبحت فى القوم الجلوس وأصبحتْ … مغلَّقـةً دونى عليـها دسـاكرُه

فقلت أرفعا الأسبابَ لا يشعروا بنـا … ووليتُ فى أعقـابِ ليـلٍ أبـادرُه

اعزب به فوالله لا دخل علىَّ أبدا . فمن بالباب غير من ذكـرت ؟ قلت : الأخطل التغلبى . قال : أليس هو القائل :

فلستُ بصائم رمضـانَ عمـرى … ولسـتُ بـآكلٍ لحـمَ الأضـاحى

ولسـتُ بزاجـرٍ عنـا بكـورًا … إلى بطحـاءِ مكـةَ للنجـاحِ

ولستُ بنـائم كالعـيرِ يدعـو … قبيلَ الصبح حـىَّ علـى الفـلاحِ

ولكـنى سأشـرَ بُهـا شَمُـولاً … وأسـجُد عنـدَ منبلـجِ الصبـاحِ

اعزب به فوالله لا وطئ لى بساطا أبدا وهو كافر . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : جرير بن الخطفى . قال : أليس هو القائل :

لو لا مراقبـةُ العيـونِ أريتنـا … مقـلَ المهـا وسـوالفَ الآرامِ

هل ينـهينَّكَ أنْ قتلْـنَ مرقَّشـاً … أو ما فعلـن بعـروةَ بـنِ حـزامِ

ذُمَّ المنازلَ بعـد منزلـةِ اللِّـوى … والعيـشُ بعـد أولئـك الأقـوامِ

طرقتك صائدةُ القلوبِ وليـس ذا … وقتَ الزيـارةِ فـارجعى بسـلامِ

فإن كان ولابد فهذا . فأذن له فخرجت إليه فقلت : ادخـــل أبـــا حرزة . فدخل وهو يقول :

إن الذى بعـــثَ النـــبيَّ محمـــدًا    جعـــلَ الخلافـــةَ فى إمـــام عـــادلِ
وسِعَ الخلائـــقَ عدلُـــه ووفـــاؤه    حتى ارعوى وأقـــام ميـــلَ المـــائلِ
والله أنزلَ فى القـــرآن فريضـــةً    لابـــن الســـبيل وللفقـــير العـــائلِ
إنى لأرجو منك خـــيرًا عـــاجلاً    والنفـــسُ مولَعـــةٌ بحـــب العـــاجلِ

فلما مثل بين يديه قال : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا ..."[1].

فعمر بن عبد العزيز يقيس الشعر هنا بالمقياس الدينى ويرفـــض أى شعر يخرج عن حدود ما أباحه الإسلام . ويطلب من الشاعر أن يلتزم بمـا جاء به الدين ويبيحه ، وألا يكون فى شعره ما يغرى بارتكاب المحرمـــات، أو ما يحمل سخرية بتعاليم الدين ، أو يشجع الميل مع الهوى ، أو يتضمـــن ما يتنافى مع الأخلاق المستقيمة . فلم يرض عن شعر عمر بن أبى ربيعـــة لخروجه فى غزله عن العفة المطلوبة فى الإسلام . كما أنه تمنى أن تكـــون سلمى ضجيعته فى قبره ، وأن تكون معه فى الآخرة سواء كان فى الجنـــة أو فى جهنم . كما لم يرض عن شعر جميل بن معمر لأنه قصر أمنيته فى الحياة وفى الممات على كون محبوبته معه ، ولم يتمن أمنية أخرى يعزه الله بها فى الدنيـا والآخرة .

---

١ - العقد الفريد ٢ / ٧٠ ، ٧٣ .

ورفض عمر بن عبد العزيز مبالغة الشاعر فى تعلقه بفتاته ، وإباحة الركوع والسجود إذعانا لها وإيمانا بجمالها . وهذا مخالف لما يبيحه الإسلام ويقبله.كما رفض بيت الأحوص لاعتدائه فيه على حرمة غيره مما لا يبيحه الإسلام . أما الفرزدق فقد افتخر بارتكابه معصية من كبائر المعاصى وأفحشها فى الإسلام فاعتدى بذلك على حدود الله . وأما الأخطل فقد تجرأ على الإسلام وحدوده وعباداته وسخر منها فاستحق عقاب الله وخليفة المسلمين .

أما جرير فكان فى غزله معتدلا إلى حد كبير ، فلم يفحش فيه ولم يعتد على حرمة من حرمات الله وعباده ؛ ولذلك أذن له عمر فى الدخول عليه مع توصيته بألا يقول فى مديحه إلا حقا .

وهكذا نظر عمر بن عبد العزيز إلى أشعار هؤلاء الشعراء من منظور دينى أخلاقى فرضى عما يرضى عنه الإسلام، ورفض ما يخالف أو ينافى شريعة من شرائعه.وهذا مقياس نادى به بعض النقاد ورفضه آخرون كما ذكرت .

ويلاحظ أن الذين جعلوا من الدين والأخلاق مقياسا للشعر وروايته ونقده معظمهم من غير المتخصصين فى نقد الشعر وروايته ، وإنما هم فى الغالب من الحكام ورجال الدين والأخلاق الذين يعنيهم حفظ

كيان الأمة والمحافظة على وحدة المجتمع وبعده عن الانحلال والضعف. [١]
أما غيرهم من النقاد المتخصصين أو الذين كانوا ينظرون إلى الأدب من حيث هو أدب فحسب فلم يدخلوا هذا المقياس فى حسابهم ، ولم يجعلوا لعقيدة الشاعر أو سلوكه وأخلاقه أثرا فى الحكم على شعره [٢] .

ومن هؤلاء قدامة بن جعفر الذى عبر عن رأيه فى هذا المقياس بصراحة فى قوله : " وليس فحاشة المعنى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة التجارة فى الخشب مثلا رداءته فى ذاته " [٣] .

ومن هؤلاء النقاد أبو الحسن الجرجانى الذى يحتج على ما ذهب إليه بأنه " لو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت طبقات الشعراء ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر . ولوجب أن يكون كعب بن زهير ، وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناولوا رسول الله ﷺ وعاب من أصحابه بكما خرسا ، وبكاء مفحمين. ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر "[٤] .

---

١ - انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٩٧ .
٢ - انظر : المرجع السابق ٤٠١ .
٣ - نقد الشعر ٦٦ .
٤ - الوساطة بين المتنبى وخصومه - تحقيق : هاشم الشاذلى - بدون تاريخ مطبعة عيسى البابى الحلبى - صـ ٥٨ .

وأنا أرى رأى هؤلاء النقاد على شرط أن يعطى الشاعر الإســـلام وتعاليمه وقيمه حقها من الإجلال والاحترام . وألا يسئ الشاعر بشـــعره إلى معتقدات الإسلام ومبادئه . وقد استمع رســـول الله ﷺ إلى قصيـــدة كعب بن زهير وهو فى المسجد وفيها من الغزل ما فيها ، ولم ينكر ذلـــك على الشاعر بل أعجب بالقصيدة وأهدى الشاعر بردته تقديـــرا لـــه . فينبغى أن نفصل بين أخلاق الشاعر ، وآثاره الفنية ؛ فقد تكون الآثـــار الفنية التى ينشئها المستهتر بالدين والأخلاق لا اعتراض عليها من الناحيـــة الأخلاقية والدينية ، بل إنها لتكون أحيانا كثيرة متمشية معهما فعلينـــا أن نقوم الشعر من حيث هو شعر وفن ، لا من حيث هو صـــدى لأخـــلاق ناظمه ومعتقده . وقد يكون هناك من يرى خلاف ذلك .

وهكذا ومن خلال هذه الجولة مع المجالس الأدبية فى العصر الأموى حول شعر المديح نرى أن هذه المجالس قد أوقفت النقاد على كثير مـــن الأسس والقواعد النقدية التى بها يقوِّمون شعر المديح ، ويحكمون عليـــه بالجودة أو بالرداءة . وكانت أقوال رواد هذه المجالس مصـــدرا مـــهما يستقى منه النقاد الأحكام والقوانين التى تحدثوا عنها وحكموها فى نظرهم إلى شعر المديح ونقده . كما كانت هذه المجالس عاملا مهما من عوامـــل ارتقاء الثقافة الأدبية والنقدية فى العصر الأموى ؛ لالتقاء الشعراء ووعيهم

لما يقال فيها . ثم لثقافة الخلفاء وأرباب هذه المجالس وما كانوا يشـــاركون به فيها من آراء فنية ناضجة ، وإلماحات نقدية دقيقة كان لهـــا أثرهـــا فى نهضة الفن الشعرى فى العصر الأموى ، وتقـــدم النقـــد الأدبى العـــربى خطوات إلى الأمام .



# الفصل الثاني

## المجالس الأدبية حول شعر الغزل ونقده

الغزل أو التشبيب أو النسيب : هو الفن الذي يتناول عاطفة الحب الإنساني وما يتصل بها . ولفظ ( الغزل ) مصدر من معانيه : الضعف في السعي ، وإلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن من شمائل حلوة وكلام مستغرب ، وهو فن رقيق لين طريف يصور عاطفة اجتماعية طبيعية تربط بين الرجل والمرأة [١].

ويذكر الدكتور بدوي أننا " لا نكاد نجد فرقا في الاستعمال اللغوي بين كلمات الغزل والتشبيب والنسيب . فاللغويون يعرفون إحدى هذه الكلمات بالأخرى "[٢].

وأكد كلامه بما جاء في لسان العرب : " شبب المرأة : قال فيها الغزل والنسيب . وهو يشبب بها : أي ينسب بها "[٣]، و " نسب بالنساء: شبب بهن في الشعر وتغزل "[٤]، " والغزل : حديث الفتيان والفتيات . والتغزل : اللهو بالنساء "[٥].

---

١ – انظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ١٣٤ .

٢ – أسس النقد الأدبي عند العرب ١٣٧ .

٣ – لسان العرب – طبعة دار المعارف – مادة ( شبب ) .

٤ – لسان العرب مادة ( نسب ) .

٥ – لسان العرب – مادة ( غزل ).

وفي القاموس المحيط : " التشبيب : النسيب بالنساء "[١]، و " نسب بالمرأة : شبب بها في الشعر "[٢]. " ومغازلة النساء : محادثتهن ، والاسم الغزل "[٣].

كما ذكر الدكتور أحمد بدوي أن أكثر النقاد لا يفرقون بين هذه الكلمات الثلاث : فبعضهم يسمي هذا اللون من فنون الشعر غزلا ، وبعضهم يسميه نسيبا ، وبعضهم يستعمل التشبيب مكان الغزل [٤]. ومع ذلك يرى الدكتور أحمد بدوي أنه يوجد بين الكلمات الثلاث فرق في أصل المعنى . " فالغزل في أصله حديث إلى النساء ، والنسيب أن ينسب الشاعر إلى نفسه هوى مبرحا ، وحبا عنيفا ، وأن يتحدث عما ينسب إلى المرأة من ديار وآثار . أما اشتقاق التشبيب فيجوز أن يكون من ذكر الشبيبة ، ويجوز أن يكون من الجلاء . يقال : شب الخمار وجه الجارية إذا جلاه ووصف ما تحته من محاسنه . فكأن هذا الشاعر قد أبرز هذه الجارية في صفته إياها وجلاها للعيون "[٥].

وهناك من قدامى النقاد من فرق بين الغزل والنسيب كقدامة بن

---

١ – القاموس المحيط – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٧ م – مادة ( شبب ).
٢ – القاموس المحيط – مادة ( نسب ).
٣ – القاموس المحيط – مادة ( غزل ) .
٤ – أنظر : أسس النقد الأدبي عند العرب ١٣٨ .
٥ – المرجع السابق ١٣٩ .

جعفر الذي ذكر أن النسيب " ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ... والغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله . فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه . والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء . ويقال في الإنسان إنه غزل إذا كان متشكلا بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن "[١].

أما ابن رشيق فقد جعل النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وذكر أن من جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ [٢].

وأنا أرى أنه لا مانع من التسامح في استعمال الكلمات الثلاث بمعنى واحد ، وهو الحديث عن عاطفة الحب الإنساني وما يتصل بها ، والتعبير عن ميل الرجل إلى المرأة ، أو ميل المرأة إلى الرجل .

والشاعر في شعر الغزل " إما أن يصف المرأة وما يتعلق بها معجبا متشببا ، وإما أن يصف نفسه والمرأة معا وما قد يحدث بينهما وكان عف اللسان أو مسفا مرذولا . فالأول وصف ، والثاني شكوى ، والثالث

---

١ - نقد الشعر ١٣٤ .
٢ - العمدة ٢ / ١١٧ .

قصص "[١].

واشترط النقاد في شعر الغزل " أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين " [٢].

كما ذكر النقاد أن التشبيب ينبغي " أن يكون دالا على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد والتهالك في الصبوة ، ويكون بريئا من دلائل الخشونة والجلادة ، وأمارا ت الإباء والعزة ... ويستجاد التشبيب أيضا إذا تضمن ذكر التشوق لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق وما يجري مجراهما من ذكر الديار والآثار " [٣].

كما ينبغي أن يكون التشبيب دالا على الحنين والتحسر ، وشدة الأسف . وأن يكون دالا على التدله والتحير ، وأن يظهر الناسب الرغبة في الحب وعدم التبرم به [٤].

---

١ – الأسلوب – د / أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية – ط ٨ – ١٩٩٠ م – ص ٨٣ .
٢ – العمدة ٢ / ١١٦ .
٣ – الصناعتين ١٢٩ .
٤ – انظر المرجع السابق ١٣٠ ، ١٣١ ، وانظر : نقد الشعر ص ١٣٤ .

ومن الممكن عند قدامة بن جعفر دخول التشوق وتذكر معاهد الأحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة ، والخيالات الطائفة ، وآثار الديار العافية ، والأطلال الداثرة في النسيب [(١)].

ويكره في النسيب ذكر ما لا يليق بالمحبوب، كأن يتمنى الشاعر له ولها الأماني الشقية ، كأمنية كثير عزة التي عبر عنها في قوله : [(٢)]

ودِدتُ وبيتِ الله أنكِ بكرةٌ ... هجانٌ وأني مصعبٌ ثم نهرُبُ
كلانا به عرٌّ فمن يرَنا يقلْ ... على حسنها جرباءُ تعدِي وأجربُ
نكونُ لذي مالٍ كثيرٍ مغفَّلٍ ... فلا هو يرعانا ولا نحنُ نطلَبُ
إذا ما وردْنا منهلاً صاحَ أهلُه ... علينا فما ننفك نُؤذَى ونضْرَبُ

وأقبح من هذه الأمنية ما قاله جنادة بن نجية :

من حبها أتمنَّى أن يلاقيَني ... من نحو بلدتِها ناعٍ فينعاها
لكي أقولَ : فراقٌ لا لقاءَ له ... أو تضمرُ النفسُ يأساً ثمَّ تسلاها [(٣)]

وأسلوب الغزل ينبغي أن يمتاز بالرقة واللين والسهولة بعيدا عن الابتذال والإسفاف ، ولا ينبغي أن تخرجه الشكوى أو الثورة عن رقته

١ - أنظر : نقد الشعر ١٣٤

٢ - ديوان كثير عزة - شرح قدري مايو - دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩٥ م - ص ٥٨ .

٣ - الموشح ٢٠٩ ، ونسب البيتان في زهر الآداب ١ / ٢٥٤ ، وفي الأغاني ١ / ١٧٢، وفي الأمالي ٢ / ٤٨ للفرزدق ، ولم أجدهما في ديوانه .

وعذوبته ؛ لأن مداره الأول هو إلف النساء والحديث عنهن والتعلق بهن. والكلمات العذبة الرقيقة هي أنسب الكلمات للتعبير عن ذلك ، وعن تصوير تلك النوازع النفسية الرقيقة كالشوق والدلال والفتنة والهيام ، أو حتى تلك النوازع الحادة كالسهد والصد والهجر ، وخاصة إذا كان الغزل صادقا صادرا عن قلب العاشق المتيم .

يقول القاضي الجرجاني : " وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها " [١].

ومن سمات أسلوب الغزل أيضا أن يكون المعنى واضحا ، وأن يكون اللفظ سهلا على اللسان ، وأن يكون رشيقا لا غموض فيه ولا التواء . ويرى قدامة بن جعفر أن المذهب في الغزل إنما هو الرقة واللطافة، والشكل والدماثة ، واستعمال الألفاظ اللطيفة المستعذبة المقبولة غير المستكرهة ، فإذا كانت جاسية مستوخمة كان ذلك عيبا [٢].

ولم يهتم النقاد بصدق التجربة وواقعيتها ، أو بعدم صدقها وواقعيتها في شعر الغزل ، وإنما نظروا إلى المعنى من حيث هو ، ومدى

---

١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ١٦ ، وانظر الأسلوب لأحمد الشايب ص ٨٤ .
٢ – انظر : نقد الشعر ١٩١ .

تأثيره في النفس ، ومدى دلالته على قوة العاطفة ، وإن كانوا يسوون أ صدق التعبير عما يحس به الشاعر من حب يجعل الغزل رائعا قويا مؤثرا وهم بذلك لا يحرّمون النسيب على غير من يحس بعاطفة الحب إحساسا صادقا واقعيا ، بل أباحوا هذا الفن لكل شاعر ، وأعجبوا به من المحب وغير المحب إذا كان الشعر الذي صدر عن كل منهما قويا مؤثرا في نفس سامعه . غير أن النسيب الجيد في نظر النقاد هو ما صدر قويا مؤثـــرا في نفس سامعه ، غيرأن النسيب الجيد في نظر النقاد هو مـــا صـــدر عـــن إحساس صادق ، والتاع قلب قائله بنار الحب ولوعاته ، فـــإذا لم يعـــبر الشاعر في غزله عن إحساس صادق واقعي لم يكن شـــعره مـــن الغـــزل الرفيع[1].

أما عن أسماء من يتغزل فيهن الشاعر من النساء فذكر ابن رشيق أن " للشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم ، فهم كثـــيرا مـــا يأتون بها زورا نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ، ودعد ، ولبنى ، وعفـــراء ، وأروى ، وريا ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ، والرباب ، وجمـــل وزينب ، ونعم ، وأشباههن ... وربما أتى الشاعر بالأسمـــاء الكثـــيرة في القصيدة إقامة للوزن ، وتحلية للنسيب ... وكلما كانت اللفظة أحلـــى كان ذكرها في الشعر أشهى ، اللهم إلا أن يكون الشاعر لم يزور الاسم ،

١ – انظر : أسس النقد الأدبي عند العرب ١٤٠ ، ١٤١ .

وإنما قصد الحقيقة لا إقامة الوزن ؛ فحينئذ لا ملامة عليه مـــا لم يجـــد في الكنية مندوحة "[١].

ومعنى ذلك أنه لا بأس بتصريح الشاعر باسم المحبوبة في غزله مـــهما يكن شأنه مقبولا عند سامعه أو غير مقبول إذا كان الغزل حقيقيا ولم يجـــد الشاعر في الكنية عنه مندوحة ؛ لأن الشاعر يعتز بالاسم ويجد في ذكـــره لذة . أما إذا كان الغزل غير حقيقي فيجدر بالشاعر أن يتخير اسما يخـــف على اللسان [٢].

هذا وقد عقدت الكثير من المجالس الأدبية في العصر الأموي حـــول شعر الغزل ، وانتشرت المنتديات والمجالس لهذا الغرض في البيئة الحجازيـــة أكثر من غيرها من بيئات العصر الأموي ، ودار الحوار فيها حول استماع شعر الغزل وتقويمه ، ووضع القواعد لنقده والحكم عليه . وكانت هـــذه المجالس تضم الشعراء والمغنين ومتذوقي الشعر ، واشـــتهر بعقـــد هـــذه المجالس في البيئة الحجازية أناس لهم بصر بالشعر وإحساس مرهف بالمعاني، وقدرة على التمييز بين الجيد والرديء منها ، ومن أبرزهم سكينة بنـــت الحسين ، وابن أبي عتيق ، وعقيلة بنت عقيل بن أبي طـــالب . وبجـــانب مجالس هؤلاء كانت هناك المجالس الكثيرة التي تعقد في قصـــور الخلفـــاء

١ – العمدة ٢ / ١٢١ ، ١٢٢ .
٢ – انظر : أسس النقد الأدبي عند العرب ١٧٦ .

والأمراء الأمويين في البيئة الشامية . وكان كثير من الشعراء يحضرون هذه المجالس ويتبارون في إنشاد الشعر في الغزل والحديث حوله .

ويمكن تقسيم المجالس الأدبية في العصر الأموي حول شعر الغزل إلى الأنواع التالية حتى تسهل دراستها والإحاطة بها .

أولا : مجالس قصور الأثرياء :

وهي المجالس الأدبية التي عقدت في قصور الأدباء والأديبات في المجتمع الأموي ، فقد عرفنا أن كثيرا من الأثرياء وأصحاب البيوتات في المجتمع الأموي وخاصة في البيئة الحجازية قد عقدوا الكثير من المجالس الأدبية في قصورهم ، وحولوا منتدياتهم في هذه القصور إلى حلقات لتداول الشعر والحديث عن الأدب والأدباء . وكان حظ شعر الغزل من هذه المجالس أكثر من غيره . وفيما يلي بعض من هذه المجالس ، وما تشير إليه من مبادئ نقدية :

- كان ابن أبي عتيق — وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — من أدباء العصر الأموي ونقاده ، وقال عنه المبرد : " وكان ابن أبي عتيق من نساك قريش وظرفائهم ، بل كان قد بذهم ظرفا ". [1] وكان معروفا بالدعابة والاشتغال بالأدب

---

١ – الكامل في اللغة والأدب – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر العربي – ٢ / ٢٣٥ .

وروايته ، وكان من الرواة الموثوق بهم في الرواية ، ويدل نقـــده للشـــعر على ذوق رفيع وحس مرهف .

وقد عقد ابن أبي عتيق الكثير من المجالس الأدبية في قصره ، وحظـي شعر الغزل بالنصيب الأكبر من مجالسه الأدبية ، وهذه بعضها :

– ذكر المرزباني أن كثيِّرا أنشد ابن أبي عتيق قوله :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ    قليلٍ ولا أرضى له بقليلِ

فقال له ابن أبي عتيق : هذا كلام مكافئ وليس بعاشق ، القرشـــيان أصدق منك وأقنع ، ابن أبي ربيعة ، وابن قيس الرقيات ، قال عمر :

فعِدي نائلاً وإن لم تُنيلي    إنما ينفعُ المحبَّ الرجاءُ

وقال ابن قيس :

رقِّي بعمركـــــمُ لا تهجرينـــا    ومنينـــا المـــنى ثم امطلينــــا
عِدينا في غدٍ ما شـــئتِ أنـّــا    نحبُّ ولو مطلـــتِ الواعدينـــا
فإما تنجـــزي عـــدتي وإمـّــا    نعيشُ بما نؤمِّل منكِ حينـــا (1)

والخبر يشير إلى أنه ينبغي على الشاعر المحب أن يعبر عن شدة تعلقـه بفتاته ، وأن يوحي كلامه بأنه يقنع منها بالقليل ، حتى ولو لقي في ســـبيله الكثير من العناء والمشقة والتعب ، ولو كان هذا القليل عبارة عن نظـــرة

---

١ – الموشح ٢٠١ ، وانظر الأغاني ٥ / ٨٥ ، ٨٦ .

منها إليه ، أو وعد كاذب باللقاء ، أو موعد تماطل في إنجازه ، فإن الشاعر المحب سيسعد وهو يعيش زمنا يأمل فيه أن تنجز فتاته وعدها معه. وهذا ما عبر عنه عمر بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن قيس الرقيات . وعبر عن هذا المعنى أو قريب منه غيرهما من بعض الشعراء من مثل جميل بن معمر في قوله : (١)

أقلِّبُ طرفي في السماء لعلَّه ... يوافقُ طرفي طرفَكم حين ينظرُ

وفي مثل قوله : (٢)

وإني لأرضى من بثينةَ بالذي ... لو ابصرَهُ الواشي لقرَّتْ بلابلُه
بلا ، وبألاَّ أستطيعَ ، وبالمنى ... وبالوعدِ حتى يسأم الوعدَ آملُه
وبالنظرة العَجْلى،وبالحول تنقضي ... أواخرُه لا نلتقي وأوائلُه

وابن زيدون في مثل قوله : (٣)

إنْ كان قد عزَّ في الدنيا اللقاء بكم ... في موقفِ الحشر نلقاكم ويكفينا

كما يشير ابن أبي عتيق في هذه الملحوظة إلى أن صدق الشاعر في العشق والمودة يجعل شعره في الغزل أجود وأحسن ، فكثيرٌ في رأيه غير

---

١ - ديوان جميل بثينة - تحقيق : فوزي عطوى - دار صعب - بيروت - ط٣ - ١٩٨٠ م ص ٣٤ .

٢ - ديوان جميل بثينة ص ٨٣ .

٣ - ديوان ابن زيدون - شرح د / يوسف فرحات - دار الكتاب العربي - ط ١ - ١٩٩١ م - ص ٣٠٢ .

صادق في حبه لفتاته فجاء تعبيره دالا على عدم خبرته بمشاعر العشاق ، وتوحي ألفاظه بالتصنع وعدم التوفيق في التعبير عن تجربة عاطفية حقيقة ، بينما بيتا عمر وأبيات ابن قيس الرقيات تنم كلها عن إحساس عاشق موله . وقد عرفنا فيما سبق أن النسيب يكون قويا إذا عبر عن إحساس صادق يشعر به من أحس بعاطفة الحب ، فإذا لم يعبر شعر الشاعر عن هذا الإحساس الصادق نقصت قوته ، وضعفت جودته .

- ومن تلك المجالس التي عقدت في قصر ابن أبي عتيق حول شعر الغزل ما يروى عن السائب بن ذكوان - وكان راوية كثيّر - أنه قال : قال لي كثيّر عزة يوما : اذهب بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده ، فذهبنا إليه فاستنشده ابن أبي عتيق ، فأنشده :

أبائنةٌ سُعدى ؟ نعم ستبينُ ... كما انبتَّ من حبل القرين قرينُ
أئن زُمَّ أجمالٌ وفارق جيرةٌ ... وصاح غرابُ البين أنت حزينُ
كأنك لم تسمع ولم ترَ قبلَها ... تفرُّقَ أحبابٍ لهن حنينُ
فأخلفْنَ ميعادي وخنَّ أمانتي ... وليس لمن خانَ الأمانةَ دينُ

فقال ابن أبي عتيق : يا ابن أبي جمعة : أللدين صحبتها ؟ وعلى الأمانة تبعتها ؟ فأنشده :

كذبْنَ صفاءَ الودِّ يومَ محلةٍ ... وأدركني من عهدهن رهونُ

فقال ابن أبي عتيق : يا ابن أبي جمعة : فــذاك والله أصلــح لهــن ، وأدعى للقلوب إليهن . كان عبيد الله بن قيس الرقيات أعلم بهن منــك ، وأوضع للصواب مواضعه فيهن حيث يقول :

حب هـــذا الـــدلِّ والغنــجِ  والــتي في طرفــها دعَــــجُ
والــتي إن حدَّثــتْ كذبــتْ  والتي في وعدهـــا خلــجُ [1]
وتــرى في البيــت صورتهـــا  مثل مــا في البيعــةِ السُّــرُجُ
خبروني هـــل علــى رجــلٍ  عاشــقٍ في قُبلــةٍ حَــــرَجُ

قال : فسكن كثير وقال : لا إن شاء الله تعالى ، قال : فضحك ابن أبي عتيق حتى كاد أن يغشى عليه " [2].

وفي هذا الكلام إشارة نقدية طريفة تتعلق بشعر الغزل ، وهـــي أن الشاعر في شعر الغزل لا ينبغي أن يمس في حديثه عن المحبوبة دينها وذمتها وأمانتها ، وإنما يجب أن يتحدث عن بخلها وامتناعها ودلالهـــا وجمالهـــا ؛ فالمرأة إنما تستملح باخلة متمنعة لا معطاء باذلة ، فذلك أصون لها وأدعـى لتعلق الرجال بها .

ويرى الدكتور أحمد بدوي أن كثيِّرا في هذا البيت غـــير مخطـــئ ،

---

١ - الخلج : الاضطراب .
٢ - الموشح ٢٠٢ ، وانظر الأغاني ٥ / ٨٨ ، والعقد الفريد ٥ / ٣٥٩ ، ٦ / ٢٤ .

وليس لتفضيل قول ابن قيس الرقيات عليه ما يبرره ؛ " فكثيِّر يشكو من إخلاف الوعد وهو شعور يحس به كل محب ، وما الشكوى في الحب والتأوه فيه ناشئة في الأكثر إلا من هذا الإخلاف ، فلا يلام كثيِّر إذا عبر عن هذه الشكوى متضجرا متألما . أما ابن قيس الرقيات فيصف من يحب بكل ما فيها من الصفات ، فكان من بينها إخلاف الوعد ، وليس هو في موقف شكوى من هذا الإخلاف حتى يتألم تألم كثيِّر "[1].

وأرى أن ابن أبي عتيق إنما قلل من بيت كثيِّر ليس لمجرد شكواه من إخلافها لوعدها ، وإنما لضجره من هذا الإخلاف وكأنه يملها واقترب من قطع صلته بها لهذه الصفة . بينما جعل ابن قيس الرقيات هذه الصفة محبوبة فيها ، وداعية إياه إلى شدة التعلق بها ، وهذا هو المحبوب في المرأة كما ذكر ابن أبي عتيق ؛ لأنه يدل على بخلها وتمنعها وعفتها .

- ومثل ذلك ما يروى أن ابن أبي عتيق قال لعمر بن أبي ربيعة حينما سمع قوله :

| | |
|---|---|
| بينما ينعتنَني أبصرنَني | دونَ قيد الميل يعدو بي الأغرّ |
| قالت الكبرى : أتعرِفْنَ الفتى | قالت الوُسْطى : نَعَمْ هذا عمر |
| قالت الصغرى وقد تيمتُها | قد عرفناه ، وهل يخفى القمر |

---

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب ١٦٦ .

أنت لم تنسب بها إنما نسبت بنفسك ، إنما كان ينبغي أن تقـــول :
قلت لها فقالت لي ، فوضعت خدي فوطأت عليه " [١].

فابن أبي عتيق يعيب على الشاعر أن جعل نفسه محـــور التجربـــة ومناط الاهتمام ، على خلاف ما ينبغي أن يكون عليه الغـــزل ، وأنـــزل الشاعر كثيرا من هذه المرأة حينما وصفها بالجرأة في التعرض للرجـــال ، وعبر بذلك عن عكس ما هو متعارف عن اتصاف المرأة الحـــرة بالحيـــاء والإباء والتمنع والبخل .

ومن شعر عمر بن أبي ربيعة الذي يفيد هذا المعنى أيضا قوله :

قالت لهـــا أختُـها تحدثُـها ... لتفسدنَّ الطـــوافَ في عمـــرِ
قومي تصدِّي لـــه لأبصـــرَه ... ثم اغمزيه يا أخـــت في خفـــرِ
قالت لها : قد غمزتُـــه فـــأبى ... ثم اسبطرت تشتد في أثـــري

فهو هنا يصف نفسه مطلوبا متمنعا ، ويصف الحبيبة طالبة متلهفـة ، والصواب في الغزل غير ذلك ، وقد واجهه الشاعر كثيِّر عزة بقوله حـول هذه الأبيات : " أهكذا يقال للمرأة ؟! إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة"[٢].

والملاحظ أن عمر بن أبي ربيعة قد تعود على أن يصـــور نفســـه في

---

١ - الموشح ٢٦٣ ، والأغاني ١ / ١٢٣ .
٢ - العمدة ٢ / ١٢٤ .

شعره الغزلي معشوقا لا عاشقا ، وأن المرأة تبحث عنـــه وتجـــري وراءه وتترضاه ، وهو يتأبى عليها ويتمنع منها ، وكان ذلك منه خروجا صريحـا على المألوف في شعر الغزل العربي . ولهذا وصف الدكتور شوقي ضيـــف أسلوب عمر هذا بأنه يدل على أن به جانبـــا مـــن انعكـــاس العاطفـــة وشذوذها ؛ حيث لم يكن ممثلا للشاعر الغزل المألوف الذي يعني بوصـــف حبه ، وإنما نجد شاعرا يعنى بوصف مشاعر المرأة وأحاسيسها نحو الرجل . فالصورة العامة في غزله توحي بأنه معشوق لا عاشق وهو بهذا يعبر عـــن اتجاه جديد في شعر الغزل في الأدب العربي [١].

– ومن مجالس ابن أبي عتيق حول شعر الغزل مـــا جـــاء في زهـــر الآداب : " وصف ابن أبي عتيق لعمر بن أبي ربيعة امرأة من قومه ، وذكر جمالا رائعا وعقلا فائقا ، فرآها عمر فشبب بها فغضب ابـــن أبي عتيـــق وقال: تشبب بامرأة من قومي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيقُ حسبي الذي بي إن بي يـــا عتيقُ ما قد كفاني

إن بي مضمرًا من الحبِّ قد أبـ ـــلى عظامي مكنونَةً وبراني

لا تلمني وأنت زينتها لي

فقال ابن أبي عتيق :

أنت مثلُ الشيطانِ للإنسانِ

١ – انظر كتاب : التطور والتجديد في الشعر الأمـــوي – دار المعـــارف – ط ٦ – ص ٢٢٩ .

فقال عمر : هكذا ورب الكعبة قلت ، فقال ابــن أبي عتيــق : إن شيطانك ورب القبر وبما ألم بي "[١].

وهذا الكلام يشير إلى استكراه شعر الغزل وقبحه إذا كان كاشــفا للعورات ، فاضحا للمرأة التي يشبب بها الشاعر ، بعيــدا عــن العفــة والنقاء. وهذا أول ما اشترطه النقاد في شعر الغزل حتى يكــون مقبــولا داخلا في باب الفن الرفيع .

- ومن ناقدات العصر الأموي وأديباته سكينة بنت الحسين بن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنهم-. فكانت أديبة ناقدة عفيفــة ، تعقــد الكثير من المجالس الأدبية في قصرها . وكان الرجال يحضرون مجالســـها هذه ويغشاها الشعراء فتستمع إليهم حينا ، وتنشدهم حينا آخر . ويقول عنها زوجها مصعب بن الزبير : " إنها كانت أحسن الناس شعرا ، وكانت تصفف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك ، وكــانت تلــك الجمة تسمى السكينية " [٢].

- ومن مجالسها الأدبية حول شعر الغزل ما رواه المرزباني عن جماعة

---

١ - زهر الآداب ١ / ٢٤٨ ، واقرأ الأغاني ١ / ١٠٤ ، وزاد فيه بعد ( ربمــا ألم بي ) قوله : " فيجد عندي من عصيانه خلاف ما يجد عندك من طاعتــه فيصيــب مــني وأصيب منه " .

٢ - الأغاني ١٦ / ٩٤ .

قالوا : اجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين جرير ، والفرزدق ، وكثير عزة، وجميل ، ونصيب . فمكثوا أياما ثم أذنت لهم ، فدخلوا فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، وأخرجت لهم جارية لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال الفرزق : هاأنذا ، فقالت : أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقضَّ باز أقتمُ الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحيٌّ يرجى أم قتيلٌ نحاذره
فقلت ارفعوا الأسبابَ لايشعروا بنا ... ووليتُ في أعجاز ليل أبادره [1]
أحاذر بوابين قد وكلا بنا ... وأحمرَ من ساجٍ تئط مسامره
فأصبحتُ في القوم القعودِ وأصبحت ... مغلقةً دوني عليها دساكره
ويحسبها باتت حصاناً وقد جرى ... لنا برقاها ما الذي أنا شاكره

قال : نعم أنا قلته . قالت : ما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها ؟ أفلا سترت على نفسك وعليها ؟ .

ثم دخلت وخرجت فقالت : أيكم جرير : قال هاأنذا ، قالت : أأنت القائل :

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا ... وقتَ الزيارة فارجعي بسلام

---

١ - الأسباب : الحبال ، أعجاز الليل : أواخره ، أبادره : أسرع قبل أن ينشق الفجر ويطلع النهار .

قال جرير : نعم أنا قلته ، قالت : أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت : فادخلي بسلام ؟! أنت رجل عفيف . وفي رواية أخرى أنها قالت له : كيف جعلتها صائدة لقلبك حتى إذا أناخت بك جعلت دونها سترك؟.

ثم دخلت وخرجت فقالت : أيكم كثيِّر ؟ أ أنت القائل ؟ .

وأعجبني يا عزَّ منك مع الصبا ... خلائقُ صدقٍ فيك يا عزُّ أربعُ
دنوكِ حتى يذكر الذاهلَ الصبا ... ودفعك أسبابَ الهوى حين يطمعُ
وأنك لا تدرين دَيْنًا مطلتِه ... أيشتد من جراك أو يتصدَّعُ
ومنهن إكرامُ الكريم وهفواتُ الـ ... ـلئيم وخلاتُ المكارم تنفعُ
أمتِّ لنا بالبخلِ منك ضريبةً ... فليتك ذو لونينْ يُعطَى ويُمنَعُ

قال : نعم ، قالت : ما جعلتها بخيلة تعرف بالبخل ، ولا سخية تعرف بالسخاء . ثم قالت : أيكم جميل ؟ أ أنت القائل :

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني ... بثينةُ لا يخفى عليَّ كلامُها

قال : نعم ، قالت : أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصم إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة ؟ قال : نعم ، فوصلتهم جميعا وانصرفوا "[1].

---

١ – انظر الموشح ٢٢٠، ٢٢٣ . واقرأ الأغاني ١٦ / ١٠٨.

والمجلس يتعلق بجانب من الجوانب التي ينبغي مراعاتها في شعر الغزل، ويتحدث عن معنى خاص ، وهو كيفية معاملة العاشق للمرأة ، والطريقة المثلى في الحديث عن المحبوبة وعلاقة الشاعر بها .

فالفرزدق جانبه التوفيق حين كشف الستر وأفشى السر في رأي سكينة ، وإن كان إعلانه هذا يفسر على أنه حدث من الشاعر إرضاء لغروره ، ومحاولة منه لإثبات شبابه وفتوته تجاه فتاته ، إلا أن الناقدة أبانت له أنه لا يليق لعاشق أن يذيع ما يدور بينه وبين معشوقته مهما كان غرضه .

وجرير جانبه التوفيق حين صد صاحبته وأغلق الباب في وجهها ولم يرحب بها ، وطلب إليها أن تعود من حيث أتت ، فليس هذا شأن المحبين الذين يجدر بهم أن يهشوا لمثل هذا اللقاء . فكان عليه أن يرحب بها ويهش لزيارتها ويتلطف في استقبالها ، ولذا وجهته إلى ما ينبغي عليه وعلى أمثاله في مثل هذه الزيارة نحو بنات جنسها .كما أن قولها : ( أنت عفيف ) يفسر لنا ما عرف عن جرير من عفة وعدم ممارسته للحب . ومعروف أن جريرا كان من أرق الشعراء غزلا وأقدرهم على النسيب ، وكان نسيبه يمتاز بالرقة وحسن الألفاظ ، وقوة أسرها للنفس ، مع أنه لم يكن عاشقا . ولم يصدر في غزله عن وجد وهيام . ومن المؤكد أن السيدة سكينة بنت الحسين كانت تعرف عنه ذلك .

أما كثيّر فترى سكينة أنه ملح وشكل ، وجاء شعره رقيقا مليحا ؛ حيث وصف صاحبته بما توصف به المرأة التي تستديم الحب وتحرص على الود ؛ فهي تدنو منه وتريه من نفسها دلالا ومودة ، حتى يخيل إليه أنها استسلمت له ، فتدفع عنه أسباب المنى فلا يقدر عليها ، ولا ينال منها .

أما جميل فقد أساء فيما تمناه لنفسه ولمحبوبته حيث رضي من الدنيا ونعيمها بألا يرى شيئا منها ولا يسمع غير كلام بثينة ، فيكون أعمى أصم إلا عن كلام فتاته ، وهذا لا يرضى به الإنسان السوي، ولا يتمناه عاقل ، ولا ترضى به الفتاة لفتاها حتى ولو كان في ذلك ما يدل على شدة حبه لها وقوة تعلق منه بها .

وجاء في الأغاني تكملة" لكلام سكينة مع الشعراء في هذا المجلس ، فذكر الأصفهاني أنها قالت لنصيب : أنت القائل :

ولولا أن يقالَ صبا نصيبٌ  لقلتُ بنفسي النشأُ الصغارُ
بنفسي كلُّ مهضومٍ حشاها  إذا ظُلِمتْ فليس لها انتصارُ

فقال : نعم ، قالت : ربيتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا . ثم قالت لجميل : والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً  بوادي القُرى إني إذاً لسعيدُ
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغزوةٍ  وأيَّ جهادٍ بعدهُنَّ أريدُ
لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ"  وكلُّ قتيلٍ عندهن شهيدُ

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء [١].

وهنا تحكم على نصيب بالإجادة لأنه وقف في صف المرأة وانتصـــر لها كبيرة وصغيرة ، ويراها في الحالتين مظلومة تحتاج إلى من ينتصر لهـــا . وأجاد أيضا جميل في أبياته الأخيرة في رأي سكينة ؛ لأنه جعل الحب جهاداً يرجع منه المحب بالغنيمة أو الشهادة . فالغنيمة تتمثل في حديث البشاشـة وحلاوة المقال.أما الشهادة فهي النهاية الحتمية للضنى والسهد والعـذاب، والمحب قد يذوق هذا كله ويتلذذ به ولا يحاول الانصراف عنه.

– ومن المجالس الأدبية التي عقدتها سكينة بنت الحسين حول شـــعر الغزل وأدلت برأيها في بعض ما استمعت إليه من شعر، ما رواه المرزبـــاني أن سكينة بنت الحسين قالت لكثيِّر حين أنشدها قصيدته التي أولها :

| | |
|---|---|
| أشاقكَ برقٌ آخرَ الليل واصـــبٌ | تضمنه فرش الجبَـــا فالمســـاربُ |
| تألقَ واحمَوْمَي وخيـــَّـم بـــالرُّبَى | أحمُّ الذُّرى ذو هيدبٍ مـتراكبُ |
| إذا زعزعته الريحُ أرزمَ جـــانبٌ | بلا خَلَفٍ منه وأومضَ جـــانبُ |
| وهبتُ لسُعدَى مـــاءه ونباتَــه | كما كلِّ ذي ودٍ لمن وَدَّ واهـــبُ |
| لتروى به سُعْدَى ويروىصديقُها | ويغدق أعداد لها ومشـــاربُ [٢] |

أهب لها غيثا عاما جعلك الله والناس فيه أسوة ؟ فقال : يا بنـــت

---

١ – اقرأ المجلس كاملا في الأغاني ١٦ / ١٠٨ .

٢ – فرش الجبا والمسارب : موضعان ، احمومي : صار أسود ، أرزم : رعد رعدا شديدا.

رسول الله ﷺ وصفت غيثا فأحسنته وأمطرته وأنبته وأكملته ثم وهبته لها فقالت : فهلا وهبت لها دنانير ودراهم ! " [١].

والناقدة هنا تعبر عن شيء مهم في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ، وهو أن المرأة تريد ممن يهواها أن يكون سخيا كريما معها ، يلبي حاجاتها وينفق عليها من خالص ماله الذي حصل عليه بجده وتعبه ونشاطه ، أما أن يمن عليها بشيء لا يملكه ولم يتعب في تحصيله فهذا ما لا ترضى به المرأة من الرجل الذي يتمنى أن يظفر بها .

– ومن مجالسها الأدبية حول شعر الغزل أيضا ما يروى أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية كثيِّر ، وراوية جميل ، وراوية الأحوص . فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر ، ثم تراضوا بسكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدةُ القلوبِ وليس ذا وقتَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

وأي ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟ [٢] ، قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لصاحب كثيِّر : أليس صاحبك الذي يقول :

يقرُّ بعيني ما يقرُّ بعينها وأحسنُ شيءٍ ما به العينُ قرَّتِ
كأني أنادي صخرةً حين أعرضتْ من الصمِّ لو تمشي بها العصمُ زلَّتِ

---

١ – الموشح ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
٢ – الطروق : الإتيان ليلا .

صَفُوحًا فما تلقــاك إلا بخيلــةً    فمن ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّــتِ

فليس شيء أحب إليهن ولا أقر لأعينهن من النكــاح ، أفيحــب صاحبك أن يُنكَح ؟ قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتُــها    ولكن طلابيها لما فاتَ مــن عقلــي
فإن وُجدَتْ نعلٌ بــأرضٍ مضلــةً    من الأرض يوما فاعلمي أنها نعلــي
خليليَّ فيما عشتُما هــل رأيتُمــا    قتيلاً بكى من حــبِّ قاتلــه قبلــي

ما أرى لصاحبك هوى ، إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمت    فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمت    فلا صلحتْ دعدٌ لذي خُلَّةٍ بعدي

ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذي يقول :

من عاشقيْن تواصَلَا وتواعَدَا    ليــلا إذا نــجمُ الثريا حلَّقا
باتــا بأنعمِ عيشةٍ وألذِّها    حتى إذا وضــحَ النهارُ تفرقا

قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال : تعانقا "[1].

---

١ - الموشح ٢١٣ ، وانظر الأغاني ١٦ / ١١٠ .

ونلحظ أن سكينة بنت الحسين قد أخذت على هؤلاء الشعراء سوء تعبيرهم عن عاطفة الحب التي تربط كلا منهم بالفتاة التي يدعى أنه يهواها ويتعلق قلبه بها ، وعدم اختيار كل منهم للألفاظ التي تدل على شدة مـــا يحمله كل منهم من حب وعشق ، كما يقول بذلك علماء النقـــد الأدبي ويشترطونه في الغزل الجيد .

فجرير صد فتاته حينما طرقته ليلا ، وقال لها ليـــس هـــذا وقـــت الزيارة. ولم تقبل منه الناقدة هذا التصرف ؛ لأنه يدل على غلظته وعـــدم تلطفه مع فتاته ، مع أن ساعة الليل هي أصلح ساعات اللقاء بين المحبـين ؛ لأنه يسترهم عن أعين الواشين والرقباء . أما كثير فقد ربط ما تقر به عينه بما تقر به عين فتاته دون مراعاة للفرق بين ما تقر به أعين الرجال عما تقر به أعين النساء فأساء التعبير .

وأما جميل فقد تحدث عن عقله الذي استولت عليه فتاته ، وذكـــر أنها لو تركت له عقله لما طلبها ، وليس هكذا يكون التعبير عن الحـــب ، فليس جميل في هذا بصاحب هوى ، وإنما هو — فقط — يطلب اســـترداد عقله منها ، وكان الأولى به أن يطلب منها أن تستولي على المزيد منه حتى تكون حياته كلها بيدها هي .

وأما جميل فيوحي تعبيره بأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده ، مـــع أن الحب مبني على الأنانية والأثرة ، وكان الأولى بـــه أن يذكـــر أن فتاتـــه

موقوفة عليه وحده ، ويتمنى ألا تكون لأحد بعده .

وأما الأحوص فتعبيره يوحي – في رأي سكينة – بأنه قد ضاق بوجودها معه طوال الليل ، حتى إنه بمجرد أن وضح النهار تفرقا دون وداع ، ورأت أنه من غير اللائق أن يفترق الحبيبان دون تعانق ؛ فكان من الأجدر بالشاعر أن يبين أنه رغم ما عاشا فيه من لذة ونعيم طوال الليل لم يمل من لقائها ، ولم يشبع من وصالها ، وحينما يضطرهما النهار للافتراق يتعانقان عناق المشتاقين المحبين .

ويرى الدكتور محمد زغلول سلام أن نقد سكينة هذا للأحوص " لون من النقد الشخصي لا الموضوعي ؛ فالشاعر يرى في الاجتماع ثم الفراق تجربة من الحب، وسكينة ترى التعانق لا الفراق نهاية كل حب ، فذاك عاشق متشائم ، وتلك متفائلة تريد للمحبين التواصل وجني ثمار الحب "[١].

وهذا النقد وإن كان من النقد الشخصي المعبر عن ذوق سكينة ونظرها إلى العلاقة بين الرجل والمرأة كما يقول الدكتور سلام إلا أنه نقد يعبر – في الوقت ذاته – عن حقيقة العلاقة القوية ، والهوى الصادق بين المحب ومحبوبته ، والذي لا يشبع معه الحبيبان من لذة الوصال ودوام

---

١ – تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ص ٩٣ .

اللقاء ، فهي ترى أن الشاعر ومحبوبته – رغم الليلة التي عاشاها – في حاجة إلى زاد نفسي يتحملان به ألم فراق ساعات النهار حتى يلتقيان مرة أخرى ، ولن يكون هذا الزاد إلا في عناق طويل ، وهذا يعبر عن صدق العلاقة وقوة المودة بينهما .

وما رأيناه من نقد سكينة بنت الحسين في هذا المجلس يتفق مع ما اشترطه النقاد من ذلك في شعر النسيب الجيد ؛ فلقد عرفنا أن النقاد اشترطوا في النسيب المصيب أن تكثر فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وإفراط الوجد . وعبر عن ذلك قدامة بن جعفر في قوله : " يجب أن يكون النسيب الذي به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون من الخشونة والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحفظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض "[1].

وعبر عن شيء من ذلك أبو هلال العسكري فقال : " وينبغي أن يكون النسيب دالا على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد ، والتهالك في

---

١ – نقد الشعر ١٣٤ .

الصبوة ، ويكون بريئا من دلائل الخشونة والجلادة ، وأمـــارات الإبـــاء والعزة "[١].

وهذا هو ما أرادته سكينة من وراء نقدها لهؤلاء الشعراء في هــــذا المجلس .

– ومن مجالس سكينة بنت الحسين الأدبية ما يروى من أن كثـــيّر عزة دخل على سكينة بنت الحسين – وقيل غيرها – فقالت له : أنـــت القائل :

فما روضةٌ بالحزن طيبةُ الثّرى يمـــجُّ الندى جثجاثُها وعرارُها
بأطيبَ من أردانِ عـــزةَ موهنا إذا أوقدتْ بالمندلِ الرطبِ نارُها

قال : نعم ، قالت : فض الله فاك ، أرأيت لو أن ميمونـــة الزنجيـــة بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

ألم ترَ أنيِّ كلما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ [٢]

ونقد سكينة هذا يعتمد على ذوقها المرهف ، وعلى خبرتها الأنثوية، وهي تشير به إلى مبدأ نقدي مهم وهو أن وصف الشاعر محبوبته بالجمـــال الطبيعي أفضل من وصفها بالجمال المصنوع المتكلف ، ولذلك عابت على

---

١ – الصناعتين ١٢٩ .

٢ – انظر الموشح ٢٠٣ ، وروى الخبر بروايات أخرى ذكرت في الموشح ، وفي العقـــد الفريد ٥ / ٣٦٤ ، وفي الكامل للمبرد ٣ / ١١٥ .

كثير أنه لم يجعل صاحبته طيبة الريح بل احتاجت إلى المندل الرطب لتزيل ما طرأ عليها من الروائح غير المقبولة ، وتفضل عليه امرأ القيس الذي ذكر أنه يجد الطيب طبيعة في صاحبته ؛ فلا تحتاج إلى التطيب ، فهو يشم رائحتها الطيبة كلما فاجأها بالذهاب إليها وإن لم تتطيب . وفرق كبير بين أن تكون المرأة طيبة الريح وإن لم تتطيب ، وأن يكون طيبها مكتسبا من المندل . كما أجاد امرؤ القيس في التعبير حينما ذكر أن زيارته هذه المحبوبة غير موقوتة ؛ فهو يزورها في أي وقت يشاء فلا يجد منها إلا الريح الطيب يفوح منها. وهذا يدل على الجمال البارع للمرأة ، ويدل على البراعة في التعبير عن هذا الجمال .

وهناك من يرى أن قول كثيِّر هذا ليس به ما يعيبه ؛ لأن قوله : " إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها " نعت للروضة المذكورة وليس نعتا لعزة، ولكن هذا التخريج يكون جيدا ومعقولا لو لم يطلب كثير من المرأة الناقدة أن تستر عليه ، ولكن طلبه منها ذلك دل على أنه ما أراد إلا المعنى المعترض عليه ، فيكون هذا تصحيحا لإثبات قصده [1].

وذكر أبو هلال العسكري مأخذا آخر يعاب به كثيِّر في بيته هذا ،

---

١ - انظر : تزيين الأسواق في أخبار العشاق - داوود الأنطاكي - دار ومكتبة الهلال - بيروت - طبعة عام ١٩٨٤ م - ١ / ٧٩ ، ٨٠ ، وقد زاد في الرواية أن كثيِّرًا طالب من الناقدة أن تستر عليه .

فقد ذكر أنها تجمرت بالعود الرطب ، " والعود الرطب ليس بمختار للبخور ، وإنما يصلح للمضغ والسواك ، والعود اليابس أبلغ في معناه"[١].

– وهذا مجلس آخر من المجالس الأدبية حول شعر الغزل التي عقدتها سكينة بنت الحسين . فقد روى صاحب الأغاني أن الفرزدق خرج حاجا، فلما قضى حجه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين — عليهما السلام — فسلم ، فقالت له : يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ قال: أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذي يقول :

بنفسي مَنْ تجنبه عزيزٌ علَيَّ ومَنْ زيارته لِمامُ
ومَنْ أمسِى وأصبحُ لا أراه ويطرقني إذا هجعَ النيامُ

فقال : والله لو أذنت لي لأسمعنك أحسن منه ، قالت : أقيموه ، فأخرج . ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها ، فقالت : يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت: كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لها جَنِي استعبارُ ولزرتُ قبرَك والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هجرَ الضجيعُ فراشَها كتِمَ الحديثُ وعفت الأسرَارُ
لا يلبث القرناءُ أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونهَارُ

فقال : والله لو أذنت لي لأسمعنك أحسن منه ، فأمرت به فأخرج .

---

١-الصناعتين ٩٧ .

ثم عاد إليها في اليوم الثالث وحولها مولدات لها كأنهن تماثيل ، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها وبهت ينظر إليها ، فقالت سكينة : يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إن العيونَ التي في طرفها حَوَرٌ قتلنَنَا ثم لم يحيينَ قتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حِراك به وهن أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلةً إنسانُها غرقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا

فقال : والله لئن تركتني لأسمعنك أحسن منه ، فأمرت بإخراجه وأمرت له بالجارية "[1].

وسكينة بنت الحسين الناقدة الأديبة تضع هنا جريرا في مواجهة الفرزدق وتفضل جريرا على الفرزدق ، وترى تفوق جرير على الفرزدق، ولا تعطي هذا الفرصة ليثبت من خلالها أنه أشعر الناس ، ويبدو أنها كانت ممن يتعصبون لجرير ويفضلونه على الفرزدق .وإن كانت لم تفصح عن سر تفضيلها إياه.ويظهر أن ذلك كان منها لأنها ترى أن جريرا تميز عن شعراء الغزل في عصره بالقدرة على التعبير عن خوالج النفس بعبارات عذبة تتسم باللفظ الجزل والمعنى الشريف ، وأنه كان

١ - الأغاني ٨ / ٣٧ ، ١٦ / ١١٥ ، ٢١ / ٣٩١ .

يبعد في غزله عن الفحش في القول ، ويتجنب العبارات التي تخدش الحياء أو تعتدي على التصون والعفاف ، مع أنه لم يكن يصدر في غزله عن وجد وهيام حقيقي . ومن المرجح أيضا أنها مالت إليه " لأنها وجدت في معانيه التي انتخبتها ما يدغدغ وجدان المرأة ويصور المحبة العفة المهذبة بينها وبين الرجل ، فوق ما في شعره كله من مظاهر اللين والرقة والسهولة وطول النفس. وهي صفات تطمئن إليها المرأة الأديبة بطبيعتها " [1]، وهي أيضا الصفات التي أحبها النقاد بعد ذلك، وأحبوا وجودها في شعر الغزل ، وحبذوا توافرها فيه .

– ومن أديبات العصر الأموي اللاتي عقدن العديد من المجالس الأدبية عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب – وكانت ناقدة ظريفة تعقد المجالس النسائية في قصرها ، وكان الشعراء يزورونها فتعرض لأشعارهم وتنتقدها وتختار منها ، وتوازن بينها وتفضل شعرا على آخر ، معتمدة في ذلك على رهافة حسها وذوقها الفطري السليم .

– ومن مجالسها الأدبية حول شعر الغزل ما روي من أنها كانت جالسة يوما إذ قيل لها : العذري – جميل بن معمر – بالباب ، فقالت : ائذنوا له ، فدخل فقالت له :أ أنت القائل :

---

١ – اتجاهات النقد الأدبي العربي – د/ محمد السعدي فرهود – دار الطباعة المحمدية – ط ٢ – ١٩٨٠ م – ص ٥٣ .

فلو تركتُ عقلي معي ما بكيتُها ولكن طلابيها لما فاتَ من عقلي

إنما تطلبها عند ذهاب عقلك ، لولا أبيات بلغتني عنك ما أذنت لك وهي:

علقتُ الهوَى منها وليدًا فلم يَزَلْ إلى اليوم ينمي حبها ويزيدُ
فلا أنا مرجوعٌ بما جئتُ طالبا ولا حبُّها فيما يبيدُ يبيدُ
يموتُ الهوى منِّيَ إذا ما لقيتُها ويحيا إذا فارقتُها فيعودُ

ثم قيل : هذا كثيِّر عزة ، والأحوص بالباب ، فقالت : ائذنوا لهما ، ثم أقبلت على كثير فقالت : أما أنت يا كثيِّر فألأم العرب عهدا في قولك:

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنما تمثلُ لي ليلى بكل سبيلِ

ولِمَ تريد أن تنسى ذكرها ؟ ما تطلبها إلا إذا مثلت لك ! أما والله لولا بيتان قلتهما ما التفت إليك وهما قولك :

فيا حبَّها زدني جوًى كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيامِ موعدُكِ الحشرُ
عجبتُ لسعيِ الدهرِ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ

ثم أقبلت على الأحوص فقالت : وأما أنت يا أحوص فأقل العرب وفاء في قولك :

من عاشقينِ تراسلا وتواصَلا ليلاً إذا نجمُ الثريا حلَّقا
بعثا أمامَها مخافةَ رقبةٍ عبداً ففرقَ عنهما ما أشفقا

باتا بأنعم عيشةٍ وألذّها    حتى إذا وضحَ النهارُ تفرّقا

ألا قلت : تعانقا ، أما والله لولا بيت قلته ما أذنت لك ، وهو :

كم من دنيٍّ لها قد صرتُ أتبعه    ولو صحا القلبُ عنها صارَ لي تبعا

ثم أمرت بهم فأخرجوا إلا كثيّراً ، وأمرت جواريها أن يكتنفنه ،
وقالت له : يا فاسق أنت القائل :

أ إن زُمَّ أجمالٌ وفارقَ جيرةٌ    وصاح غرابُ البين أنت حزينُ

أين الحزن إلا عند هذا ، خرقن ثوبه يا جواري ، فقال : جعلني الله فداءك ، إني قد أعقبت بما هو أحسن من هذا ثم أنشدها :

أ أزمعتِ بيناً عاجلاً وتركتِني    كئيباً سقيماً جالساً أتلدَّدُ

وبين التراقي واللهاةِ حرارةٌ    مكانَ الشجا ما تطمئن فتبرَدُ

فقالت : خلين عنه يا جواري ، وأمرت له بمائة دينار وحلة يمانية ، فقبضها وانصرف " (١).

والحوار في هذا المجلس يتعلق أيضا بتقويم الأسلوب الشعري في التعبير عن العلاقة بين الرجل والمرأة ، واختيار أفضل الكلمات المعبرة عن شدة حب الشاعر لفتاته وتعلقه بها . ونرى أن رأي عقيلة في هذا المجلس يتفق مع رأي سكينة بنت الحسين حول الأبيات التي اشتركا في النظر

---

١ - الموشح ٢١٤ ، ٢١٥ .

إليها ، وهذا طبيعي ؛ لأن نقد كل منهما يعبر عن نظرة المرأة إلى العلاقة الحميمة التي تربط بين الرجل والمرأة ، وإحساس كل منهما بعاطفة الحب النبيلة التي تربط بين الجنسين . ولذلك نرى أن كلا منهما قد أعجبت بالأبيات التي تعبر عن قوة هذه العلاقة ، وزيادة الحب والمودة بين المحب ومحبوبته ، في الوقت الذي قللت فيه من شأن الأبيات التي توحي بفتور هذه العاطفة وتبرم الشاعر بها وملله منها .

– كما اشتهرت الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية بأدبها، وبعقد الكثير من المجالس والندوات التي كان يؤمها المغنون والشعراء . وكان لها قصر عظيم تلتقي فيه بأصحاب المواهب الشعرية والفنية .

ومن مجالسها الأدبية حول شعر الغزل ما رواه صاحب زهر الآداب عن بلال مولى ابن أبي عتيق أنه قال : أتيت الثريا مسلما عليها فقالت : أنشدني لعمر ( ابن أبي ربيعة ) فأنشدتها :

أصبحَ القلبُ في الحبال رهينا

( القصيدة ) . فقالت الثريا : أي والله لئن سلمت له لأردن من شأوه ، ولأثنين من عنانه ولأعرفنه نفسه . فمررت فيها ( في إنشاد القصيدة ) حتى انتهيت إلى قوله :

قلتُ مَن أنتمُ فصدَّت وقالت     أمبدٌّ سؤالك العالمينا

فقالت : أوقد أجابته بهذا أي وقت ؟ فلما انتهيت إلى قوله :

وترى أننا عرفناك بالنعتِ

قالت : جاءت النوكاء بآخر ما عندها في موقف واحد[١].

والمجلس يدلنا على أنه يجدر بالشاعر في الغزل أن يبتعد عن ذكر ما ينزل من قدر من يتغزل بها ، وألا يظهرها بمظهر الغاوية المتهالكة ، وإنما يظهرها بمظهر المتأدبة المتأبية المتمنعة ، فإن فعل غير ذلك يكون قد أساء إليها،وقلل في الوقت نفسه من قيمة شعره وجودته .

وبهذه المجالس وغيرها يتأكد لنا شيوع الذوق الأدبي الرفيع ، وتمكن ملكة النقد الأدبي في نفوس القوم وسراهم ، وأنها تجاوزت الرجال إلى النساء في المجتمع الأموي . وكانت مجالس هؤلاء تمثل النوع الأول من المجالس الأدبية التي عقدت في هذا العصر حول شعر الغزل .

### ثانيا : مجالس قصور الخلفاء :

والنوع الثاني من هذه المجالس هي تلك المجالس التي كانت تنعقد في قصور الخلفاء من بني أمية ، ويدور الحديث فيها حول شعر الغزل وتقويمه ونقده ، وقد عقد بعض خلفاء بني أمية ندوات ومجالس في هذا الشأن

---

١ - زهر الآداب ١ / ٢٥١، والنوكاء : الحمقاء .

كانت بمثابة مؤتمرات أدبية يتناقش فيها الخليفة مع الشعراء والنقاد فيما يتعلق بشعر الغزل ونقده . ويأتي عبد الملك بن مروان في مقدمة الخلفاء الأمويين اهتماما بهذا الجانب ؛ حيث تحولت مجالسه في قصره إلى منتديات أدبية كان لشعر الغزل نصيب وافر منها .

- ومن هذه المجالس ما يروى أنه دخل الأقيشر الأسدي الشاعر على عبد الملك وعنده قوم ، فتذاكروا قول نصيب :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمت      فيا ويحَ دعدٍ من يهيمُ بها بعدي

فقال الأقيشر : والله لقد أساء قائل هذا الشعر ، قال عبد الملك : فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟ قال : كنت أقول :

تحبكمً نفسي حياتي فإن أمت      أُوَكِّلُ بدعدٍ من يهيمُ بها بعدي

قال عبد الملك : والله لأنت أسوأ قولا منه حين توكل بها ، فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : كنت أقول :

تحبكمً نفسي حياتي فإن أمت      فلا صَلُحت دعدُ لذي خُلَّةٍ بعدي

فقال القوم جميعا : أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم "[1].

والحوار في هذا المجلس يوحي بذوق عبد الملك الأدبي الرفيع

١ - الشعر والشعراء ٢٦١ . واقرأ الموشح ٣٤٧ ، والكامل للمبرد ١٨٣/١.

وبملكته القوية القادرة على اختيار التعبير الملائم والمعنى المصيب ؛ فهو لم يعجب بقول نصيب في دعد حين يفكر فيمن يهيم بها بعده ، ولا بقول الأقيشر حين يوكل بدعد غيره بعد موته ، وجاء هو بالمعنى المناسب للواقع والمنسجم مع ما عرف من بناء الحب على الأنانية والأثرة وعدم التفريط في المحبوب حتى ولو بعد الموت ، فدعا الله ألا تصلح دعد لمحب بعده ، وهذا ولا شك تعبير يتوافق مع نفس المحب الوامق الذي يتمسك بحبيبته ويستأثر بحبها حتى بعد الوفاة .

– ومن مجالس عبد الملك الأدبية حول شعر الغزل ما يروى أنه سمر عبد الملك بن مروان ذات ليلة ، وعنده كثيِّر عزة ، فقال له : أنشدني بعض ما قلت في عزة فأنشده حتى إذا أتى على هذا البيت :

همَمتُ وهمَّت ثم هابتْ وهبْتها حيـاءً ومثلي بالحياءِ حقيقُ

قال له عبد الملك : أما والله لولا بيت أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزتك . قال : لِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنك شركتها معك في الهيبة ثم استأثرت بالحياء دونها ، قال : فأي بيت عفوت به يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولك :

دعوني لا أريدُ بها سواها دعوني هائمًا فيمن أهيمُ [1]

١ – العقد الفريد ٥ / ٣٦٤ .

وحكم عبد الملك على شعر كثير بهذه الصورة يدل على نفاذ بصيرته بالشعر ، ودقة فهمه لمراميه ؛ فالرجل عادة يوصف بالجرأة والاقتحام ، لا بالحياء والخجل خاصة في موقف الحب ، والمعتاد أن المرأة هي التي توصف بالخفر والحياء في هذا الجانب .

كما أن إعجاب عبد الملك بالبيت الأخير يوقفنا على مقياس نقدي واضح وهو أن الشاعر يجدر به أن يعبر في غزله عن تمالكه في حبه ، وأن يبين شدة تمسكه بمن يحب ، وعدم رغبته في العدول عنها إلى سواها مهما قاسى في سبيل ذلك من الضنى والسهد والعذاب ، ولذلك أعجب عبد الملك بهيام كثير بعزة وبقائه على حبها دون سواها .

فعبد الملك يشير في هذا المجلس إلى أن العلاقة بين الرجل والمرأة لا تبنى على الحياء ، والخجل من جانب الرجل ؛ لأنه إن فعل ذلك فإنه يصرف عنه المرأة ذاتها ، ويجعلها تنأى عنه ، وينفرها منه ؛ لأنها لم تجد منه عرامة الشباب وجسارة الرجولة ، فلهذا كان بيت كثيِّر ( دعوني لا أريد بها سواها ) خيرا من بيته الحيي في رأي عبد الملك بن مروان .

- ومن مجالس عبد الملك الأدبية حول شعر الغزل أيضا ما يروى أن عبد الملك بن مروان استقبل الشاعر عمر بن أبي ربيعة فقال له : قد علمت قريش أنك أطولها صبوة ، وأبعدها توبة ، ويحك ! أما لك في نساء

قريش ما يكفيك عن نساء بني عبد مناف ؟ ألست القائل :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنى ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارمُ
فقلتُ أصبحٌ أم مصابيحُ راهبٍ ... بدت لك خلفَ السجفِ أم أنتَ حالمُ
بعيدةُ مهوَى القرطِ إما لنوفلٍ ... أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمُ

فقال : يا أمير المؤمنين : فإن بعد هذا :

طلبنَ الهوى حتى إذا ما وجدنَه ... صدرْنَ وهنَّ المسلماتُ الكرائمُ

فاستحيا منه عبد الملك وقضى حوائجه ووصله " [1].

والمجلس يدلنا على مبدأ نقدي في شعر الغزل ، وهو أن الشاعر لا يصح له أن يتبذل في غزله ، ولا أن ينزل من قدر من يتغزل بها ، وأن من الواجب عليه أن يضفي عليها ثوبا من العفة والطهارة والكرامة ، فقد آخذ عبد الملك الشاعر على نظرة العارم ومحاولته كشف العورات والتطلع على السوآت . فلما أجابه الشاعر في البيت الأخير بأنه وصفهن بالعفاف، وأبقى عليهن صفة الوقار والصيانة — وهو ما يفهم من قوله : (صدرن وهن المسلمات الكرائم ) — استحيا منه عبد الملك وقضى حوائجه ووصله .

والحقيقة أن البيت الأخير من أبيات عمر هو من جنس الأبيات

---

(١) [illegible]

الأولى ؛ فعمر فيه " يجعل نساء البيت الحاكم يطلبن الهوى ، ولا يرجعن عنه صاديات ، بل يرتوين منه ويتعاطينه ويذقنه ، ففيهن حركة تلح عليهن أن يردنه ، أما ما أرضى عبد الملك فهو وصف نساء بيته بالمسلمات الكرائم ، وهو وصف يشعر — من طريق ما — أن تناولهن الهوى يختلف عن تناول غيرهن "[1].

– ومن المواقف التي تشير إلى هذا المبدأ بعينه ( مبدأ العفة والتصون في الغزل والإنزال من قدر الشعر إذا كان الغزل فاضحا متبذلا ) — ما يروى من أنه لما حج عبد الملك بن مروان لقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة ، فقال له عبد الملك : لا حياك الله يا فاسق ، قال : بئست تحية ابن العم لابن عمه على طول الشحط . فقال له عبد الملك : يا فاسق ؛ ذلك لأنك أطول قريش صبوة وأبطؤها توبة ، ألست القائل :

ولولا أن تعنِّفَني قريشٌ مقالَ الناصحِ الأدنى الشفيقِ
لقلتُ إذا التقينا قبِّليني ولو كنا على ظهرِ الطريقِ

اغرب "[2].

فهذا الخبر يدلنا على قبح الغزل إذا كان فاضحا ، وكان الشاعر فيه مبتذلا بعيدا عن العفة والطهر والنقاء ؛ فعبد الملك بن مروان يعنف

---

١ –اتجاهات النقد الأدبي العربي – د / محمد السعدي فرهود ٨٧ .
٢ – الموشح ٢٦٢ .

الشاعر لما صدر عنه من غزل يحمل لونا من اللهو والعبث والفجور عبر عنه تعبيرا سافرا مكشوفا ، وهذا ما لا يرضاه الذوق العربي الأصيل الذي يأبى كشف العورات والتعدي على الحرمات ، والجهر بالمعاصي والمنكرات .

– ومن مجالس عبد الملك أيضا والتي يدور الحديث فيها حول ما يتعلق بشعر الغزل ما يروى من أنه اجتمع عمر بن أبي ربيعة ، وكثيِّر عزة، وجميل بن معمر بباب عبد الملك بن مروان فأذن لهم فدخلوا ، فقال: أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني ، فأنشده جميل بن معمر :

حلفتُ يمينا يا بثينةُ صادقًا ... فإن كنتُ فيها كاذبًا فعميتُ
إذا كان جلدٌ غيرَ جلدك مسَّني ... وباشرني دون الشعار شريتُ
ولو أن راقي الموتِ يرقي جنازتي ... بمنطقها في الناطقين حييتُ [1]

وأنشد كثيِّر عزة :

بأبي وأمي أنتِ من مظلومةٍ ... طَبِنَ العدوُ لها فغيَّر حالَها
ولو أن عزَّة خاصمت شمسَ الضحى ... في الحسن عند موفَّقٍ لقضَى لها
وسعى إليَّ بصرم عزةَ نسوةٌ ... جعل المليكُ خدودَهن نعالَها [2]

وأنشد ابن أبي ربيعة :

ألا ليت قبري يوم تُقضَى منيتي ... بتلك التي من بين عينيك والفم

١ – شريت : أي أصابه الشرى وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تشتد كربتها ليلا .
٢ – طبن : فطن ، الصرم : انقطاع المودة .

وليت طهوري كان ريقَـــك كلَّـــه      وليت حنوطي من مشوشكِ والـــدمِ
ألا ليت أمَّ الفضل كانت قرينـــتي      هنـــا أو هنـــا في جنـــةٍ أو جـــهنمِ

فقال عبد الملك لحاجبه : أعط كل واحد منـــهم ألفـــين ، وأعـــط صاحب جهنم عشرة آلاف "[١].

والخليفة الناقد هنا يعجب بالأبيات لما فيها من غزل يدل على شـدة الوجد ، وقوة التعلق بالمحبوبة ، والوفاء لها ، وبعد غزل كل منـــهم عـــن دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزة ، كما تمنى كل منهم بقـاء الحب مهما كانت الأحوال في الحياة وبعد الممات ، وهذا ما يطلبه النقــاد في شعر الغزل الرفيع .

– وفي مجلس آخر من مجالس عبد الملك بن مروان التي دار الحديث فيها حول ما يتصل بشعر الغزل والعفة فيه ما يروى أنه " دخلت عــــزة على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنت عزة كثيِّر ؟ قالت : أنا أم بكـــر الضمرية ، قال لها : يا عزة :هل تروين من شعر كثيِّر شيئا ؟ قالت : مـــا أعرفه ، لكن سمعت الرواة ينشدون له :

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غريَمه      وعـــزةُ ممطولٌ معـــنًّى غريمُها

١ – ذيل الأمالي والنوادر – أبو علي القالي – دار الكتاب العربي – بـــيروت – ص ٦٦ ، ٦٧ .

قال : أفتروين قوله :

وقد زعمتْ أني تغيرتُ بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيرُ

تغيرَ حالي والخليقةُ كالـذي ... عهـدتِ ولم يخبر بسرك مخبرُ

قالت : ما سمعت هذا ولكني سمعتهم ينشدون :

كأني أنادي صخرةً حين أعرضَتْ ... من الصمِّ لو تمشي بها العصمُ زلّتِ

غضوباً فمـا تلقـاك إلا بخيلـةً ... فمن ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ [١]

وعزة هنا أرادت أن تنفي تهمة تغزل كثيِّر بها والتقائـه بهـا ، وأن تظهر تمنعها عنه وعدم معرفتها به وإن سمعت عن شعره ؛ فأنشدت مـن شعر كثيِّر ما يثبت عفافها وتمنعها وصونها ، وذكرت أنها سمعت الـرواة ينشدون ما قالت ولم تسمعه منه هو، حتى يكون ذلك أدعـى إلى نفـي التهمة والابتعاد عن الزلة . فقد اختار عبد الملك بيتين أراد بهما إثارة عزة للحديث عن علاقتها بكثيِّر ، وعما نسب إليها من زعمها تغـير كثـيِّر . وأدركت عزة أنها إن أجابت الخليفة بالإيجاب فضحت نفسها وأهلـها ، فردت عليه مقاله وصرفته بذكائها وفطنتها إلى بيتـين يثبتـان عفافـها وصونها، ويحملان معنى بخلها باللقاء . وهو معنى يثبت العفة ونزاهة المودة ويعبر عن تخلقها بخلق الفتاة العربية الأصيلة ، في حرصها علـى إبائـها

١ – زهر الآداب ١ / ٢٤٦ ، وانظر الأغاني ٩ / ٢٦ ، ٢٧ ، والأمالي لأبي علي القـالي ٢ / ١٠٧ .

وكرامتها ، وبعدها عن كل ما يخدش حياءها أو يسيء إلى صونها وعفافها.

وهكذا قدم لنا عبد الملك بن مروان في المجالس الأدبية المذكورة — وهي قليل من كثير — العديد من القواعد والأسس النقدية التي اعتمد عليها النقاد بعد ذلك في تأصيلهم للمبادئ والقواعد النقدية حول شعر الغزل ، وفي تحديدهم لملامح الغزل الجيد . ولا عجب في هذا فقد كان عبد الملك بن مروان علما من أعلام النقد الأدبي في العصر الأموي . ولا نبالغ إذا قلنا إنه وضع بلمساته النقدية في مثل هذه المجالس أسسا ومعايير جديدة سار على أساسها الأدباء ، وتلمسها النقاد في وضعهم للنظريات النقدية بعد ذلك ؛ فقد كان بحق صاحب ذوق فني أصيل وإحساس أدبي مرهف .

– أما عن مجالس الخلفاء الأمويين غير عبد الملك بن مروان فمنها مجالس تروى عن ولده الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ومنها ما يروى أنه قال للفرزدق : أنشدني أجود شعر قلته ، فأنشده قوله :

عزفتَ بأعشاشٍ وما كنتَ تعـزِفُ     وأنكرتَ من صدراءَ ما كنت تعرفُ

فقال له : زدني ، فأنشده قوله :

ثلاثٌ واثنتان فهن خمسٌ     وسادسةٌ تميل إلى الشمامِ

فقال له سليمان : ما أظنك إلا قد أحللت بنفسك العقوبة ، أقررت بالزنا عندي وأنا إمام ولابد لي من إقامة الحد عليك . قال الفــرزدق : إن أخذت في بقول الله — عز وجل — لم تفعل ، قال : وما قال الله — عــز وجل — ؟ قال : قال : " والشعراءُ يتبعهمُ الغاوون ، ألمْ ترَ أنهم في كــلِّ وادٍ يهيمون ، وأنهمْ يقولون ما لا يفعلون " . فضحك سليمان وقــال : تلافيتها ودرأت عن نفسك ، وأمر له بجائزة سنية وخلع عليه "[١].

والخبر يتعلق بقضية الصدق والكذب في الشعر ، ويؤكد قول مــن قال : " أعذب الشعر أكذبه "؛ فقد أنشد الفرزدق الخليفة أجود ما قــال من شعر في نظره ، واعترف على نفسه بالكذب فيه ، وأعجب به الخليفـة وأعطاه عليه الجائزة السنية .

وقد وقع خلاف كبير بين النقاد حول قضية الصدق والكــذب في الشعر ، سبق عرض جزء منه في الفصل الأول من هذا البحث ولا داعـي للعودة إليه .

ومن هذه المجالس ما يروى أنه حج سليمان بن عبد الملك ، فلمــا قدم مكة أرسل إلى عمر بن أبي ربيعة فقال له : ألست القائل :

وكم من قتيلٍ لا يبـــاءُ بـــه دمٌ    ومن غلق رهناً إذا ضمه مـــنى [٢]

---

١ – الأغاني ١٦ / ١١٣ .

٢ – أباء القاتل بالقتيل : قتله به . وغلق الرهن في يد المرتهن : أي لم يقدر الراهن علـــى افتكاكه في الوقت المشروط . والمعنى : كم من قتيل يطل دمه ولا يؤخــذ بثــأره ، وكم من قلوب أسيرة لا يستطيع أصحابها افتكاكها .

وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غـيرِهِ    إذا راحَ نحو الجمرةِ البيضُ كـالدمى
فلم أر كالتجميرِ منظـرَ نـاظرٍ    ولا كليالي الحجِّ أقتلْـنَ ذا هــوى

قال : نعم . قال : لا جرم والله لا تحج مع الناس العام ، وأخرجـه إلى الطائف حتى قضى الناس حجهم " [١].

والخبر يؤكد على أن الغزل المباح والجيد في نظر النقاد هو الغـزل الموسوم بالعفة والمحافظة على كرامة المرأة ، وابتعد فيه الشاعر عـن الأذى وكشف العورات . فإذا أصر الشاعر على الابتذال في غزله وتناول فيـه أعراض المسلمين بالخدش والتجريح كان الأحرى رفض هذا الشعر والبعد عن روايته فضلا عن نبذ قائله ، وإظهار البغض والكراهية له .

– ومن خلفاء بني أمية الذين عقدوا مجالس أدبية تحاوروا فيها حـول شعر الغزل ونقده الوليد بن يزيد ين عبد الملك الذي عرف بجودة شعره ، وخاصة في الغزل ووصف الخمر ، كما عرف بأنه رائد فن الخمريـات في الشعر العربي . وقد عقد الكثير من مجالس الشعر والغناء في قصره . ومـن هذه المجالس ما يلي :

ذكر الأصفهاني عن أبي عبيدة أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قال لأصحابه ذات ليلة : أي بيت قالته العرب أغزل ؟ فقال بعضهم : قـول

---

١ – الموشح ٢٦٢ .

جميل :

يموتُ الهوى منّي إذا ما لقيتُها ويحـــيا إذا فارقتُهَـــا فيعودَ

وقال آخر : قول عمر بن أبي ربيعة :

كأنني حين أمسِي لا تكلمنا ذو بغيةٍ يبتغي ما ليس موجودا

فقال الوليد : حسبك والله بهذا " [1].

والمجلس يدلنا عل أن المفضل من شعر الغزل هو الشعر المعبر عـــن إحساس المحب الصادق المودة المتمسك بحبه ومودته ، فجميــــل في بيتــه يصور ما يجده من الراحة والسعادة في قرب من يحب ، حتى إذا نأى عنـها عبث به الهوى وعادت إليه آلام الحب وتباريحه : أما عمر بن أبي ربيعــــة فيصور حيرته وشرود عقله إذا مر عليه يوم لم تكلمه فيه من يهواها ، بـــل إنه ليكون حزينا ويائسا حزن من يبتغي شيئا ليس بموجــــود . وهـــذان البيتان قد جمعا مع حسن المعنى وبيان شدة المودة بين المحبين جمال التعبـير ، ورقة الألفاظ . وهذا كله ما يؤهلهما لأن يكوناضمـــن أغــزل أشـــعار العرب .

– ومن مجالس الوليد الأدبية المتعلقة بشعر الغزل أيضا مـــا ذكـــره الأصفهاني عن حماد الراوية أنه قال : استنشدني الوليد بن يزيد فأنشــــدته

١ – الأغاني ١ / ١١٨ .

نحوا من ألف قصيدة ، فما استعادني إلا قصيدة عمر بن أبي ربيعة :

طالَ ليلي وتعنَّاني الطَّرب

فلما أنشدته قوله :

فأتتها طَبَّةٌ عالـمـــــةٌ　　　تخلط الجدَّ مرارًا باللعبْ

إلى قوله :

إن كفِّي لـــكِ رهـــن بالرِّضى　　　فاقبلي يا هندُ قالتْ : قد وَجَبْ

فقال الوليد : ويحك يا حماد ، اطلب لي مثل هذه أرسلها إلى سلمى. يعـني امرأته سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، وكـــان طلقـــها ليتزوج أختها ثم تتبعتها نفسه "[1].

وإعجاب الوليد بن يزيد بهذا الشعر يدلنا على أن الغزل الرفيع هـو ما يترضى فيه الشاعر محبوبته ويظهر فيه نوعا من الخضوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة . وما كان فيه من بيان الصبابـــة ، وتوجـع الكآبة، وقلق الأشواق ولوعة الفراق . كما ذكر ذلك أبو تمام في وصيتـه للبحتري [2].

وبمثل هذه المجالس الأدبية شارك الخلفاء الأمويون في وضع أســـس

---

١ - الأغاني ١ / ١٣٨ .

٢ - انظر : زهر الآداب للحصري ١ / ١١١ .

النقد الأدبي ، وحددوا بأقوالهم فيها معالم هذا الفن والأحكام والنظريات التي يقوَّم بها شعر الغزل في النقد العربي ، وقدموا بذلك العديد من الأصول والمبادئ التي كان لها أكبر الأثر في مسيرة النقد الأدبي المدون بعد ذلك .

ثالثا : مجالس عقدت بين الشعراء :

والنوع الثالث من المجالس الأدبية في العصر الأموي حول شعر الغزل يتمثل في تلك المجالس التي كانت تنعقد بين الشعراء بعضهم البعض؛ فكثيرا ما تلاقى الشعراء في هذا العصر ، ودارت المحاورات فيما بينهم حول غرض معين ، أو حول قصيدة بعينها أو أبيات معينة . وكان شعر الغزل يحظى بنصيب كبير من هذه المحاورات . وفيما يلي أمثلة من هذه المجالس :

- روي أبو علي إسماعيل بن القاسم عن راوية كثيِّر قال : كنت مع جرير - وهو يريد الشام - فطرب وقال : أنشدني لأخي بني مليح - يعني كثيِّراً - فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله :

وأدنيتِني حتى إذا ما سبيتِني ... بقولٍ يحل العصمَ سهلَ الأباطحِ
تجافيتِ عنيِّ حين لا لِي حيلة ... وخلَّفتِ ما خلَّفتِ بين الجوانحِ

فقال : لولا أنه لا يحسن بشيخ مثلي النخير لنخرت حتى يسمع هشام

على سريره "[١].

ووجه إعجاب جرير بهذا النسيب قوة تأثيره فيه وشدة طربه به لحلاوة ألفاظه ، وقرب معانيه ، حتى إنه استخفه وأخرجه عن وقاره . وهذا من علامات جودة النسيب ، فقد وسم النقاد جيد النسيب بأنه "يطرب الحزين ويستخف الرصين "[٢]. والناقد هنا قد استجاد هذا الشعر وتأثر به ، وطرب له ؛ لأنه شعر يضرب على وتر العلاقة بين المحب المستهام المتشوق إلى اللقاء ، والمحبوبة التي تتمنع عليه وتطمعه ثم تؤنسه .

- قال ابن كناسة : اجتمع نصيب ، والكميت ، وذو الرمة . فاستنشد النصيب الكميت من شعره فأنشده الكميت :

هل أنتَ عن طلبِ الأيقاعِ منقلب أم كيف يحسُنُ من ذي الشيبةِ اللعبُ

حتى بلغ قوله :

أم هلْ ظعائنُ بالعلياءِ نافعةٌ وإن تكاملَ فيها الأنسُ والشَّنَبُ [٣]

فعقد النصيب بيده واحدة . فقال الكميت : ما هذا ؟ قال أحصي أخطاءك ، تباعدت في قولك : ( الأنس والشنب ) ، ألا قلت كما قال ذو الرمة :

---

١ - العمدة ٢ / ١١٦ ، ١١٧ .

٢ - العمدة ٢ / ١١٦ .

٣ - الشنب : رقة وعذوبة في الأسنان .

لـــمياءُ في شفتيْها حوةٌ لَعَسٌ    وفي اللثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ [(١)]

ثم أنشدهما :

أبتْ هذه النفسُ إلا ادِّكارَا

فلما وصل إلى قوله :

إذا مـــا الهجارِسُ غَنَّينَها    يجاوبْنَ بالفلواتِ الوبارَا [(٢)]

فقال له النصيب : الفلوات لا تسكن الوبار ،فلما بلغ إلى قوله :

كأن الغطا مِطَ من غليهَا    أراجيزُ أسلمَ تهجو غِفارا

فقال النصيب : ما هجت أســـلم غفـــارا قـــط ، فانكســـر الكميـــت وأمسك"[(٣)].

فنصيب لم يعجبه معنى بيتي الكميت الأول والثاني ؛ لأنه جمع في كل منهما أمرين لا يجتمعان في الخارج ولا في ذهن السامع ؛ لأنهما بعيـــدان . أي أنه لم يراع فيهما ما سماه المحدثون من علماء البديع : مراعاة النظـــير . فقد عاب النصيب على الكميت قوله في البيت الأول : تكــــامل فيــــها الأنس والشنب ، لما فيه من التباعد بين معنى الكلمتين ، فلم تقع الكلمـــة بجانب ما يشاكلها ، فأين الأنس من الشنب ؟ فالكلام لم يجر على نظـــم .

---

١ – حوة : سمرة في الشفة ، لعس : سواد اللثة والشفة مع حمرة .

٢ – الهجارس : هو من السباع كل ما يعسعس بالليل ممـــا هـــو دون الثعلـــب وفـــوق اليربوع، والوبار : جمع وبرة وهو حيوان كالسنور .

٣ – الأغاني ١ / ٣٢٧ ، والموشح ٢٥١ ، والكامل ٢ / ١٦٠ .

ومن أهم الأشياء التي يحتاج إليها ناظم الكلام أن ينظم على نسق ، وأن يضع الكلمة مع ما يشاكلها . قال أبو العباس المبرد : " والذي عابه نصيب من قوله : ( تكامل فيها الدل والشنب ) قبيح جدا ؛ وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق ، وأن يوضع على رسم المشاكلة"[1].

وكذلك في البيت الثاني ؛ فقد جعل الوبار يجاوبن الهجارس في فلواتها ، والوبار لا تسكن الفلوات . أما عن البيت الثالث فقد أشار النصيب في تعقيبه عليه إلى مبدأ الصدق في الشعر ؛ فقد ادعى الكميت أن صوت غليان القدور تشبه أراجيز أسلم في هجاء غفار ، مع أن أسلم لم تهج غفارا قط .

فالنقدينصب هنا على مدى معرفة الشاعر بموقع الكلام، وحسن اختيار الأساليب ، وحسن التوفيق بين التراكيب ؛ حتى لا تقع لفظة في البيت في غير موقعها ، أو تكون هناك منافرة بين أجزاء القول .

– ومن المجالس الأدبية بين الشعراء حول شعر الغزل ما روي في الأغاني أن عمر بن أبي ربيعة خرج يريد الشام ، فلما كان بالجناب لقيه جميل ، فقال له عمر : أنشدني.فأنشده :

---

١ – الكامل للمبرد ٢ / ١٦٠ .

خليليَّ فيما عشتُما هل رأيتُما قتيلاً بكى من حبِّ قاتلِه قبلي

ثم قال جميل : أنشدني يا أبا الخطاب ، فانشده :

ألمْ تسألِ الأطلالَ والمتربَّعا ببطنِ حليَّاتٍ دوارسَ بلقَعَا

فلما بلغ إلى قوله :

فلما توافقنا وسلَّمْتُ أشْـــرقَتْ وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنَّعَـــا

تبا لهْنَ بالعرفانِ لمـــَّـــا عرفنـَــني وقلن امرؤ باغٍ أكلَّ وأوضَعَـــا

وقرَّبْنَ أســـبابَ الهـــوى لمتيـــَّـمٍ يقيس ذراعًا كلما قِسْنَ إصبَعَـــا

فصاح جميل واستخذى وقال : ألا إن النسيب أخذ من هذا ، ومـــا أنشده حرفا " [1].

ووجه إعجاب جميل بهذا الغزل أن عمر بن أبي ربيعة أجاد وصـــف هؤلاء الفتيات وعبر عن حسنهن ورغبتهن في المودة والهوى مـــع عفـــة اللفظ وجمال العبارة ، والمحافظة — في الوقت نفسه — علـــى كرامتـــهن وصونهن .

– وروى المجلس السابق بين جميل وعمر بن أبي ربيعة برواية أخـــرى ذكرها الحصري القيرواني ذكر فيه شعرا آخر لعمر ، وإليك نصه :

---

١ – الأغاني ٨ / ١٤٥ .

" اجتمع جميل بن معمر العذري بعمر بن أبي بيعة المخزومي فأنشده جميل قصيدته التي أولها :

لقد فرح الواشون أن صرمَتْ حبلى بثينةُ أو أبدت لنا جانبَ البخلِ
يقولــون مهــــلاً يا جميلُ وإنني لأقسِمُ مالي عن بثينةَ من مهلِ
خليليَّ فيما عشتما هل رأيتُمـــا قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلي

فلما أتمها قال لعمر : يا أبا الخطاب : هل قلت في هذا الروي شيئا؟

قال : نعم ، ثم أنشده :

جرى ناصحٌ بالودِّ بيـــني وبينَــها فعرضني يوم الحصَـــاب إلى قتلـــي
فما أنسَ م الأشياءِ لا أنسَ قولَهَــا وموقفَــها يومــاً بقارعــةِ النخـــلِ
فلما توافقنا عرفـــتُ الـــذي بهـــا كمثل الذي بي حذوكَ النعلَ بـــالنعلِ
فسلمتُ فاستأنستُ خيفةَ أن يُـــرَى مكـــاني أو يَـــرَى حاســدٌ فعلـــي
وأقبلن أمثـــالَ الدمَّـــى يكتنفنـــها وكـــلٌّ يفـــدّى بـــالمودةِ والأهــــلِ
فقالتْ وأرختْ جانبَ الستر إنمـــا معي فتكلَّم غيرَ ذي رقبــــةٍ أهلـــي
فقلتُ لها ما بي لهـــم مـــن ترقـــبٍ ولكنَّ سرِّي ليـــس يحملُـــه مثلـــي

فاستخذى جميل وصاح : هذا والله الذي طلبت الشعراء فأخطأتــه فتعللوا بوصف الديار ونعت الأطلال "[1].

ووجه جمال المعنى في أبيات عمر هنا أنه جعل الهوى والمودة سرا بينه

---

١ - زهر الآداب ١ / ٥٥٦ .

وبين فتاته ، ولم يكشف لها سترا ، ولم يذع لها سرا ، وجعل لقاءه بها بعيدا عن الرقباء والحساد ، أما جميل فجعل هواه ذائعا بين الناس بعد ما أطلع خلانه على ما بينه وبين بثينة ، وحدثهم عن لوعاته وضناه في حبه .

وهذا يدلنا على أصل نقدى هام وهو ألا يعرض الشاعر فتاته في شعره الغزلي للقيل والقال ، وألا يكون شعره فيها سببا في خدش حيائها وتبذل أمرها ؛ بل يعمل على إبراز صونها وعفافها ، وهذا ما حرص عمر على تحقيقه في أبياته .

- وتميز شعر عمر بهذا السمات هو السر في إعجاب بعض النقاد بكثير من شعره في فن النسيب ، وفي هذا يقول الأصفهاني : " راق عمر ابن أبي ربيعة الناس ، وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدة الأسر، وحسن الوصف ، ورقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخّل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدق الصفاء . إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرا ، وإن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغذ السير، وحير ماء الشباب ... وحالف بسمعه وطرفه ... وقنع بالرجاء

من الوفاء " (١)، وبهذه السمات كلها برع عمر بن أبي ربيع في الغـــزل ، وجاء نسيبه على درجـــة عالية من الظرف والحسن والبهاء .

- ومما يتصل بجمال شعر الغزل وحسنه بسبب حديث الشاعر فيـه عن كتمان السر بين المحب ومحبوبته ، وعدم تعرضـه لكشـف أمرهمـا وافتضاح خبرهما ما جاء في زهر الآداب أنه " لما مات عمر بن أبي ربيعـة نعي لامرأة من مولدات مكة، وكانت بالشام - فبكت وقـالت : مـن لأباطح مكة ؟ ومن يمدح نساءها ، ويصف محاسنهن ، ويبكي ظاعنـهن ؟ فقيل لها : قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته ، فقـالت : أنشدوني له . فأنشدوها :

وقد أرسلتْ في السرِّ ليلي بأن أقِمْ ... ولا تقرَبَنَّا فـالتجنبُ أجمـلُ
لعل العيونَ الرامقـاتِ لوصلنـا ... تكـذِّبُ عنـا أو تنـامُ فتغفـلُ
أنـاسٌ أمِنَّـاهُمْ فبثُّوا حديثَنـا ... فلما كتمنا السـرَّ عنـهم تقوَّلـوا
فما حفظوا العهدَ الذي كان بيننـا ... ولا حينَ همُّـوا بالقطيعـةِ أجملـوا

فتسلت وقالت : هذا أجل عوض ، وأفضل خلـف : فـالحمد لله الذي خلف على حرمه وأمته مثل هذا " (٢).

وسبب استحسان المرأة لهذا الشعر أنها رأته يتمشى مع ما يجـب أن

---
١ - الأغاني ١ / ١٢٤ .
٢ - زهر الآداب ١ / ٥٥٧ .

يكون عليه الأمر بين المحب ومحبوبته ، من المحافظة على السر وكتمان الهوى ، والحرص على إظهار العفة والتصون ؛ مما ذكرها بشعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان يحرص على أن يتصف غزله بهذه الصفات ، وهذاما يؤكد الأصل النقدي لما تحدث عنه النقاد بعد ذلك ، فطالبوا الشعراء في غزلهم بالابتعاد عن الفحش ، وعن التعدي على حرمة المرأة ، وعن كل ما يخدش حياءها أو يسيء إلى كرامتها وصونها وعفافها ، مع رقة اللفظ وجمال العبارة ، ورشاقة التصوير .

– ومن هذا اللون من المجالس الأدبية حول شعر الغزل ما يروى من أن عمر بن أبي ربيعة لقي الأحوص الشاعر وقد أقبل من عند عبلة ، فقال له : يا أحوص : ما زودت صاحبتك ؟ ولا تكن كالذي قال :

سأهدي لها في كلِّ عام قصيدةً ... وأقعُدُ مكفيًّا بمكةَ مكرَمَا

فأهدى لها ما لا ينفعها ، قال : قد والله فعلت ، قال : فأنشدني ما قلت : فأنشده :

ألا يا عبلُ قد طالَ اشتياقي ... إليكِ وشفَّني خوفُ الفراقِ

وبتُّ مخامراً أشكو بلائي ... لما قد غالَني ولما ألاقي[1]

حلفتُ لكِ الغداةَ فصدقيني ... بربِّ البيتِ والسبعِ الطباقِ

لأنتِ إلى الفؤادِ أشدُّ حبًّا ... من الصادي إلى الكأسِ الدهاقِ

---

١ – مخامرا : أصابه داء .

فقال له عمر : ما تركت لي شيئا ، ولقد أغرقت في شعرك، قال : كيف أغرقت في شعري وأنت الذي تقول :

إذا خدرَتْ رجلي أبوحُ بذكرها ليذهبَ عن رجلي الخدورُ فيذهبُ

فقال : الخدور يذهب والعطش لا يذهب " [١].

والحوار في هذا المجلس يشير إلى مبدأ نقدي في تقويم شعر الغزل ، وهو أنه ينبغي أن يكون الغزل مبنيا على إبداء ما في نفس الشاعر تجاه محبوبته من مشاعر الود والمحبة والعشق والهيام ، وبيان منزلتها في قلبه ونفسه ، وتصوير مدى شوقه إليها وكره فراقها له ، مع إظهار بعض التضرع والتذلل والخشوع والصبابة وعدم الإباء والعزة . ولما تضمنت أبيات الأحوص هذه المعاني أعجب بها عمر بن أبي ربيعة وقال له : ما تركت لي شيئا أقوله . ولكنه وجد في نفسه شيئا من تلك المبالغة في البيت الأخير بأنها أشد حبا إلى قلبه من حب الصادي الظمآن إلى الكأس الدهاق. وقد دافع الأحوص عن بيته فقال لعمر : إنك جئت بما يشبه هذه المبالغة حينما ذكرت أن رجلك لو أصيبت بألم فبحت بذكر المحبوبة ذهب الألم عنها.وأبان له عمر أن هذه ليست في درجة تلك ؛ فالألم قد يذهب بذكر الإنسان لمن يحب ، أما الظمأ فلا يذهب إلا بالري ، ولقد صدق

١ - الموشح ٢٩٤ .

عمر في هذا ، فبيته أخف مبالغة من بيت الأحوص .

- وفي مجلس آخر من المجالس الأدبية التي عقدت بين بعض الشعراء وبعض، ودار الحديث فيها حول شعر الغزل ، روي أن عمر بن أبي ربيعة قدم المدينة فأقام بها حينا وأطال ، وفي ذلك يقول :

يا خليليَّ قد مللتُ ثَوائي    بالمصلَّى وقد شنئتُ البقيعا
بلِّغاني ديارَ هندٍ وسُعدى    وارجعاني فقد هويتُ الرجوعا

ثم أراد الانصراف . فقال له الأحوص : أشيعك . وخرج معه حتى نزلا ودان وبها مترل نصيب ، فعارضهما وصار معهما ، حتى إذا نزلوا الجحفة أو عسفان خرج الأحوص لحاجة له فرأى كثيِّرا فرجع فأخبرهما... فصاروا إليه فوجدوه جالسا على فروة ، فجلسوا إليه فتحدثوا قليلا . ثم أقبل على ابن أبي ربيعة فقال : يا عمر : والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك ، ولكنك تخطئ الطريق : تشبب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرني عن قولك :

قالت لتربٍ لها تعاتبُها    لتفسدنَّ الطوافَ في عمرَ
قومي تصدَّي له ليبصرنا    ثم اغمزيه يا أخت في خفرَ
قالت : قد غمزتُه فأبى    ثم اسبطرَّت تشتد في أثريَ

أردت أن تنسب به فنسبت بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك كنت قد أسأت وصفها ، أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بالخفر ، وأنها

مطلوبة ممنعة ، هلا قلت كما قال هذا — وضرب بيـــده علـــى كتـــف الأحوص :

لقد منعتْ معروفَها أمُّ جعفـــرِ ... وإني إلى معروفِـــها لَفقـــيرُ
وقد أنكروا عند اعترافٍ زيـاوتي ... وقد وغرَتْ فيها عليَّ صـــدورُ
أزورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفـــرِ ... بأبياتكم ما زرتُ حيـــث أزورُ

هكذا والله يكون الشعر وصفة النساء . فارتاح الأحوص وامتـــلأ سرورا وانكسر عمر . ثم أقبل على الأحوص فقال : وأنت يا أحـــوص : أخبرني عن قولك :

فإن تصلي أصِلْـــكِ وإن تبيـــني ... بصرمِكِ قبلَ وصلِكِ لا أبـــالي
وإني للمـــودةِ ذو حفـــاظٍ ... أواصلُ من يـــهشُّ إلى وصـــالي
وأقطعُ حبلَ ذي ملقٍ كـــذوبٍ ... سريعٍ في الخطوب إلى انتقـــالِ

ويلك ! أهكذا يقول الفحول ؟ أما والله لو كنت فحلا ما قلت هذا لها ، هلا قلت كما قال هذا الأسود — وضرب بيده على جنب نصيب :

بزينبَ ألِمْ قبلَ أن يرحل الركبُ ... وقل إن تملينا فما ملَّكِ القلـــبُ
وقل إن قربَ الدارِ يطلبه العِدى ... قديما ونأيَ الدارِ يطلبه القـــربُ
وقل إن أنلْ بالحب منكِ مـــودةً ... فما فوقَ مالاقيتُ من حبكم حبُّ
وقل في تجنيها لك الذنب إنمـــا ... عتابُك من عاتبتَ فيما له ذنـــبُ

فانتفخ نصيب وانكسر الأحوص . ثم أقبل على نصيـــب فقـــال

ولكن خبرني عن قولك يا ابن السوداء :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمت　　فوا حزني مَنْ ذا يُهيمُ بها بعدي

كأنك اغتممت ألا يفعل بها بعدك ، فقال بعض القوم لبعض : انهضوا فقد استوت القرقة " [1].

ويدور النقد في هذا المجلس حول أمثل المعاني للنسيب وأحسنها ، وأفضل الأساليب في التعبير عن حب المرأة والوصول إلى قلبها ؛ فكثيِّر يبدي استحسانه لأبيات الأحوص في دورانه حول أبيات أم جعفر ليراها ؛ اقتناعا منه بأن زيارتها فرض عليه ، وأملا في أن تشفيه زيارتها مما يجد من آلام . كما استحسن من نصيب هذه الإلمامة بزينب قبل الرحيل ، وتعبيره بذلك عن ثباته على الود والمحبة ، والبعد عن ملله منها وإن بدا منها الملل. ومن أجل التأكيد على أمثل المعاني في النسيب أيضا عاب كثيِّر على عمر بن أبي ربيعة وصفه المرأة بالجرأة والإيجابية في العشق ، وادعاءه بأنه استولى على قلبها حتى إنها أرسلت إليه من يطلبه لها . وهذا فيه ما فيه من امتهان لأنوثة المرأة ، واعتداء على دلالها وتمنعها ، والصواب في الغزل عكس ذلك ؛ فينبغي أن توصف المرأة بالخفر والحياء ، وبأنها مطلوبة

---

١ - الموشح ٢١٦ : ٢١٨ ، واقرأ الأغاني ٢ / ١٠٥ وما بعدها ، والعقد الفريد ٥ / ٣٦٣ ، والكامل للمبرد ٢ / ١٥٥ ، ١٥٦ . والقرقة : لعبة يلعب بها على خطوط. واستواؤها : انقضاؤها .

ممنعة. ولهذا قال له كثيِّر : أتراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت ؟ . ومن منطلق هذا الغرض نفسه عاب كثيِّر على الأحوص تجلده في وجه المحبوبة ، وزعمه بأنه لا يبالي بهجرها له ، وأنه سيقابل هجرها بهجر مثله . وكان عليه أن يبدي تمسكا بها، وإصرارا على ودها ، وحرصا على الابتعاد عن كل ما يوهي العلاقة بينه وبينها . كما عاب على نصيب انشغاله بمن يحل محله في قلبها بعد موته ، وكان ينبغي أن يتمنى ألا تصلح لحي بعده ؛ لبناء الحب على الأنانية وعدم التفريط في المحبوبة حتى بعد الممات .

ونلاحظ أن النقد في هذا المجلس صدر عن الشاعر مراعاة منه للتقاليد الاجتماعية التي سادت المجتمع العربي ، والحياة العاطفية بين الرجل والمرأة في هذا المجتمع . وحرص على أن يثبت للشعراء أنه يجب على كل منهم أن يصور المرأة كما هي في الواقع ، وأن يراعي كل منهم في حديثه عنها المحافظة على مشاعرها ، وما تستوجبه أنوثتها وكرامتها وعفافها .

رابعا : مجالس أخرى :

والنوع الرابع من أنواع المجالس الأدبية في العصر الأموي حول شعر الغزل ونقده هي تلك المجالس التي عقدت بين الشعراء وبين غيرهم

غير من ذكرنا من الأدباء والأديبات والخلفاء ، والشعراء . فقد كانت هناك مجالس تعقد بين الشاعر ومحبوبته ، أو بينه وبين أحد أبنائه ، أو بين الشاعر وعالم من العلماء ممن لم يشتغلوا بالأدب ونقده وروايته . أو بين الشاعر وبعض العامة من أبناء المجتمع الأموي . وكان الغزل هو محور الحديث في كثير من هذه المجالس .

– فمن المجالس التي دار الحوار فيها بين الشاعر ومحبوبته ما يروى أن جميلا لقي بثينة بعد طول هجر حدث بينهما فتعاتبا طويلا ، فقالت له : ويحك يا جميل ! أتزعم أنك تهواني وأنت تقول :

رمى اللهُ في عينَيْ بثينةَ بالقذى     وفي الغرِّ من أنيابها بالقوادحِ

فأطرق طويلا يبكي ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتني أعمَى أصمُّ تقودني     بثينةُ لا يخفَى عليَّ كلامُها

فقالت له : ويحك ! ما حملك على هذه المنى ؟! أوليس في سعة العافية ما كفانا جميعا "[1].

فقد أساء الشاعر التمني لها ولنفسه ، وكان الأجدر به أن يتمنى لها ولنفسه العافية كما قالت ، بدلا من أن يدعو الله أن يرمي عينيها بالقذى، وأسنانها بالقوادح ، ومن أن يتمنى لنفسه أن يكون أعمى أصم عن كلام

١ – الأغاني ٨ / ١٠٤ ، ١٠٥ .

غيرها .

وفرق كبير بين بيتي جميل السابقين . وبين ما تمنـاه العبـاس بـن الأحنف في قوله : [١].

أضِنُّ على الدنيا بطرفي وطرفِها فهل بعدَ هذا من مقالٍ لمشفقِ
ألا ليتنا نعمَى إذا حيلَ بينـنا وتجلّى لنا أبصارُنا حين نلتقي

فهو يتمنى أن يصابا بالعمى ولكن عن غيرهما ، وأن يعـود إليـهما الإبصار كلما التقيا حتى يبصر كل منهما الآخر ، أي أنه يتمنى ألا يـرى في الدنيا سواها ، وألا ترى هي في الدنيا سواه . وهذا فيـه مـا يؤكـد الأنانية في الحب والأثرة فيه .

هذا وقد عاب المرزباني بيت جميل الأخير من جهة أخرى ؛ لأنه مـن المحال أن يكون أصم ثم لا يخفى عليه كلامها، إلا أن يعطى آية في خفـاء كلام الناس عليه وسماع كلامها هي [٢]. وعلى كل حال ما ذكره جميـل هو مجرد أمنية تمناها ، والتمني في اللغة هو طلب شيء بعيد الحصـول ، ولكن مثل هذه الأماني مكروهة في باب النسيب .كما ذكرت قبل ذلك .

- ومن المجالس الأدبية بين الشاعر ومحبوبته ما يروى أنه " دخـل

---

١ - ديوان العباس بن الأحنف - تحقيق : كرم البستاني - دار صادر ، ودار بيـروت - طبعة عام ١٩٦٥ م - ص ٢٢٧ .
٢ - أنظر الموشح ص ٢٥٩ .

كثيرٌ على عزة يوما فقالت : ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس ، فقال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : لأني رأيت الأحوص ألين جانبا عند الغواني منك في شعره، وأضرع خدا للنساء ، وأنه الذي يقول :

يا أيّها اللائمي فيها لأصرمَها ... أكثِرْ لو يغني عنك إكثارُ
أكثِرْ فلست مطاعاً إذا وشيتَ بها ... لا القلبُ سالٍ ولا في حبّها عارُ

ويعجبني قوله :

أدورُ ولولا أن أرى أم جَعفر ... بأبياتكم ما درتُ حيث أدورُ
وما كنتُ زواراً ولكن ذا الهوى ... إذا لم يَزُرْ لابدَّ أن سيزورُ
لقد منعتْ معروفَها أم جُعفر ... وإني إلى معروفِها لفقيرُ

ويعجبني قوله :

كم من دنيٍّ لها قد كنتُ أتبعُه ... ولو صحا القلبُ عنها كان لي تبعا
لا أستطيعُ نزوعًا عن محبتها ... أو يصنعُ الحبُّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزَعا

وقوله :

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهي ... وإن لام فيه ذو الشنانِ وفنَّدا
وإني لأهواها وأهوَى لقاءَها ... كما يشتهي الصادي الشرابَ المبَرَّدا
علاقةَ حبٍّ لجَّ في سنن الصبا ... فأبلى وما يزدادُ إلا تجدُّدا

فقال كثيِّر : قد والله أجاد . فما استقبحت من قــولي ؟ قــالت :

قولك :

| | |
|---|---|
| وكنتُ إذا جئتُ أجللــنَ مجلســي | وأظــهرْنَ مــني هيبــةً لا تجــهُّما |
| يحاذِرْنَ مني غـــيرةً قــد عرفنَــها | قديماً فــلا يضحكْــنَ إلا تبسُّــما |
| تراهــنَّ إلا أن يخالسْــنَ نظــرةً | بمؤخــر عــينٍ أو يقلِّــبْنَ معصَمــا |
| كواظــمَ لا ينطقــنَ إلا محـــورةً | رجيعــةَ قــولٍ بعــد أن يتفــهما |
| وكنَّ إذا ما قُلْــنَ شــيئًا يســره | أســرَّ الرضــا في نفســه وتجرَّمــا |

وقولك :

| | |
|---|---|
| وددتُ وبيــتِ الله أنــك بكــرةٌ | هجــانٌ وأني مصعَــبٌ ثم نهــرُبُ |
| كلانا به عــرٌّ فمــن يرنَــا يقُــلْ | على حسنها جرباءُ تعدى وأجــرَبُ |
| نكونُ لذي مــالٍ كثــير مغفَّــلٍ | فلا هو يرعانــا ولا نحــنُ نطلَــبُ |
| إذا ما وردنا منهلاً صــاح أهلــه | علينا فما ننفك نــؤذى ونضــرَبُ |

ويحك ! لقد أردت بي الشقاء ، أفما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ فخــرج خجلا "[1].

والحوار في هذا المجلس يشير إلى ملحظ نقدي مهم حــول شــعر الغزل، وهو أنه يجب على الشاعر أن يكون همه في غزله أن يتحدث عــن

---

١ - زهر الآداب ١ / ٣٥٠ ، وانظر الأغاني ١٢ / ١١٥ .

فتاته لإبراز جمالها ، وللإعراب عن تمالكه في حبه لها ، وعن شدة شـــوقه إليها وإلى معاهدها ، وعن هيامه بها وبكل ما يتصل بها ويقربـــه إليـــها ، ويديم المودة بينه وبينها . وينبغي عليه أن يبتعد في الوقت نفسه عن كل ما يسيء إليها ، وعن كل ما لا يليق بالمحبوب ، ولا يتناسب مع حياة الحـــب والهوى. وقد تحقق هذا كله في شعر الأحوص الذي ذكرته عزة وأبـــدت إعجابها به بعد أن أبانت سبب إعجابها بشخصه هو ، وهو أنه ألين جانبـــا عند الغواني في شعره ، وأضرع خدا للنساء حسن التودد إليهن .

أما كثيِّر فقد جعل حديثه في شعره الأول حديثا عن نفسه هو وعـــن إجلال الفتيات له ، وهيبتهن منه ، وخوفهن من تجهمه وعبوسه ؛ لدرجـــة أنهن لا يجرؤن على النطق بحضرته إلا بالجواب على ما يوجهه إليهن مـــن أسئلة ، ولا ينظرن إلى شيء في وجوده إلا خلسة ، وهذا كله عكس مـــا تحبه المرأة في فتاها . ومن هنا استقبحت عزة هذا الشـــعر مـــن كثـــير ، وأعلنت رفضها له .

أما في النموذج الثاني من شعر كثير فقد تمنى فيه لنفسه ولفتاته أمنية تدل على فحش ذوقه ودنو نفسه . وقد عبرت عن ضيقها بهذه الأمنيـــة فقالت له : " ويحك ! لقد أردت بي الشقاء ، أفما وجدت أمنية أوطأ مـــن هذه ؟ " . فعزة هنا تشير إلى أنه ينبغي أن يكون أساس العلاقة بين الرجـــل

والمرأة هو اللين والمودة وإظهار التودد والضراعة من جـــانب الرجـــل ، وليس الجفوة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة ، وأن يحرص الشاعر علـــى أن يظهر هذه المعاني في شعره في الغزل . وقد عرفنا قبل ذلك أن النقاد لا يرضون بالغزل الذي يحمل من الأمنيات ما لا يليق بالشاعر ومحبوبته .

– ومن هذه المجالس ما ذكره المرزباني قال : دخلت يوما عزة علـــى كثيِّر متنكرة فقالت : أنشدني أشد بيت قلته في عزة ، قال : قلت لها :

وجدتُ بها وجدَ المضلِّ قلوصَه   بمكةَ والركبانُ غـــادٍ ورائحُ

قالت : لم تصنع شيئا ، قد يجد هذا ناقة يركبها ، فأطرق ثم قال :

وجدتُ بها ما لم يجدِ ذو حرارةٍ   يمارسُ جماتِ الركى النوازح [1]

فقالت : لم تصنع شيئا ، يجد هذا من يسقيه ، فأطرق ثم قال :

وجدتُ بها ما لم تجد أمُّ واحدٍ   بواحدها تطوَى عليه الصفائحُ

فضحكت ثم قالت : إن كان ولا بد فهذا " [2].

والخبر يدلنا على أنه يجب على الشاعر في الغزل أن يعبر عن شـــدة حبه لمن يتغزل بها ، وأنه لا يجد في هذه الدنيا ما يغنيه عنها ؛ فالمرأة تريـــد

١ – جمات : جمع جمة وهو الماء ، والركية : البئر .
٢ – الموشح ٢٠١ .

ممن يتعلق بها أن يرفع من قيمتها لديه ومن منزلتها في قلبه ، وأن يثبت لها شدة هيامه بها ، وتولهه بحبها ؛ حتى تحس بعدم وجود ما يغنيه عنها . ولا بوجود ما يحل بقلبه محلها . فلما شبه كثيِّر وجده بعزة بوجد من ضلت ركائبه بمكة وقد حان وقت الرحيل ، لم تقنع بهذا وقالت : إن هذا التشبيه لا يؤدي المعنى السابق ؛ لأن هذا قد يجد من يركب معه على مطيته . كذلك لم تقنع بوجده بها حين شبهه بوجد الظمآن الشديد الحاجة إلى الماء ليطفئ به حرارة ظمأه وهو لا يجده ، وقالت له : لم تصنع شيئا ؛ لأن هذا لا يعدم من يسقيه . فهي تريد منه أن يعبر عن قمة احتياجه إليها ، وأن يدلل على أن حاجته إليها لا يمكن أن يغني عنها غير وجودها هي ، ومن هنا رضيت عن قوله بأنه يجد بها وجد الأم التي فقدت وحيدها وطويت عليه الصفائح ، فلا يوجد هناك شيء يعوضها عنه ولا يحل محله في نفسها.

وهذا هو ما عبر عنه النقاد حينما طالبوا الشاعر في الغزل أن يكون غزله دالا على الوجد واللوعة وشدة العشق ، حتى لا يحس بطيب العيش بدونها ، وأن المحب باق على الحب مهما كانت الأحوال ، والرضا بهذه العاطفة مهما قاسى من ضنى وعذاب لعدم قدرته على نسيانها أو التسلي عنها بشيء غيرها .

- ومن المجالس الأدبية التي دار الحوار فيها بين الشاعر وأحد أبنائه، ما جاء في الأغاني أنه نوح بن جرير قال لأبيه : يا أبت : من أنسب

الشعراء ؟ قال له : أتعني ما قلت ؟ قال : إني لست أريد من شعرك ، إنما أريد من شعر غيرك ، قال : ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياءُ وأنَّ رأسي قد عسا   فيه المشيب لزرتُ أمَّ القاسم
وكأنها وسطَ النساءِ أعارَها   عينيه أحورُ من جآذرِ جاسم
وسنانُ أقصده النعاسُ فرنقت   في عينهِ سِنَةٌ وليس بنائم

ثم قال لي : ما كان يبالي أن لم يقل بعدها شيئا "[1].

وهذه شهادة من جرير بإجادة عدي بن الرقاع وتفوقه على غيره في الغزل في هذه الأبيات؛ حيث أجاد وصف المحبوبة حينما شبهها بالظبي ، وشبه عينيها بعيني الجؤذر ، وكل ذلك مع المحافظة على العفة وصون الحرمات .

- ومن مجالس الشعراء مع أحد العلماء غير المشتغلين بالأدب وروايته ما يروى عن عبد الله بن عباس مع الشاعر عمر بن أبي ربيعة وشعره ، فقد روي أنه " بينما ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق ، وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أمن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكرُ   غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجرُ

---

١ - الأغاني ٩ / ٣٠٧ .

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال : الله يــــا ابــــن عباس ، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتشاغل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك :

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت فيخــزى وأما بالعشيِّ فيخسَرُ

فقال : ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ فيضْــحَى وأما بالعشيِّ فيخَصَرُ[1]

فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجــــل ، وإن شــئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حــتى أتى على آخرها "[2].

والخبر يدل أولا على أن شعر عمر بن أبي ربيعة كان يأخذ بألبــــاب وقلوب الناس حتى الزهاد والعباد والفقهاء منهم ، حتى إنه ليلهيهم عــــن عبادتهم وفقههم ونسكهم في بعض الأحيان . وفي هذا ما يؤيد صدق ابــن أبي عتيق في قوله عن شعر عمر : " لشعر عمر بن أبي ربيعة لوطة بـالقلب، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ... وما عصي الله بشعر قط أكــــثر ممــا عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة " [3].

١ - عارضت : قابلت ، يضحي : يظهر للشمس ، يخصر : يبدد .
٢ - الأغاني ١ / ٨١ ، وانظر الكامل للمبرد ٣ / ٢٢٨ .
٣ - أنظر : زهر الآداب ١ / ٢٣٨.

ويؤيد هذا أيضا ما رواه الأصفهاني أن ظبية مولاة فاطمة بنت عمر ابن مصعب قالت : " مررت بجدك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر : فقال : ما هذا الذي معك ؟ ودعاني ، فجئته وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة ، فقال : ويحك ! تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة ! إن لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به ، قالت : ففعلت " [1].

وقد رأينا كيف انشغل ابن عباس بشعر عمر عما كان فيه من تفسير وفقه وعبادة ، كما أن نافع بن الأزرق — وإن كان قد أنكر على ابن عباس انشغاله عنه وعن رفقائه بشعر عمر — إلا أن ذلك كان في الظاهر ؛ بدليل أنه طلب من ابن عباس أن ينشده القصيدة كلها .

أما عن الفرق بين رواية ابن عباس ، ورواية نافع بن الأزرق للبيت المذكور فواضح ؛ فابن الأزرق أراد بروايته البيت هكذا :

رأت رجلا أما إذا الشمسُ عارضتْ فيخزَي وما بالعشيّ فيخسَر

أن يثبت على الرجل عصيانه ووقوعه في الخزي نهارا وفي الخسران ليلا . أما ابن عباس براويته للبيت هكذا :

رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت فيضحَى وأما بالعشى فيخصَر

---

١ – الأغاني ١ / ٨٦ .

فأراد أن يبعد به عن الخزي والعصيان ، ويصفه فقط بأنه يتحمل حر الشمس نهارا وبرد الجو ليلا في سبيل الظفر بمن يحب .

وفي هذا المجلس — على فرض — صحته — نجد ابن عباس — هذا العالم الورع — نظر إلى شعر عمر على أنه زاد فني ، وخيال شعري ، ولهو بريء . ورأي أن رواية هذا الشعر لا تسئ إلى ابن عباس، ولا تمس مكانته الدينية ، ولا تقلل من سمو نفسه ومكانتها عند من لا يعميهم التعصب ، ولا تمنعهم غلظة مشاعرهم عن تذوق الفن البريء . فالدين لا يقف حائلا بين المؤمن الورع العالم ، وإدراك وتذوق الجمال ، وتأمل إتقان صنعة الخالق ﷻ من خلال الاستماع إلى شعر الغزل ، وتأمل معاني الجمال في بعض أوقات الراحة والاستجمام .

هذا وهناك من يتشكك في صحة هذه الرواية ، بل وينكرها . ومن هؤلاء الدكتور أحمد بدوي الذي يرى أنها موضوعة للدفاع عن عمر بن أبي ربيعة وشعره من ناحية ، وللتدليل على ذكاء ابن عباس من ناحية أخرى. وحجته في ذلك ما يلي :

أولا : يقول إنني أستبعد على ابن عباس — وهو من حملة هذا الدين الجديد — أن يستحسن شعرا يعترف فيه صاحبه بارتكاب منكر لا يقره الدين . لأن عمر جاء في هذه القصيدة بعدة أبيات توحي بارتكابه ما

يخالف ما جاء به الدين الإسلامي .

وثانيا : ما في القصة من تكلف واضح يتجلى في نسبة التشاقل إلى ابن عباس في بيان الحلال والحرام لقوم يضربون إليه أكباد الإبل من أقاصي البلاد . لأني أربأ بابن عباس أن يكون مغرورا بعلمه ، أو معجبا بنفسه ، أو مقصرا في تبليغ أمانة العلم لمن يطلب منه إيضاح الحلال والحرام .

ويتجلى في أن نافع بن الأزرق يكذب فيحرف الكلم عن مواضعه ، وينشد البيت محرفا أمام صاحبه الذي أنشأه ، وأمام ابن عباس الذي سمعه. وأكبر الظن أن نافعا كان أشد لباقة من أن يورط نفسه في مثل هذا الكذب والادعاء وهو يعلم أنه سيكذب فيما يقول .

وليس هذا البيت أشد أبيات القصيدة إمعانا في التهتك والخلاعة حتى يعترض به نافع على ابن عباس في الإصغاء إليه . بل إن فيها ما هو أشد إمعانا في الخلاعة . وكان الأجدر بنافع إذا كان قد اعترض أن يعترض به ليبين لابن عباس أنه قد تورط في الإصغاء إلى الفجور .

ويتجلى في أن الشاعر قد اختفى من الميدان عقب إنشاده قصيدته ، وكان الأولى به أن يدافع عن نفسه لولا أن القصة قد وضعت للإشادة بذكاء ابن عباس . وقد تكلف الواضع في بيان هذا الذكاء حين وضع

على لسان ابن الأزرق هذا السؤال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! بعد أن أنشده ابن عباس ، وأنشده محرفا نافع بن الأزرق . ثم في هذا اللعب الصبياني من ابن عباس في إنشاده القصيدة من أولها إلى آخرها[١].

وأنا أكتفي بالشك فقط في هذه القصة شكا لا يصل إلى درجة الإنكار . أكتفي بالشك لما فيها من تصوير ذكاء ابن عباس تصويرا خارقا للعادة في حفظه للقصيدة كلها لمجرد سماعه لها مرة واحدة واستعداده لإنشادها من أولها إلى آخرها ، بل ومن آخرها إلى أولها مقلوبة كما جاء في بعض الروايات . ثم لما فيها من اختفاء الشاعر من الميدان عقب إنشاده القصيدة ، وكان الأولى به أن يدافع عن نفسه وقصيدته .

أما عدم إنكاري لهذه القصة فلأنه ليس هناك ما يدعو إلى إنكارها جملة . وما ذكره الدكتور أحمد بدوي كحجة لإنكارها يمكن الرد عليه بما يلي :

أولا : أن سماع ابن عباس واستحسانه لهذه القصيدة على ما فيها من اعتراف صاحبها بارتكاب منكر لا يقره الدين أمر ليس مستغربا ولا جديدا ؛ فكثيرا ما أنشد الشعراء أشعارا يعترفون فيها بارتكاب ما لا يقره الإسلام ؛ فيتحدثون عن تجرعهم للخمر ، ويذكرون من معاني الغزل

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٣٩٩ : ٤٠١ بتصرف

والحب والمغامرات النسائية ما يجعلهم — إن كانوا صـــادقين ، أو كـــان شعرهم واقعيا — بعيدين تماما عن الإسلام إن لم يكونوا خارجين عنـــه ، ومع ذلك يقرأ هذا الشعر كل إنسان ولو كان عالما من علماء الديـــن ؛ لأنهم يعلمون أن الشعراء كثيرا ما يقولون ما لا يفعلـــون ، كمـــا ورد في القرآن الكريم . ويمكن أن يكون ما ورد في قصيدة عمر من هذا القبيل .

أما ما ذكره الدكتور أحمد بدوي من تثاقل ابن عباس عن نافع بـــن الأزرق ومن معه ، وانشغاله بالقصيدة عن بيان الحلال والحرام يمكـــن أن نفسره بأنه ليس تثاقلا بالمعنى الحقيقي للتثاقل ، وإنما يمكن أن يفسر بـــأن ابن عباس رغب فقط في الاستجمام وأخذ بعض الوقت لإراحـــة عقلـــه وفكره من طول الاشتغال بالعلم ، ورأى في دخول عمر بن أبي ربيعة عليه فرصة للاستماع إلى بعض شعره وقضاء بعض الوقت في الراحة واللـــهو البريء.

وأما عن تحريف نافع في إنشاده البيت برواية تخالف رواية الشـــاعر ورواية ابن عباس فليس فيه ما يدل على تكلف القصة وعدم واقعيتـــها ؛ فتحريف بيت كهذا ليس مستغربا من إنسان كنافع لا يشتغل بـــالأدب والشعر ، فيمكن أن يكون نافع سمعه فعلا هكذا ولم يقصد التحريف فيـــه أو إنشاده بطريقة تخالف الشاعر وابن عباس . بل إن رواية نافع للبيـــت

هكذا أمام الشاعر وأمام ابن عباس لدليل على عدم قصده التحريف ، وأنه فعلا سمع البيت هكذا أو فهمه بهذا المفهوم ؛ لأنه يعلم تماما أنه سيكذب فيما يقول ، وبالتالي لا داعي لهذا التحريف إن كان يعلم الرواية الصحيحة للبيت .

– أما عن المجالس الأدبية التي عقدت بين الشاعر وبعض أبناء المجتمع من العامة ، فمنها ما رواه صاحب زهر الآداب قال : " قال عثمان بن إبراهيم حججت أنا وأصحاب لنا . فلما رجعنا من مكة مررنا بالمدينة ، فرأينا عمر بن أبي ربيعة وقد نسك وترك قول الشعر . فقال بعضنا لبعض : هل لكم فيه ؟ فملنا إليه وسلمنا عليه وجلسنا وهو ساكت لا يكلمنا . فقال له بعضنا : أيعجبك قول الفرزدق :

سَرَتْ بعينك سلمى بعد مغفاها … فبتَّ مستلهباً من بعد مَسْرَاها
فقلتُ أهلا وسهلاً من هداكِ لنا … إن كنتِ تمثالها أو كنتِ إياها
تأتي الرياحُ التي من نحو بلدتكم … حتى نقولَ دنتْ منا برَيّاها
وقد تراخت بهم عنا نوىً قذفٌ … هيهاتَ مصبحُها من بعد ممساها
من أجلها أتمنَّى أن يلاقيَني … من نحو بلدتها ناعٍ فينعاها
كيما أقولَ افتراقٌ لا اجتماعَ له … وتضمر النفسُ يأساً ثم تسلاها
ولو تموتُ لراعتني وقلتُ لها … يا بؤس للدهرِ ليت الدهرَ أبقاها

فلم يهش لذلك . فقال الآخر : أيعجبك قول العذري :

لو حُزَّ بالسيفِ رأسي في مودتها ... لمرَّ يهوي سريعاً نحوها راسي
ولو بَلَى تحت أطباقِ الثرى جسدي ... لكنتُ أبلَى وما قلبي لكم ناسي
أو يقبضُ اللهُ روحي صار ذكركمو ... روحاً أعيشُ به ما عشتُ في الناسِ
لولا نسيمٌ لذكراكم يروِّحُني ... لكنتُ محترقاً من حرِّ أنفاسي

فتحرك ثم قال : يا ويحه ! أبعد ما يحز رأسه يميل إليها "[١].

والرواية تدلنا على أصل من الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها شعر الغزل ؛ إذ ينبغي على الشاعر في غزله أن يظهر تمالكه في حبه ، وأن يبرز نفسه في مظهر المحب المعذب الذي أضناه الحب وأهلكه ، وألا يظهرها بمظهر الكبرياء أو المستغني عن حبها .

فالفرزدق لم يعبأ بفتاته أو بطيفها حينما سرى إليه وبات متلهيا عنه، ولم يزد عن ترحيبه بها ، بل وتوجه إليها بسؤال ما كان ينبغي أن يصدر منه إليها وهو قوله : ( من هداك لنا ) ؟. ثم تطير عليها وتمنى — بطول فراقها له — أن يصل إليه من بلدها نا ع فينعاها إليه . ولهذا كله لم يحفل عمر بن أبي ربيعة بهذا الشعر ولم يهش له .

أما العذري فقد أظهر تمالكه في حبه ، وأفصح عن عدم استعداده للنسيان أو التسلي . ولو حزت رأسه بالسيف ليقلع عن مودتها وحبها

١ – زهر الآداب ٢٥٤/١ ، واقرأ الأغاني ١٧٢/١ ، والأمالي ٤٨/٢ .

فسوف تهوى رأسه مسرعة إليها . وحتى لو مات وأبلى الثرى جسده لظل قلبه حيا ينبض بذكرها . ولو قبض الله روحه لصار ذكراها روحا يعيش بها بين الناس . فلقد تحول حبها في جسده إلى نار يحترق بها ، وما يقلل من آلامه بهذه النار سوى نسيم ذكراها الذي يتروح به . لهذا كله أعجب عمر بهذا الشعر وهش له .

– ومن هذا اللون من المجالس ما ذكره الأصفهاني " من أن نصيب الشاعر أتى مكة ، فأتى المسجد الحرام ليلا . فبينا هو كذلك إذ طلع ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه ، وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء . وإذا هن من أفصح النساء وآدبهن . فقالت إحداهن : قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصفا والمروتين ذكرتكُمُ ... بمختلفٍ ما بين ساعٍ وموجف
وعند طوافي قد ذكرتكِ ذكرةً ... هي الموتُ بل كادت على الموتِ تضعف

فقالت الأخرى : بل قاتل الله كثيِّراً عزة حيث يقول :

طلعْنَ علينا بين مروةَ والصَّفا ... يمرن على البطحاء مورَ السحائب [1]
فكدن لعَمْرُ اللهِ يحدثنَ فتنةً ... لمختشعٍ من خشية الله تائبِ

فقالت الأخرى : قاتل الله ابن الزانية نصيبا حيث يقول :

ألامَ على ليلى ولو أستطيعها ... وحرمةِ ما بين البَنيةِ والستر

---

١ – يمرن : يتمايلن جانبات ذاهبات

لملتَ على ليلــى بنفسِيَ ميلةً ولو كان في يومِ التحالقِ والنحرِ

فقام نصيب إليهن فسلم عليهن فرددن عليه السلام . فقــال لهــن : إني رأيتكن تتحادثن شيئا عندي منه علم . فقلن : ومن أنت ؟ فقال : اسمعــن أولا . فقلن هات . فأنشدهن قصيدته التي أولها :

ويومَ ذي سلمٍ شاقتك نائمةٌ ورقاءُ في فننٍ والريحُ تضطربُ

فقلن : نسألك بالله وبحق هذه البنية من أنت ؟ فقال : أنا ابن المظلومــة المقذوفة بغير جرم ( نصيب ) ، فقمن إليه فسلمن عليــه ورحــبن بــه، واعتذرت إليه القائلة ، وقالت : والله ما أردت ســوءاً ، وإنمــا حملــني الاستحسان لقولك على ما سمعت . فضحك وجلس إليهن . فحادثهن إلى أن انصرفن "[١].

والغزل الذي تردد في هذا المجلس جاء متمشيا مع ما تميــل إليــه المرأة وتحبه ويتفق مع طبيعتها الأنثوية من حديث الغزل ، وما ترغب فيــه من إظهار تعلق الرجل بها وارتفاعه بدرجة جمالها ، والحديث عن دلالهــا ، وشغفه بلقائها. ولهذا نالت هذه الأبيات استحسان هؤلاء النسوة فــأبدين إعجابهن بها .

- ومن هذه المجالس أيضا ما ذكره المرزباني أن رجلا من بني عــامر

---

١ - الأغاني ٣٥٤/١

ابن لؤي قال: حدثني كثيِّر أنه وقف على جماعة يفيضون فيه وفي جميل أيهما أصدق عشقا — ولم يكونوا يعرفونه بوجهه — ففضلوا جميلا في عشقه فقلت لهم : ظلمتم كثيِّرا . كيف يكون جميل أصدق عشقا من كثيِّر ، وإنما أتاه عن بثينة بعض ما يكره فقال :

رمى الله في عيني بثينةَ بالقَذى وفي الغرِّ من أنيابها بالقوادح[1]

وكثيِّر أتاه عن عزة ما يكره فقال :

هنيئــاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامرٍ لعزةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

قال ( كثيِّر ) : فما انصرفوا إلا على تفضيلي "[2].

وهذا المجلس يوضح لنا كيف تكون العلاقة بين المحب ومحبوبته . فينبغي أن يتمنى المحب السلامة والخير لمحبوبته حتى ولو بلغه عنها ما يكره. ويكون هذا دليلا على صدق عشقه لها وتعلقه بها وقد فعل كثير هذا حينما شتمته عزة أو بلغه عنها ما يكره ؛ فدعا لها بالخير وابتعاد المكروه عنها . ولذلك كان بيته أفضل في الدلالة على صدق العشق والمودة من بيت جميل الذي بادل فيه فتاته سبا بسب وشتما بشتم . فكان بيته دليلا على عدم صدقه في الحب والمودة بينه وبينها .

---

١ – القوادح : المعايب .
٢ – الموشح ٢٥٨ .

وقد عرفنا قبل ذلك أن المقياس الأول والأساس في الحكم على النسيب بالجودة هو " أن النسيب يكون قويا إذا عبر عن إحساس صادق يشعر به من أحس بعاطفة الحب حقا ".[1]

كما سبق أن عرفنا أنه من غير اللائق في شعر الغزل أن يتمنى الشاعر له ولفتاته شيئا من الأمنيات المكروهة أو القبيحة . وعليه أن يظهر شدة تعلقه بها ، وقوة تمسكه بحبها مهما قاطعته أو تدللت عليه .

وهكذا — ومن خلال المجالس الأدبية المذكورة — وضع الناقدون في هذه المجالس الكثير من الأصول النقدية حول شعر الغزل وتقويمه ، وأهم الأسس التي يقوم عليها نقده ، وذكروا له العديد من السمات التي تجعل منه فنا جيدا مستقيما .

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب – د / أحمد بدوى ١٤١ .

# الفصل الثالث

## المجالس الأدبية حول شعر الوصف ونقده

الوصف : ( هو الكشف والإظهار ... فهو نظير الرسم والتصوير. يعتمد على الخيال وصدق التعبير . والعاطفة الأساسية التي تنشئ الوصف هي الإعجاب والروعة بما يشهده الأديب ، فيفسره تفسيرا خاصا متـأثرا بمزاجه ووجهة نظره ، ويخلع عليه من نفسه تفاؤلها أو تشاؤمها ، إكبارهـا أو ازدراءها ) [١].

وعرف قدامة بن جعفر الوصف بأنه ( ذكر الشيء كما فيـه مـن الأحوال والهيئات ) [٢].

ويكاد يجمع النقاد على أن أجود الوصف هو ما نعت به الشـيء ، وحكي فيه الموصوف حتى يكاد يمثله عيانا للسامع ، وأحسـن الشـعراء وصفا هو من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف بها مركب منها ، ثم بإظهارها فيه وأولاها به حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته [٣]. ولذلك قال بعضهم : " أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا " [٤]. وذكر أبو هلال

---

١ – الأسلوب – د / أحمد الشايب ٩٠ .
٢ – نقد الشعر ١٣٠ .
٣ – أنظر : نقد الشعر ١٣٠ ، والعمدة ٢ / ٢٩٤ .
٤ – العمدة ٢ / ١٩٥ .

العسكري أن أجود الوصف هو " ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك " [١].

وذكر النقاد أن الشاعر كلما أجاد في رسم صورة الموصوف كلما بلغ الغاية في هذا اللون من الشعر . على أنه ينبغي ألا يقف الشاعر عند حدود التصوير أو رسم الصورة الموجودة فقط ، وإنما عليه أن يصور للقارئ إحساساته وعواطفه إزاء الموصوف . وتختلف مواهب الشعراء في الوصف ويتفاضلون في هذا الفن ، كما يتفاضلون في موضوعات الشعر الأخرى ، ومنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد الشعر في الموصوفات كلها ، وإن أبدى تفوقا في وصف بعضها عن الآخر كامرئ القيس ، وأبي نواس ، والبحتري ، وابن الرومي ،وابن المعتز ، وكشاجم [٢].

وقد عدد ابن رشيق طائفة من الشعراء أجاد كل منهم وصف شيء وبرع واشتهر به ، كامرئ القيس في وصف الإبل ، وطرفة بن العبد في وصف الإبل ، والشماخ في وصف الحمر الوحشية والقسي ، والأعشى في وصف الخمر ، وابن المعتز وأبي نواس في وصف الصيد والطرد [٣].

ويختلف الأسلوب في شعر الوصف حسب اختلاف نوع الموصوف :

---

١ – الصناعتين ١٢٨ .
٢ – أنظر العمدة ٢ / ٢٩٥ .
٣ – انظر المرجع السابق ٢٩٦ .

" فوصف الحسيات غير وصف المعنويات ، ووصف الحروب يختلف عن وصف المناظر الجميلة ، ولغة الأصوات المدوية ، تغاير لغة الألوان الزاهية"[١].

وينبغي أن يكون أسلوب الوصف جزلا قويا موحيا بجو الرعب والفزع في وصف الحروب وكوارث الطبيعة وحوادثها المفزعة ، وأن يكون رائعا جذابا موحيا بجو الهدوء والجمال في وصف الكواكب والأزهار ومشاهد الطبيعة النباتية ، ولينا سلسا في وصف العواطف الرقيقة حبا وعتابا واعتذارا ولهوا وطربا [٢].

ولما كان الشاعر يعتمد في باب الوصف على التشبيه كثيرا في تصوير الموصوف وتمثيله جعل بعض النقاد التشبيه بابا من أبواب الشعر عند العرب ، وتحدث عنه كما تحدث عن باقي أبواب الشعر ، فتحدث عن معناه وعما يستحسن فيه ، وذكر في ذلك العديد من الأمثلة [٣]، "ولكنا — مع تسليمنا بقوة التشبيه وأثره في البلاغة وحسن البيان — نأخذ عليه أن التشبيه لا يقصد لذاته ، وليس هو بابا مستقلا عن باقي أبواب الشعر ، ولكن الشاعر يلجأ إليه ليزيد المعنى وضوحا ، ويؤثر في العاطفة

---

١ – الأسلوب ٩٠ .
٢ – انظر الأسلوب ٩٠ .
٣ – انظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ١٢٤ وما بعدها .

تأثيرا بينا ، والشاعر يستخدمه في كل أغراض شعره وليس ثمة غــرض لا يمكن أن يستعان فيه بالتشبيه "[١].

ولذلك فإن ابن رشيق قد حقق الصواب حينما فرق بين التشـــبيه والوصف ، فذكر أن التشبيه إخبار عن حقيقة الشيء ، والوصف مجـــاز وتمثيل [٢].

ومن الملاحظ أن الوصف في الشعر العربي يتأثر إلى حد كبير بالبيئــة التي يعيش فيها الشاعر ، وأن الشاعر غالبا ما يصف ما يتناسب مع زمنــه وبيئته ، وفي ذلك يحكي عن الكميت أنه قال : " لما قدم ذو الرمة الكوفـة أتيته فقلت له : إنني قد قلت قصيدة عارضت بها قصيدتك :

ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكِبُ     كأنــه من كُلًّـى مفرية سربُ

فقال لي : وأي شيء قلت ؟ قال : قلت:

هل أنتَ عن طلب الأيفاعِ منقلبُ     أم كيف يحسُن من ذي الشيبةِ اللعبُ[٣]

حتى أنشدته إياها فقال لي : ويحك ! إنك لتقول قولا مـــا يقـــدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فـــلا

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٢٨٢ .

٢ – العمدة ٢ / ٢٩٤ .

٣ – الأيفاع : المراهقة ومناهزة البلوغ .

تجيء به ولا تقع بعيدا منه ، بل تقع قريبا ، قلت له : أو تدري لِمَ ذلك ؟ قال : لا ، قلت : لأنك تصف شيئا رأيته بعينك ، وأنا أصف شيئا وصف لي ، وليست المعاينة كالوصف ، قال : فسكت "[1].

والخبر بجانب دلالته على تأثر الشاعر في الوصف بالبيئة التي يعيش بها إلى حد كبير ، فإنه يدل على أهمية اعتماد شعر الوصف على المعاينة والمشاهدة ،وأنه كلما كان وصف الشاعر معتمدا على المرائي والمناظر التي تقع عليها عينه كلما كان أصدق وصفا وأدق تصويرا .

هذا وقد احتفظت كتب التراث الأدبي بالعديد من المجالس الأدبية التي عقدت في العصر الأموي وكان موضوع الحديث فيها هو شعر الوصف وما يتعلق به من تقويم ونقد . وحظي وصف الأطلال ، ووصف الناقة خاصة بالنصيب الأكبر من هذه المجالس .

### أ — ومن المجالس التي كان الحوار فيها حول وصف الأطلال

ما روي أنه ذكر شعر عمر بن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد المخزوميين بحضرة ابن أبي عتيق . فقال رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة : صاحبنا الحارث أشعر ، فقال ابن أبي عتيق : دع قولك يا ابن أخي: فلشعر عمر بن أبي ربيعة لوطة بالقلب ، وعلق بالنفس ، ودرك

---

١ – الأغاني ١٦ / ٣٥١ ، وانظر الموشح ٢٥٤ .

للحاجة ليست لشعر الحارث ، وما عصي الله بشعر قط أكثر مما عصي بشعر ابن أبي ربيعة ، فخذ عني ما أصف لك : أشعر قريش من رق معناه، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن صاحبه . فقال الذي من ولد خالد بن العاص : صاحبنا الذي يقول :

إني وما نحـرُوا غـداةَ مِـنىً ... عند الجمارِ يئودُهـا العُقْـلُ
لـو بدِّلـتْ أعلـى منازلهـا ... سفلاً وأصبح سفلُها يعلـو
فيكادُ يعرفـها الخبـيرُ بهـا ... فـيرده الإقـواءُ والمحْـلُ
لعرفتُ مغناها بمـا احتملـتْ ... مني الضلوعُ لأهلـها قبـلُ

فقال ابن أبي عتيق : يا ابن أخي : استر على صاحبك ولا تشاهد المحاضر بمثل ذلك ، أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله ؟! ما بقي إلا أن يسأل الله لها حجارة من سجيل وعذابا أليما . ابن أبي ربيعة كان أحسن الناس للربع مخاطبة وأجمل مصاحبة إذ يقول :

سائلا الربـعَ بـالبليِّ وقـولا ... هجتَ شوقًا لي الغداةَ طويـلا
أين أهلٌ حلُّوك إذ أنتَ مسـرو ... رٌ بهـم آهـلٌ أراكَ جميـلا
قال ساروا وأمعنُوا واستقلوا ... وبكرهٍ هي لو استطعتُ سبيلا
سئمونا ومـا سئمنا مُقامـاً ... واستحبوا دماثةً وسهولا [1]

---

١ - زهر الآداب ١ / ٢٣٨ ، الموشح ٢٦٩ ، والأغاني ١ / ١١٣ ، ١١٣ ، والأمالي ٢ / ١٥ .

وفي هذا المجلس وضع ابن أبي عتيق بعض الأسس التي يقـوّم بها الشعر ،وما به يكون الشعر في أحسن أوصافه .

ونلحظ أولا أن ابن أبي عتيق في نقده لشعر عمر بـن أبي ربيعة "استبعد العامل الديني — وهو كونه يعصي الله بشعره — فهو يعلم بـأن شعره من حيث الموضوع قد يدخل تحت طائلة العصيان والمخالفة لأوامـر الدين ونواهيه . لكن هذا مع ذلك لا يسلبه الجمال الفني باعتباره شـعرا له علوق بالقلوب ، لرقة معانيه ،ولطف مدخله ، وسهولة مخارجه ، ومتانة حشوه ، وتعطف حواشيه ، وإنارة معانيه ، وإعرابه عن الحاجة .

ونرى هذه المعاني جميعا تنصب على فن الشعر وأسلوبه من حيـث المعاني الرقيقة والمنيرة ،ومن حيث التعبير وسلاسته ؛ إذ يخرج سهلا مـن اللسان لا تعثر فيه ، فيقع سهلا في الآذان ليلج إلى القلب دون وعـورة أو إغراب ، وهو مع ذلك محكم البناء ، متين الحشو ، تتعاطف أرجاؤه لشدة التصاقها ، فكلامه يأخذ بعضه برقاب بعض "[1].

كما نجد ابن أبي عتيق في هذا المجلس ينتقل بالنقد الأدبي من نقـد المعاني أو الصياغة إلى نقد الشعور والإحساس ، وهذه نقلة نقدية كبـيرة ؛ فنقد الشعور أعمق وأدق في هذا الفن من نقد الصياغة والمعاني ، فـابن أبي

١ – تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، د / محمد زغلول سلام ٩١ .

عتيق يستحسن شعر عمر بن أبي ربيعة لأنه شعر يلتصق بالقلب ويعلق بالنفس ؛ لأنه يتحدث عن الحاجات الوجدانية ، وإن كان خارجا عن حدود اللياقة الدينية . كما أنه شعر رقيق المعاني لطيف المدخل ، لين الحواشي ، متين الحشو ، حسن الانتقال من غرض إلى غرض ، كما أنه شعر يعرب عن صاحبه .

ووصف ابن أبي عتيق لشعر عمر بن أبي ربيعة بأنه شعر يعرب عن صاحبه تمثل رقيا آخر ودقة في النقد الأدبي ؛ فقد اهتدى الناقد الأديب في وقت مبكر إلى أن العمل الأدبي لا ينبغي أن ينفصل عن صاحبه ، وإنما يقوم بالإعراب عنه ويدل عليه ؛ لأن فيه مرائي مشاعره ووجداناته وعواطفه وأفكاره وخيالاته .

كما وضع ابن أبي عتيق من خلال نقده لأبيات الحارث بن خالد مبدأ نقديا آخر وهو وجوب ابتعاد الشاعر عن التشاؤم والتطير في وصفه الأطلال ، وهذا ما نبه عليه النقاد فيما بعد ؛ فالشاعر – كما يقول ابن أبي عتيق – تطير على الديار حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله ، وجعله مقفرا ، فلم يحسن عرض فكرته التي أراد أن يفصح عنها ، فوصف الديار وصفا يحمل التشاؤم والتطير ، وهذا ما عابه النقاد في مثل هذا الموقف .

– ومما يتصل بهذه الحكاية حكاية أخرى وردت في زهر الآداب

ونصها: " دخل مزيد المدني على مولى لبعض أهل المدينة وهو جالس على سرير ممهد ، ورجل من ولد أبي بكر الصديق ، وآخر من ولد عمر — رضي الله عنهما — جالسان بين يديه على الأرض ، فلما رأى المولى مزيدا تجهمه وقال : يا مزيد ، ما أكثر سؤالك ، وأشد إلحافك جئت تسألني شيئا ؟ قال : لا والله ، ولكني أردت أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد :

إنـِّي وما نحروا غداةَ منىً ... عند الجمارِ يئودُها العُقُلُ

لو بـُدِّلتْ أعلى مساكِنِها ... سفلاً وأصبح سفلُها يعلُو

فلما رأيتك ورأيت هذين بين يديك عرفت معنى الذي قال ، فقال: اغرب في غير حفظ الله ، وضحك أهل المجلس "[1].

ومزيد المدني يوجه معنى البيت الثاني من بيتي الحارث إلى ما يراه من استعلاء الموالي واستنزال الأشراف وأبناء كبار الصحابة والخلفاء ، ويعرض بالمخاطب حيث يرى مولى بعض أهل المدينة يجلس على سرير ممهد ، ورجلين أحدهما من ولد أبي بكر الصديق ، والآخر من ولد عمر ابن الخطاب يجلسان بين يديه على الأرض فأشبه ما يراه تبديل أعلى منازل الديار سفلا ، وأسافلها علوا .

١ - زهر الآداب ١ / ٢٣٩ .

- ومن المجالس الأدبية في العصر الأموي حول وصف الأطلال ما جاء في كتاب الأغاني عن عبد الرحيم بن حرملة قال : " كنت عند سعيد ابن المسيب فجاء ابن قيس الرقيات فهش له وقال : مرحبا بظفر من أظفار العشيرة ، ما أحدثت بعدي ؟ قال: قد قلت أبياتا فأستفتيك فى بيت منها فاسمعها ، قال : هات ، فأنشده :

هل للديار بأهلها علمُ   أم هل تبينُ فينطقُ الرَّسمُ
قالت رقيةُ فيم تصرمُنا   أرقيُّ ليس لوجهك الصرْمُ
تخطو بخلخالين حشوُهُما   ساقان مارَ عليهما اللحمُ
يا صاحِ هل أبكاكَ موقفنا   أم هل علينا في البُكا إثمُ

فقال سعيد : لا والله ما أبكاني ، قال ابن قيس الرقيات :

بل ما بكاؤك منزلاً خلقاً   قفراً يلوح كأنه الوشمُ

فقال سعيد : اعتذر الرجل ، ثم أنشد :

أتلبثُ في تكريتَ لا في عشيرةٍ   شهودٍ ولا السلطانُ منك قريبُ
وأنت امرؤٌ للحزم عندك منزلٌ   وللدين والإسلامِ منك نصيبُ

فقال سعيد : لا مقام على ذلك فاخرج منها . قال : قد فعلت ، قال: قد أصبت أصاب الله بك " [1].

---

١ - الأغاني ٥ / ٨١ ، ٨٢ .

ونقد سعيد بن المسيب لأبيات وصف الديار فى هذا المجلس يدلنـــا على أن الشاعر ينبغي إذا تحدث عن الديار وساكنيها أن يظهر شدة لوعته وأسفه لما حدث لها ، وشدة تحسره على فراق أهلها ، وهذا ما لم يلحظـه الناقد في هذه الأبيات ؛ فقول سعيد ( لا والله ما أبكاني ) يوحـي بعـدم إعجابه بحديث ابن قيس الرقيات عن الديار وتقصيره في وصفها ؛ لأنـه لم يظهر شدة لوعته بما حدث لها ولأهلها وشدة تحسره عليها وعليهم .

أما قوله : ( اعتذر الرجل ) فيوحي بتوفيق الشاعر في هذا البيـت وإحسانه في وصف الديار ، والوقوف على أطلالها ، ورضا الناقد عنه .

– ومن المجالس الأدبية التي تناولت بعض شعر جريـر في وصـف الأطلال في مقدمة إحدى قصائده في هجاء الفرزدق مـا رواه صـاحب الأغاني " أن الفرزدق نزل على الأحوص حين قدم المدينـة فقـال لـه الأحوص: ما تشتهي ؟ قال : شواء ، وطلاء [1]، وغناء ، قـال : ذلـك لك، ومضى به إلى قينة بالمدينة فغنته :

| | |
|---|---|
| أَلَا حَـيِّ الديـارَ بسُـعْدَ إني | أحبُّ لحبِّ فاطمـةَ الديـارا |
| إذا ما حلَّ أهلكِ يا سُـلَيْمَى | بدارةَ صلصلٍ شحطوا مـزارا |
| أراد الظـاعنون ليحزنُـوني | فهاجوا صدعَ قلبي فاسـتطارا |

١ – الطلاء : الخمر .

فقال الفرزدق : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها ! قال : أوتدري لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله : قال : فهو لجرير يهجوك به . فقال : ويل ابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري ، وأحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره "[1].

وفي كلام الفرزدق حكم على شعر جرير بالرقة والملاحة ،وحكم على جرير نفسه بالعفة في حديثه عن المرأة . وقد أدرك الفرزدق بحاسته الأدبية أن مجونه وفسقه أولى بهما رقة الشعر التي حرمها هو ورزقها جرير، وأن عفة جرير وبعده عن الفجور والتعهر أولى بهما صلابة الأسلوب وهي الصلابة التي رزقها الفرزدق وحرمها جرير .

– ومن هذه المجالس أيضا ما روي من أن الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر – وكانت موصوفة بالجمال – تزوجت سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فنقلها إلى مصر ، فقال عمر بن أبي ربيعة يشير إلى زواجها :

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً  عمركَ اللهُ كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقلّتْ  وسهيلٌ إذا استقلَّ يماني

فمات عنها سهيل أو طلقها . فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك

---

١ – الأغاني ٨ / ١١ .

وهو خليفة تطلب في دين عليها . فبينا هي عند أم البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليد ، فقال : من هذه عندك ؟ قالت : الثريا . جاءتك تطلب في دين ارتكبها . فأقبل الوليد عليها فقال : أتروين من شعر عمر شيئا ؟ قالت : نعم ، أما إنه رحمه الله كان عفيفا عفيف الشعر . أروي له قوله :

ما على الرسم بالبلَّين لو بيـ ... ـيَنَ رجع السلام أَوْلَوْ أجابا

فإلى مصرَ ذي العشيرة بالصا ... ئف أمسى من الأنيس يبابَا

وبما قد أرى به حيَّ صدقٍ ... طاهري العيش نعمةً وشبابا

وحساناً جواريَاً خفراتٍ ... حافظاتٍ عند الهوى الأحسَابا

لا يكثِّرنَ بالحديث ولا يتْـ ... ـبعن ينعقْنَ بالبهام الظِّرابا [1]

فلما خلا الوليد بأم البنين قال : لله در الثريا ! أتدرين ما أرادت بإنشادها ما أنشدت من شعر عمر ؟ قالت : لا ، قال : فإني لما عرضت لها بعمر عرضت لي بأن أمي أعرابية "[2].

---

١ – البهام : جمع بهمة وهو الصغير من أولاد الغنم ، والظراب : الروابي الصغار .

٢ – زهر الآداب ١ / ٢٤٥ بعض التصرف ، واقرأ الأغاني ١ / ٢٢١ وما بعدها. وذكر صاحب زهر الآداب أن أم الوليد هي ولادة ابنة العباس بن جزء بن الحارث ابن زهير العبسي ، وهي أم سليمان بن عبد الملك . وليس هناك امرأة ولدت خليفتين في الإسلام غيرها وغير الخيزران وهي سبية من خرشنة ، ولدت موسى الهادى وهارون الرشيد ابنى المهدى . وثالثهما هى شاهسفرم بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز زوجة الوليد بن عبد الملك . فقد ولدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد المخلوع ، حيث جلس في الخلافة بعد أخيه مدة يسيرة ثم جاء مروان بن محمد فخلعه وولي بعده . انظر زهر الآداب ١ / ٢٤٥ .

والثريا — وهي أديبة ناقدة من أدبيات العصر الأموي تحسن تــذوق الشعر والنظر فيه — اختارت هذه الأبيات من شعر عمر لما لاحظته مــن جمال الحديث عن الديار ، وشدة تحسر الشاعر علــى ماضيــها الآهــل بالحسان من الجواري الخفرات الموصوفات بصفات الجمـــال والـــدلال والأنس والبهاء . وقد قصد الشاعر من الحديث عن نعوتهن بيان شدة مــا أصيب به من لوعة وأسف وحسرة بعد رحيل هؤلاء الجـــواري عنــه ، وفراقهن هذه الديار ، وقوة حنينه إلى زمانهن المنصرم .

وبجانب هذا تدلنا هذه الحكاية على مراعاة الطريقة المثلى في مخاطبـة الملوك ؛ فالثريا أحست بتعريض الخليفة بها وبما قاله عمر بن أبي ربيعة فيها وفي زواجها من سهيل ، فأرادت أن تنتصف لنفسها ، ولكنها تعرف أنهـا تخاطب خليفة المسلمين فأنشدت من شعر عمر ما يفهم منه تعريضها بأمـه الأعرابية التي تزوجت خليفة المسلمين عبد الملك بـــن مــروان دون أن تصرح بذلك فاختارت من الشعر ما حققت به غرضها دون أن تسيء إلى الخليفة بكلامها .

ب — أما عن المجالس الأدبية في العصر الأمـــوي الـــتي دار الحديث فيها حول وصف الناقة وما يتعلق بها فـــهي كثـــيرة ، وكـــانوا يصدرون فيها عن روح تقليدي ، ويحتجون فيها على الشعراء الأمويين بما

قال الجاهليون في الحديث عن الناقة حرصا منهم على استمرار التقـــاليد الجاهلية في هذا المجتمع العربي .

– ومن هذه المجالس ما رواه صاحب الأغاني عن أبي بكر بن نوفـــل قال:" حدثني من سأل النصيب قال : قلت له : يا أبا محجن : بيت قلتـ... نازعك فيه جرير وجميل ، فأحب أن تخبرني أبكم فيه اشعر ... هو؟ قلت : قولك :

أضرَّ بـــها التهجيرُ حتى كأنها   أكبَّ عليها [illegible]

وقال جميل :

أضرَّ بـــها التهجيرُ حتى كأنها   بقايا سلالٍ لم يدعها سلالُها[2]

وقال جرير :

إذا بلغُـــــوا المنازلَ لم تقيَّد   وفي طولِ الكلالِ لها قيودُ

فقال نصيب : قاتل الله ابن الخطفى ما أشعره ! قال : فقال له الرجل : ا... أنت فقد فضلته : فقال : هو ما أقول لك "[3].

وقد اعترف نصيب في هذا المجلس بتفوق جرير عليه وعلى جميـ... وصف الناقة وما أحل بها من تعب ؛ حيث وصفها بأن التعـــب والجـ...

---

١ – الجازر : الذابح ، متعرق : التعرق هو إزالة ما على العظم من اللحم .

٢ – السلال : مرض السل .

٣ – الأغاني ٨ / ٥٨ .

وصلابها إلى الحد الذي لا تحتاج معهما إلى أن تقيد حين يبلغوا بها المنازل بعد طول السير والسفر ؛ فطول الكلال وشدة التعب تحولا إلى قيود تقيد بها هذه الناقة .

أما نصيب فجعل من تعب الناقة وطول التهجير يضربها ويجعلها ناحلة حتى لكأنها ذبحت وأكب عليها من يتزع لحمها عن العظام . أما جميل فذكر أن التهجير والتعب أضرا بهذه الناقة وأضنياها حتى لكأنها أصيبت بداء السل الذي أضعفها وأسقمها . وحين نتأمل وصف كل منهم لهذه الناقة بعد ما حل بها من تعب ومشقة نجد وصف جرير أقوى دلالة على طول السفر ، وما أحل بها نتيجة ذلك من تعب وجهد ومشقة .

– ومن وصف الناقة بالطاعة والانقياد والبعد عن الجموح والنفور، ما جاء في هذا المجلس الذي روي عن الأصمعي وغيره من أنه مر رجل يقال له : رتبيل بذي الرمة وهو ينشد قصيدته البائية في مربد البصرة وحوله جماعة مجتمعة ، فاستمع إليه حتى انتهى إلى قوله في وصف الناقة :

تصغي إذا شدَّها بالكور جانحةً حتى إذا ما استوى في غرزها تثبُ
وثبَ المسجَّحِ من عاناتِ معقلةٍ كأنه مستبانُ الشكِّ أو جَنِبُ [1]

---

١ – تصغي : تميل كأنها تسمع حركة من يريد شد الرحل عليها ، الكور : الرحل ، جانحة : مائلة ، الغرز : سير الركاب توضع فيه الرجل عند الركوب ، المسجح : الحمار المكدم ، عانات : جمع عانة وهي القطيع من حمر الوحش ، معقلة : موضع بالدهناء ، جنب : الذي يشتكي جنبه .

فقال له الرجل : يا أخا بني تميم : ما هكذا قال عمك، قـال : وأي أعمامي يرحمك الله ؟ قلت : الراعي ، قال : وما قال ؟ قال : قوله :

ولا تُعجِلُ المرءَ عنـد الـورو ... كِ وهـي بركبتـه أبصَـرُ
وهـي إذا قـامَ في غرزهـا ... كمثـل السـفينةِ أو أوقَـرُ
ومصغيـة خدَّهـا بالزمـا ... م فـالرأسُ فيـها لـه أصعـرُ
حتى إذا مـا اسـتوى طَبقـتْ ... كمـا طبَّـق المسـحلُ الأغـبرُ

قال : فأرتج عليه ساعة ثم قال : لله أنت ! إنه نعت ناقة ملك ، ونعت أنـا ناقة سوقة ، فخرج منها على رؤوس الناس " [1].

وقد وصف ذو الرمة ناقته بالفطانة وسرعة الحركة مع كونها مؤدبـة ليست بنفور ولا ضجور . ومع ذلك جاء وصفه لها قاصرا عن وصـف الراعي لناقته على الرغم من أن أوصاف الراعي لناقته تكاد تكون نفـس الصفات التي وصف بها ذو الرمة ناقته، ولكن الفرق يكمـن في جـودة التشبيه وحسن التصوير .

– ومن المجالس الأدبية حول وصف الناقة كذلك ما روي من أن ذا الرمة وقف على مجلس لبني طهية فأنشدهم قوله :

ضِبِرٌّ رَمَى روضَ القذافين متنُه ... بأعرفَ ينبو الحنيَّين تامكُ [2]

---

١ – انظر الأغاني ١٧/ ٣٣٥ ، والموشح ٢٣٠ .

٢ – ضبر : وثاب ، بأعرف : بسنام عال . ينبو : يرفع . الحنيـين : جـانبي الرحـل . تامك: مشرف .

فقال له حبتر بن ضباب : أسمنْتَ فابتعثْتَ ، أي ليس هذا مما توصف به الإبل النجائب ؛ لأن الرحلة تعجلها عن السمن ، وأنشد في تصديق ذلك :

أهابَ بها الحاجُ التريعُ ولم يهب بها وسطَ أرفاضِ المخاض مهيبُ [١]

ثم أنشدهم ذو الرمة :

كأنني من هوًى حرماءَ مطرفٍ دامي الأظلّ بعيدُ الشأوِ مهيومُ [٢]

فقال له حبتر : ذاك أكثر لبعره ، فقيل لذي الرمة : ألا تهجو بني حبتر ؟ قال : لا ، إنهم قوم رماة ، أي يروون الشعر ويرمون الرجل بمعايبه ويصيبون ما فيه "[٣].

والنقد في هذا المجلس يتعلق بتقويم وصف الإبل النجيبة ، وما ينبغي أن يراعى فيه ؛ فقد وصف ذو الرمة ناقته في البيت الأول بما يدل على سمنها واكتنازها باللحم وهذا مما لا توصف به النجائب ، فالإبل النجيبة توصف بالضمور وعدم السمنة كما في البيت الثاني ؛ لأن ذلك أدعى إلى خفتها وسرعتها في السير .

---

١ - التريع : الشريف من القوم . أرفاض : جمع رفض وهو النعم المتبدد . المخاض : اسم للنوق الحوامل .
٢ - المطرف : البعير الذي اشتري حديثا . الأظل : أصل الخف . الشأو : الهمة .
٣ - الموشح ٢٣٦ .

– ومن هذا ما جاء في الأغاني أن الذي هاج الهجاء بين جرير وعمر ابن لجأ أن عمر كان ينشد أرجوزة له يصف فيها إبله ، وجرير حـــاضر ، فقال فيها :

قد وردت قبل إنًا ضحائها     تفرس الحياتِ في خَرْشائِها [1]
جرَّ العجوز الثنىَ من ردائها

فقال له جرير : أخفقتَ ، وكان ينبغي أن تقول :
جرَّ العروسِ الثنىَ من ردائها

فقال له عمر : لأنت أسوأ قولا مني حيث تقول :
وأوثق عند المردفاتِ عشيةً     لحاماً إذا ما جرَّد السيفَ لا معُ

فجعلتهن مردفات غدوةً ثم تداركتهن عشية . فقال : كيف أقول ؟ قال : تقول :

وأوثقَ عندَ المرهفاتِ عشيةً

فقال جرير : والله لهذا البيت أحب إلي من بكريّ حرزة ، ولكنك مجلـــب للفرزدق ثم تهاجيا " [2].

والنقد هنا منصب على مجانبة الشاعر التوفيق — وهو يصف الإبـــل

---

١ – الإنا : الوقت . الضحاء : الضحى . تفرس : تقتل . الخرشاء : جلد الحية .
٢ – الأغاني ٨ / ٦٩ ، ٧٠ .

- في وضع اللفظ موضعه اللائق به ، فالعجوز لا يليق بها أن تجر الثني من ردائها لأنه ليس لها مثل هذا الرداء عادة ، ولذا كانَ العدول عنها إلى العروس أوجب وأحسن ؛ لأن ثوب العروس غالبا ما يكون ضافيا كثير الثنيات طويل الذيل فيتأتى منها جره .

وروى أبو هلال العسكري بيت عمر الأخير بلفظ ( جر العجوز الثني من كسائها ) وذكر أن جرير رد عليه بتوصيب البيت إلى ( جر العروس طرفي ردائها ) ، وذكر أن عمر بن لجأ رد على تصويب جرير فقال : والله ما أردت إلا ضعفة العجوز . ثم قال أبو هلال : " إن قول جرير ( جر العروس طرفي ردائها ) أحسن وأظرف وأحلى من قول عمر ابن لجأ : ( جر العجوز الثني من كسائها ) . وليس فى اعتذار ابن لجأ بضعفة العجوز فائدة لأن الفتاة معها من الدلال ما يقوم فى الهوينى مقام ضعفة العجوز وإنكار جرير قوله : ( الثنى من كسائها) نقد دقيق . وإنما أنكره لأن فيه شعبة من التكلف ، وقول جرير ( طرفي ردائها ) أسلس وأسهل وأقل حروفا " [1].

- ومن المجالس الأدبية حول وصف الإبل ما روي عن يعقوب بن السكيت قال : حدثني سلمة النميري أنه حضر هشاما وله يومئذ تسع

١ - الصناعتين ١٤٠ .

عشرة سنة ،وحضر جرير والفرزدق والأخطل عنده ، فأحضر هشام ناقة له فقال متمثلا :

أنيخُها ما بدا لي ثم أُرْحِلُها

ثم قال : أيكم أتم البيت كما أريد فهي له ، فقال : جرير :

كأنها نقنقٌ يعدُو بصحراءَ (١)

فقال : لم تصنع شيئا ، فقال الفرزدق :

كأنها كاسرٌ بالدوِّ فتخـاءُ (٢)

فقال : لم تغن شيئا ، فقال الأخطل :

ترخى المشافرَ واللحيين إرخاءَ (٣)

فقال له هشام : اركبها لا حملك الله "(٤).

والظاهر أن هشاما أراد أن يصف الناقة في طاعتها وسهولة انقيادها وتذليلها لراكبها ، ولم يرد أن يصف سرعتها وقوتها في المشي ؛ولذلك أعجب بتصوير الأخطل ولم يرضه تشبيهها بالظليم وعدوه في الصحراء

---

١ – النقنق : الظليم وهو ذكر النعام .
٢ – الكاسر : العقاب ، الدو : الفلاة الواسعة ، الفتخاء : اللينة الجناح .
٣ – المشافر : جمع مشفر وهو شفة البعير ، اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان .
٤ – الأغاني ٨ / ٣٠٤ .

كما قال جرير ، ولا تشبيهها بالعقاب في الفلاة والواسعة كمـــا ذكــر الفرزدق .

– ومن المجالس التي دار فيها الحديث حول وصف الإبل أيضا مـــا روي أن هشام بن عبد الملك جلس يوما في صحن داره وفتح بابها ، وأذن للناس إذنا عاما . فدخل العامة فأخذوا مجالسهم من الدار ، وجلس تجـــاه وجهه أسود متقنع بكسائه ، وأمر أبا النجم أن ينشد – وكان مشـــغوفا بشعره – فأنشد قصيدته اللامية :

الحمدُ للهِ الوهوبِ المجزلِ

حتى بلغ هذا الموضع منها وهو يصف إبله بالغزر ، فذكر الضـــرع فقال : ( كالسقاء المسمَل )[1]. فصاح الأسود : أتاك والله بها يـــا أمـــير المؤمنين نزرا غير غزر قد استجفت ضروعها ،وذهبت ألبانها حين شـــبهها بالمسمل . قال : فكيف ينبغي أن يقول ؟ قال : كما قلت : وأنشده :

| | |
|---|---|
| كنا إذا عـــامٌ ألحَّـــت أزمتُـــهْ | وجعل المطحونَ تغلـــو قيمتُـــهْ |
| لا يشبع المرضعَ منه درهمُـــــهْ | جادت بمطحونٍ لهـــا لا نأجمُـــهْ |
| لا ينفخ البطـــنَ ولا يورِّمُـــه | تطبخــه ضروعـــها وتأدمُـــه |

فقال هشام : من أنت ويلك ؟ قال : أنا أبو نعامة مولى بني سعد"[2].

---

١ – المسمل : الخلق .

٢ – الموشح ٢٧٤ .

ووجه اعتراض أبي نعامة أن أبا النجم أراد أن يصف إبلـه بـالغزر والكثرة ، فوصفها بوصف يدل على قلتها وقلة الخير فيـها ، فشـبهها بالسقاء المسمل الخلق ، وهو تشبيه يدل على أنها قد استجفت ضروعها ، وذهبت ألبانها كما قال أبو نعامة ، في حين عبر أبو نعامة عن كثرة خيراتها تعبيرا حسنا وخاصة في وقت الشدة والقحط .

وهكذا تعددت تلك المجالس التي تناول الشعراء فيها وصف الإبل ، وأصدر النقاد فيها من الأحكام النقدية ما يمكن أن يتخذ أساسا لتقـويم شعر الشعراء في هذا المجال .

جـ — وهناك بعض المجالس الأدبية في العصر الأمـوي دار الحوار فيها حول وصف الفرس . ومنها ما رواه صاحب العقد الفريـد عن الأصمعي أنه قال : " كان هشام بن عبد الملك رجلا مسبقا لا يكـاد يسبق ، فسبقت له فرس أنثى وصلت أختها . ففرح لذلك فرحا شـديدا وقال : علي بالشعراء ، قال أبو النجم : فدعينا فقيل لنا : قولوا في هـذه الفرس وأختها ، فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى يقولوا ، فقلت لـه : هل لك في رجل ينقدك إذا استنسئوك ؟ قال : هات : فقلت من ساعتي :

أشاع للغرَّاءِ فينـا ذكرُهـا ... قوائم عـوجٍ أطعْـنَ أمرَهـا
وما نسينا بـالطريق مُـهْرَها ... حين نقيـسُ قـدرَهُ وقدرَهـا

وصــبرَه إذا عَــدَا وصبرَهــا والمـاءُ يعلــو نحــرَه ونحرَهـــا
ملمومةً شد المليــكُ أســرَها أســفَلَها وبطنَــها وظَــهرَها
وقد كادَ هاديها يكونُ شطرَها

قال أبو النجم : فأمر لي بجائزة وانصرفت "(١)

وقد أجاد أبو النجم وصف هذه الفرس وأبان عن شــدة عدوهــا وعن المقومات الجسمية التي تمكنها من ذلك ، فهي ذات قوائم عوج مرنة تساعدها على زيادة سرعتها في الجري . ثم قارن بينها وبين أختها فأبــان عن الفرق الكبير بينهما في السرعة وقطع المســافة علــى الرغــم مــن استوائهما في الجري . وفي الوقت الذي تقطعه كل منهما ، وفي العـــرق الذي يعلو نحرها ، والفرق الوحيد هو في النتيجة النهائية لجريهما . فــهي تصل إلى نهاية السباق بسرعة ، وتتأخر عنها أختها بمسافة طويلة . بجـانب وصفه لها بأنها ملمومة في سيرها ، وهاديها لا يكاد يرى وكأنه جزء منها ، وهذا يدل على طاعتها وسهولة انقيادها .

د – وجاء في المجالس الأدبية ما يتصل بوصـــف الخمــر والحديث عنها . ومن ذلك ما رواه المرزباني أن ابن بشير المديني قــال : "وفدت إلى بعض ملوك بني أمية فمررت بقرية فإذا رجل مرنح بالشــرب

---

١- العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي ١ / ٢٨٧ .

قائم يبول . فسألته عن الطريق فقال : أمامك ، ثم لحقني فقال : ادن دونك وعليك الحانة . فدخلت فاجتر سفرة ، واستل سلة ، فأخرج منها رغفانا ووذرا من لحم [1]. فقال : أصب ، فأصبت . ثم سقاني خمرا فإذا أبو مالك (كنية الأخطل) . ثم قال : كيف علمك بالشعر ؟ قلت : رويت ، فأنشدني قصيدته :

صرمت حبالك زينبٌ ورعومُ

فلما انتهى إلى قوله :

حتى إذا أخذ الزجاجُ أكفَّنا     نفختْ فأدرك ريحَها المزكومُ

قال : ألست تزعم أنك تبصر الشعر ؟ قلت : بلى ، قال : فكيف لم تشق بطنك فضلا عن ثوبك عند هذا البيت ؟ قلت : قد فعلت عند البيت الذي سرقت هذا منه . قال : وما هو ؟ قلت : بيت الأعشى :

من خمرِ عانةَ قد أتى لختامها     حولٌ تفضُّ غمامةَ المزكومِ

فقال : أنت تبصر الشعر ، فلما صرت إلى سليمان سمرت معه بهذا أول بدأتي " [2].

والحوار الذي دار في هذا المجلس بين الشاعر والناقد يتعلق بمبدأ من

---

١ – وذرا من لحم : أي قطعة صغيرة من اللحم .

٢ – الموشح ١٨٩ .

المبادئ الفنية في نقد الشعر ، وهو ما يتصل بمبدأ أخذ الشاعر من آخـ
وعرف هذا في النقد الأدبي بقضية السرقات الشعرية . وهي قضية مـ
كبرى القضايا التي اهتم النقاد بدراستها وتأصيلها والحديث عنه
واستمدوا معظم كلامهم فيها من الحوار الذي دار في مثل هذه المجالس في
العصور الأدبية الأولى حول أخذ شاعر من شاعر آخر .

فقد أدرك الناقد هنا أن الأخطل قد أخذ بيته هذا من بيت للأعشى في وصف الخمر ، واعترف له الأخطل بذلك وأقره عليه ، والأخذ هنا من باب أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وهو عند ابن الأثير الضرب الثالث من السلخ وهو عنده من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق[١].

وبيتا الأخطل والأعشى كلاهما في وصف الخمر وقدمها في دنّها ، وقد وصفها الأخطل بالصفاء ونفاذ الرائحة ، حتى ليدرك المزكوم رائحتها. وقد سبقه الأعشى فوصفها بالأصالة ، وإتقان الصنعة ، فهي من خمر عانة . ووصفها بالقدم ، فقد مر حول على ختامها ، ووصفها أيضا بنفاذ الرائحة حتى إنها لتفض غمامة المزكوم فيحس برائحتها إحساسا قويا.

هـ — وعن وصف الليل دار الحوار في بعض المجالس الأدبية في

---

١ - انظر: المثل السائر ٢ / ٣٥٥ .

العصر الأموي . ومن ذلك ما رواه صاحب زهر الآداب أن الشعبي قال : "تشاجر الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابغة في طول الليل أيهما أشعر . فقال الوليد : النابغة أشعر . وقال مسلمة : بل امرؤ القيس . فرضيا بالشعبي فأحضراه فأنشده الوليد :

كليني لهم يا أميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ
وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همه ... تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس :

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سدولَه ... عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فقلتُ له لما تمطَّى بصلبِهِ ... وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألَا انجلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ
فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَه ... بكل مغارِ الفتلِ شُدَّتْ بيذبُلِ

فطرب الوليد طربا ، فقال : بانت القضية " [1].

وكلا الشاعرين وصف الليل وطوله ، وواضح من الحوار في هذا المجلس تفضيل قول امرئ القيس في وصف طول الليل على قول النابغة ، وقد يكون من أسباب ذلك ما ذكره الحصري من أن النابغة قال .

---

١ - زهر الآداب ٢ / ٧٤٧ ، واقرأ الموشح ٣٨ ، ٣٩ .

(وصدر أراح الليل عازب همه ) فجعل صدره مأوى للـــهموم ، وجعـــل الهموم كالنعم السارحة الغادية تسرح نهارا ثم تـــأتي إلى مكانها ليـــلا . ووصف الهموم بأنها مترادفة بالليل لتقييد الألحاظ عما هي مطلقـــة فيـــه بالنهار ، واشتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر . أما امرؤ القيـــس فكره أن يقول : إن الهم يخف عليه في وقت من الأوقات فقال : ( ومـــا الإصباح منك بأمثل)[1]. فجعل الليل والنهار سواء عليه في قلقه وهمـــه وجزعه وغمه .

ورأى المرزباني في تفضيل أبيات امرئ القيس أنها أبيـــات اشـــتمل الإحسان عليها ولاح الحذق فيها وبان الطبع بها ، وليس فيـــها عيـــب سوى التضمين بين البيتين :

فقلــــتُ له لما تمطَّى بصلبهِ       وأردفَ أعجـــازًا وناءَ بكلكلِ
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ أَلَا انجلي       بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

فلم يشرح ما أراد من قوله : ( فقلت له ) في البيت الأول إلا في البيـــت الثاني [2].

و — وهذا مجلس أدبي آخر تناول فيه الشعراء وصف الـــبرق وبعض ما قيل في ذلك من الشعر . فقد جاء في الأغاني أن عمر بـــن أبي

---

١ – زهر الآداب ٢ / ٧٤٨ بتصرف .
٢ – أنظر الموشح ٤١ .

ربيعة ، والحارث بن خالد ، وأبا ربيعة المصطلقي ، ورجلا من بني مخزوم ، وابن أخت الحارث بن خالد خرجوا يشيعون بعض خلفاء بني أمية ، فلما انصرفوا نزلوا ( بسرف ) فلاح لهم برق ، فقال الحارث : كلنا شاعر فهلموا نصف البرق ، فقال أبو ربيعة :

أرقتُ لبرقٍ آخرَ الليـــل لامعٍ جرى من سناه ذو الربى فينابعُ[1]

فقال الحارث :

أرقتُ له ليلَ التمام ودونـــه مهامـــهُ موماةٌ وأرضٌ بلاقعُ

فقال المخزومي :

يضـــيءُ عضـــاةَ الشوكِ حتى كأنه مصابيحُ فجرٍ من الصبحِ ساطعُ

فقال عمر :

أيـــا ربِّ لا آلو المودة جاهداً لأسماءَ فاصنعْ بي الذي أنت صانعُ[2]

ثم قال : مالي وللبرق والشوك "[3].

وقد وصف الشعراء الثلاثة البرق وأثره على أنفسهم : فأبو ربيعة المصطلقي تحدث عن أرقه بهذا البرق الذي ظل يلمع طول الليل ثم أعقبه مطر جرى ماؤه بأرض ذي الربى وينابع . وذكر الحارث بن خالد أنه

---

١ - ينابع : اسم مكان أو جبل أو واد في بلاد هذيل

٢ - العضاة : كل شجر يعظم وله شوك .

٣ - الأغاني ١ / ١٥٥ .

أرق بهذا البرق الذي ظل نوره يضيء طوال الليل ولكنه لم يسقط مطــــرا تسقى به هذه المهامه والأرض الجرداء . وذكر الرجل المخزومي أن نـــور هذا البرق يضيء جوانب شجر العضاة حتى كأنه مصابيح تكشف ظـــلام الليل ، أو فجر أعقبه ضوء الصباح .

أما عمر بن أبي ربيعة فلم تطاوعه شاعريته وصف هـــذا الجـــانب المظلم المفزع من الحياة فنطق ببيت يعبر فيه عن تمسكه بمودتـــه وحبـــه لأسماء ، وذكر أنه غير متعود على وصف المشاهد الحزينة .

ز — وهذا مجلس من المجالس الأدبية وصف فيه الحـــاضرون من الشعراء الإنسان في حالة من حالاته وهو النوم ، فقد ذكر ابـــن عبد ربه أنه " سمر الفرزدق والأخطل وجرير عند سليمان بن عبد الملـــك ليلة ، فبينما هم حوله إذ خفق ، فقالوا : نعس أمير المؤمنين وهموا بالقيام . فقال لهم سليمان : لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعرا ، فقال الأخطل :

رماه الكرَى في رأسِهِ فكأنه    صريعٌ تروَّي بين أصحابه خمرا

فقال له : ويحك : سكران جعلتني . ثم قال جرير بن الخطفى :

رماه الكرَى في رأسِهِ فكأنما    يُرَى في سوادِ الليل قنبرةً حمرا

فقال له : ويحك : أجعلتني أعمى ، ثم قال الفرزدق بعد هذا :

رماه الكرى في رأسِهِ فكأنما     أميمُ جلاميدٍ تركن به وَقْرَا

قال له : ويحك : جعلتني مشجوجا ، ثم أذن لهم فانقلبوا فحياهم وأعطاهم"[1].

ووجه اعتراض سليمان على الشعراء هنا أنهم وصفوه في حالته هذه بما لا يليق ، وكان عليهم أن يختاروا له الوصف الذي يليق بمقام الخليفة . وقد سبق أن ذكرنا أن الحكام والرؤساء ينتظرون من الشعراء أن يرفعوا من مقامهم ، وأن يعلوا من جنابهم وألا ينظروا إليهم نظرتهم إلى غيرهم ممن هم دونهم ، وأن يتأدبوا في كلامهم معهم ؛ فلا يصفونهم بما يسيء إليهم ولا يخاطبونهم بما يكرهونه ، ولا يتحدثون أمامهم بما ينغص عليهم لذاتهم.

ولم يعجب سليمان بما وصفه به الشعراء فى نومه ؛ لأنهم وصفوه بما يكره . فاعترض على شعرهم ، ولم يوافق على أوصافهم .

وهكذا رأينا في الصفحات السابقة عدة نماذج من المجالس الأدبية في العصر الأموي حول شعر الوصف عرفنا من خلالها أسسا ومبادئ نقدية عدة يمكن أن تضاف إلى غيرها من قواعد وأسس يرجع إليها النقاد في تقويم هذا الفن الأصيل من فنون الشعر العربى .

---

١ - العقد الفريد ٥ / ٣٧٥ .

# الفصل الرابع

## المجالس الأدبية حول شعر الفخر ونقده

الفخر : هو تعداد الصفات الطيبة التي تتصف بها النفس وتحسين سيئاتها . وهو من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان وتطلعه إلى ذاته. وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم يعبرون فيه عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة . وإنما كان الفخر دالا على فطرة الإنسان وتطلعه إلى ذاته لأن الإنسان سجين ذاته منذ ولادته ، يديم النظر في مرآتها ، مستجليا محاسنها ، مقللا من شأن مساوئها ، مقارنا فيما بينها وبين غيرها ، فإذا عبر الشاعر عن هذه المعاني في شعره سمي شعره هذا فخرا .

ولا يقتصر الفخر على التغني بحب الذات ومدحها ، وإنما يتسع ليشمل تعداد مآثر وفضائل الآباء والأجداد . وقد يتطرق الشاعر في فخره إلى التغني بمآثر ومكارم أبناء القبيلة والجماعة التي ينتمي إليها أو الحزب الذي يدين بالولاء له . ومن هنا قسم النقاد الفخر إلى فخر فردي ( ذاتي ) ، وفخر جماعي ( حزبي ) .

" واستحسن النقاد في الفخر كل ما استحسنوه في المديح . ومعنى

ذلك أن من يفتخر بنفسه أو بعشيرته ينبغي أن يتجه إلى الفضائل النفسية دون غيرها من الأمور العرضية والمحاسن الجسمية .وإذا كانوا قد سمحوا في المدح بالمبالغة و تطلبها الممدوحون من المادحين فقد أحبوا في الفخر هذه المبالغة أيضا "[١].

وقد أكد ابن رشيق هذا المعنى فذكر أن كل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح في المدح كان قبيحا في الافتخار ؛ وذلك لأن الفخر هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص بالفخر نفسه وقومه [٢].

" وشعر الفخر مما يصح أن يتطور في عصرنا الحاضر فيكون إشادة بما للوطن من مجد ، وما حققه آباؤنا الأقدمون من آثار في العلم والحضارة، على أن تكون كما قال الشاعر :

إنا وإن أحسابُنا كرَمت      لسنا على الأحساب ِنتكلُ
نبني كما كانت أوائلنا      تبني ونفعلُ مثل ما فعلوا .

ويكون شعر الفخر حينئذ مثيرا للنفوس كي نقتدي بمجد الأولين"[٣].

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٢١٩ .
٢ – انظر العمدة ٢ / ١٤٣ .
٣ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٢٢٤ .

ويرى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن الإجادة في شعر الفخر تكون على حسب قوة الشاعر وبمقدار ما تؤتى القريحة من التصرف ؛ لأن الشعر فى فن الفخر يقوله الشاعر لا لرغبة ولا لرهبة ، وليس وراء معانيه ظل فلا يجيده إلا مجيد . وهو في شعر الأمراء والشجعان وأهل النسب أصدق منه في شعر غيرهم ؛ لأنهم يقصدون إلى هذا النوع في شعرهم قصدا ، ويتخذون منه لسانا للسياسة والتاريخ وهم لا يتكلفون منه الكثير كما يفعل من دونهم بل هو شيء في طباعهم [1].

وقد وردت فى كتب الأدب والنقد بعض المجالس الأدبية التي انعقدت في العصر الأموي ودار الحوار فيها حول شعر الفخر ، وعقب بعض الحاضرين في هذه المجالس ببعض الأقوال التي تعد بمثابة أسس نقدية يقوّم بها شعر الفخر . ويمكن تنويع هذه المجالس إلى مجالس عقدت في قصور الخلفاء ، وأخرى مجالس عقدت في قصور الولاة ، وثالثة عقدت بين الشعراء وغيرهم خارج قصور الخلفاء والولاة . وفيما يلي نماذج من مجالس كل نوع من هذه الأنواع :

أ — فمن المجالس الأدبية التي عقدت في قصور الخلفاء في العصر الأموي ودار الحديث فيها حول شعر الفخر ما يروى من أنه

---

١ – تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٩٧٤ م/ ٣ / ١٠٥ بتصرف .

"دخل كثيّر عزة على عبد الملك بن مروان في أول خلافته فقال له : أنـت كثيّر ؟ فقال : نعم . فاقتحمه وقال : تسمع بالمعيدي لا أن تراه . فقـال : يا أمير المؤمنين : كل إنسان عند محله رحب الفناء ، شامخ البناء ، عـالي السناء . وأنشد يقول :

| | |
|---|---|
| ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريـه | وفي أثوابـه أسَـدٌ هصـورُ |
| ويعجبك الطريـرُ إذا تـراه | فيخلفُ ظنَّك الرجلُ الطريـرُ |
| بغاثُ الطير أكثرُهـا فراخـًا | وأمُّ البـاز مقـلاتٌ نـزورُ |
| ضعافُ الأُسْد أكثرُها زئـيرًا | وأصرمُها اللـواتي لا تزيـرُ |
| وقد عظم البعيرُ بغـير لـبٍّ | فلم يستغنَ بـالعظم البعـيرُ |
| يُنوَّخ ثم يُضْـرَبُ بـالهراوي | فلا عـرفٌ لديـه ولا نكـيرُ |
| يقـوِّده الصـبيُّ بكـل أرضٍ | ويصرعه على الجنب الصغـيرُ |
| فما عظم الرجال لهـم بزيـنٍ | ولكن زينهم حسبٌ وخـيرُ [1] |

فقال : قاتله الله ! ما أطول لسانه ، وأمد عنانـه ،وأوسـع جنانـه ، إني لأحسبه كما وصف نفسه". [2]

وهنا يفخر كثيّر بقوة شعره وعظم مكانته بين أبنـاء عصـره وإن كانت حاله وهيئته تخبر بقلة شأنه ؛ فإذا كان الخليفة يراه على صورة تنبئ بقلة الشأن فإن الشاعر أراد أن يغير هذه الصورة ، ويبين للخليفة علـو

١ – الطرير : ذو المنظر والرواء . الخير : الكرم والشرف والأصل .
٢ – زهر الآداب ١ / ٣٥٥ .

مكانته وسمو منزلته ، حتى وإن كانت هيئته تفيد غير ذلك ، ولكنه ليس من هؤلاء الذين يكثرون من الحديث عن أنفسهم وهم يتصفون بغير ما يقولون . وقد ضرب كثيرٌ العديد من الأمثلة على ذلك من واقع الحياة ليؤكد من خلالها ما يريد إثباته في البيت الأخير ، وهو أن الرجال لا تقاس بهيئاتها وأشكالها وصورها ، وإنما تقاس بأحسابها وأنسابها وأفعالها الكريمة ومخبرها الطيب . فالشاعر يطلب من الخليفة أن يحكم على الشاعر وعلى شعره من واقع ما يراه في شعره من مقومات الفن الأصيل ، ومن خلال ما يحمله الشاعر من قلب جريء ،وقيم أصيلة ، وبما يتصف به من صفات نفسية داخلية ، ولا يخضع في حكمه عليه من خلال ما يقرأه في غزله من تذلل وخضوع للمحبوبة ؛ لأن التذلل والتضرع والخضوع فى الحب لا يدل على أن الرجل بهذه الصفات في كل أطوار حياته ، ومن هنا كان قول الخليفة : ما أطول لسانه ، وأمد عنانه ، وأوسع جنانه ، إني لأحسبه كما وصف نفسه.

– ومن هذه المجالس ما رواه المرزباني عن أبي عبيدة قال : لما أنشد الراعي النميري عبد الملك بن مروان قصيدته اللامية فبلغ قوله :

أخليفةَ الرحمن إنا معشرٌ حنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلا
عربٌ نرى للهِ في أموالنا حقَّ الزكاةِ منزلاً تنزيلا

فقال له عبد الملك : ليس هذا شعرا ، هذا شرح إسلام وقراءة آية [1].

١ - الموشح ٢١٠ .

والشاعر هنا يفخر بإسلامه وإسلام قومه ، والتزامهم جميعا بشعائر الإسلام والمحافظة عليها ، والخليفة لم يغضب بفخر الشاعر بنفسه وقومه في حضرته ، ولم يظهر تبرمه بذلك ، وإنما عقب على البيتين من الناحية الفنية،فأبان للشاعر أن هذا الشعر يفتقر إلى العاطفة والإحساس الفني ،وهما أهم ما يفرق الشعر عن غيره من الكلام . وافتقار الشعر إلى هاتين الخاصيتين يبعده عن الجودة ويجعله مجرد نظم تتردد فيه الحقائق العلمية أو الدينية . وهنا لاحظ الخليفة أن هذا الشعر قد خلا من الصبغة العاطفية أو الحاسة الفنية فحكم عليه بأنه ليس شعرا رفيعا وإنما هو مجرد نظم وشرح حقيقة من الحقائق العلمية .

– ومن هذه المجالس أيضا ما روي من أن عبد الملك بن مروان كان مع بعض جلسائه يوما ، فبلغه قول جرير :

هذا ابنُ عمّي في دمشقَ خليفةٌ    لو شئتُ ساقكمُ إليَّ قطينا

فقال عبد الملك لجلسائه : أما ترون جهل جرير : يقول : ابن عمي، ثم يقول : لو شئت ساقكم ، ولو قال : لو شاء ساقكم ، لأصاب ، ولعلي كنت أفعل ،ولكنه قال : لو شئت ... فجعلني شرطيا له [1].

والخبر يفيد خطأ جرير في فخره بنفسه مع إقحام الخليفة في كلامه ؛

١ – انظر : الموشح ١٦٥ ، والأغاني ٨ / ٥٩ .

فقد أعلى من قدر نفسه وأنزل من قدر الخليفة فادعى أن الخليفة ابن عمه، وآخذه عبد الملك على عدم صدقه في هذا ، ثم قال : ( لو شئت ساقكم إلي قطينا ) ، فجعل الخليفة — كما قال عبد الملك — شرطيا له رهن إشارته ينفذ له ما يقول ، ولم يعط الخليفة حقه من التعظيم والإجلال والمهابة . وما هكذا يكون حديث الشاعر عن الحكام والخلفاء ، فينبغي على الشاعر أن يدرك وجه الصواب في مثل هذا الموقف فيترل الحكام مترلتهم ، ويرفع من شانهم ، ويصغر من شأنه بجانب شأنهم .

وقد روى المرزباني الخبر براوية أخرى تؤكد ما سبق وتبين خطأ جرير في فخره هذا فقال :

" قال محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي : من الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم قول جرير :

هذا ابنُ عمي في دمشقَ خليفةٌ     لو شئتُ ساقكمُ إليَّ قطينا

فقيل له : يا أبا حزرة : لم تصنع شيئا ! عجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفاء ! فقال له عبد الملك : جعلتني شرطيا لك ، أما لو قلت : لو شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم "[1].

وفي هذا ما يدل على حرص الخلفاء والحكام على مظاهر السيادة

---

١ - اموشح ١٧٣ .

والشرف ؛ فجرير افتخر باجتماعه هو وعبد الملك في أرومة واحدة وهي أرومة مضر التي منها النبوة والخلافة والملك . والذي أغضب الخليفة من هذا الفخر أن شاعره علق على مشيئته هو — وليس على مشيئة الخليفة — استطاعته أن يسوق الخليفة إليه تغلب قوم الأخطل . وفي هذا ما يقلل من كبرياء الخليفة الذي يجعله أحرص ما يكون على مظاهر السيادة والوجاهة ، ويقلل من شأنهما.

على أني أرى أنه قد يكون قصد جرير من قوله ( هذا ابن عمي في دمشق خليفة ) أن الخليفة بمثابة ابن العم له من الناحية الدينية-أي أن الإسلام يجمع بينهما في النسب بخلاف الأخطل الذي يخاطبه جرير بهذا البيت والذي تمنعه مسيحيته ومسيحية قومه من هذه القرابة الدينية بينهم وبين الخليفة ، وعلى هذا فلا وجه لاعتراض عبد الملك على هذا القول .

— ومن مجالس عبد الملك بن مروان الأدبية التي دار الحوار فيها حول شعر الفخر أيضا ما يروى أن عبد الملك بن مروان قال يوما وعنده عدة من أهل بيته وولده : ليقل كل واحد منكم أحسن شعر سمع به ، فذكروا لامرئ القيس والأعشى وطرفة فأكثروا ، حتى أتوا على محاسن ما قالوا . فقال عبد الملك أشعرهم والله الذي يقول :

وذي رحمٍ قلَّمتُ أظفارَ ضغنِهِ ... بحلمي عنه وهو لَيْس له حلمُ
إذا سمتُه وصلَ القرابةِ سامني ... قطيعتَها تلك السفاهةُ والظلمُ

فأسعَى لكي أبني ويهدمُ صـالحي ... وليس الذي يبني كمَنْ شأنه الهدمُ
يحاولُ رغمي لا يحـاولُ غـيرَه ... وكالموتِ عندي أن ينالَ له رغـمُ
فما زلتُ في لينٍ لـه وتعطُّـفٍ ... عليه كما تحنو على الولـدِ الأمُّ
لأستلَّ منه الضغنَ حتى سـللتُه ... وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحلمُ

قالوا : ومن قائلها يا أمير المؤمنين ؟ قال : معن بن أوس المزني "[1].

ووجه إعجاب عبد الملك بشعر معن هذا هو ما اشتمل عليه من فخر بالصفات النفسية المحبوبة التي أحبها الإسلام ، وحث المؤمن على التخلق بها والتحلي بوجودها فيه ، وفي مقدمتها الحلم حتى مع السفهاء وحسن معاملة ذوي الأرحام ، والصبر على ما قد يصدر عن بعضهم من طيش وظلم ، ومعاملتهم باللين والعطف ، ومقابلة الإساءة بالمعروف . وهي صفات لا شك يجدر الفخر بها، وينبغي للمسلم أن يحرص على الاتصاف بها . ولذا أعجب عبد الملك بهذا الشعر وفضله على غيره . وهذا يدلنا على أن الفخر المقبول ينبغي أن يكون هو الفخر بتوافر الصفات الخلقية الكريمة في شخص الشاعر ، والتخلق بالأخلاق العربية الأصيلة ، واشتماله على الفضائل النفسية .

- ومن هذه المجالس أيضا ما يروى أن الشاعر أرطأة بن سهية دخل على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئا مما كان يناقض به شبيب بن

---

١ - الأغاني ١٢ / ٥٥ ، وانظر زهر الآداب ٢ / ٨١٧ .

البرصاء ، فأنشده :

أبي كان خيرًا من أبيكَ ولم يزلْ    جنيبًا لآبائي وأنــت جنيبُ

فقال له عبد الملك بن مروان : كذبت ، شبيب خير منك أبا .ثم أنشده :

وما زلتُ خيرًا منك إذ عضَّ كارها    برأســك عادي النجادِ رسوبُ

فقال له عبد الملك : صدقت ، أنت في نفسك خير من شبيب ، فعجـب من عبد الملك من حضر من معرفته مقادير الناس على بعدهـم منـه في بواديهم »[1].

ونرى عبد الملك بن مروان هنا ناقدا بصيرا بالشعر وبموقعـه مـن الصدق والكذب . وقد واجه الشاعر بالحكم على شـعره بـالصدق أو الكذب في فخره حسب مطابقته للواقع أو عدم مطابقته له ، فكان شبيب أشرف أبا من أرطأة ، وكان أرطأة أشرف نفسا وفعلا من شبيب في نظـر عبد الملك .

والحكم على الشعر بالصدق أو الكذب حسب مطابقته للواقـع أو عدم مطابقته له قضية اختلف النقاد فيها ، فبعضهم يجعل الصدق والمطابقة للواقع مقياس جودة الشعر وحسنه ، ويحتجون في ذلك بقول حسان بـن ثابت :

١ - الأغاني ١٣ / ٢٨ .

وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنت قائلُه    بيتٌ يقالُ إذا أنشدته : صَدَقا [1]

بينما يذهب آخرون إلى أنه لا ضير بالكذب في الشعر ، بمعنى أن الشاعر له أن يأتي من الأحكام في شعره بما لا يتفق مع الحقيقة ، ولا يعني هؤلاء إلا صواب المعنى . وبعضهم يتوسع في تفسير ( الواقع ) الذي ينبغي ألا يخالفه شعر الشاعر فيجعلونه ( الواقع الخارجي ) و( الواقع النفسي ) . فيكون الشعر صادقا إذا اتفقت أحكامه مع الواقع الخارجي إذا كان للكلام واقع خارجي ، ومع الواقع النفسي العاطفي الشعوري إذا تحدث الشاعر عن عاطفته وشعوره إزاء ما يراه ويتحدث عنه . ويتفقون على أن الشعر الذي لا يأتي مطابقا للواقع النفسي هو شعر مردود على صاحبه . وكذا إذا خالف الشاعر الواقع الخارجي عن جهل أو توهم فذلك شعر معيب أيضا . أما إذا خالف الشاعر الواقع الخارجي لا عن جهل أو توهم ، ولكن عن قصد وتعمد كأن يصف الشاعر الجواد مثلا بأنه بخيل ، أو يصف البخيل بأنه جواد ، فهذا هو ما اختلف فيه النقاد بين مبيح ورافض .

ورغم اختلاف النقاد في هذا الأمر فإنهم يقررون أن الصدق في الشعر فضيلة لا تنكر . وعلى هذا الأساس فضل عمر بن الخطاب زهير

---

١ - ديوان حسان بن ثابت - شرح وضبط : عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت / طبعة عام ١٩٩٠ م - ص ٣٤٥ .

ابن أبي سلمى على غيره محتجا بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه [١].

" ومع تقدير النقاد للصدق نرى معظمهم لا يجعل الصدق باعتباره المطابقة للواقع مقياسا في تقدير الشعر ، ففي المدح والهجاء والفخر لا يلزمون الشاعر بأن يقف عند الواقع ولا يتعداه ، بل يبيحون له أن يكذب ، وأن يأتي من الأحكام بما لا يتفق مع الحقيقة . ولا يعنيهم إلا صواب المعنى ، ولا يجدون مخالفته للحقيقة حاطا لقيمة الشعر ، ولا نازلا بقيمته " [٢]. وقد سبق تكملة الحديث عن ذلك في الفصل الأول من هذا البحث .

- وقريب من المجلس السابق مجلس آخر رواه صاحب الأغاني وابن سلام الجمحي بأن أبا النجم االعجلي كان عند عبد الملك بن مروان - وقيل عند سليمان بن عبد الملك - يوما وعنده جماعة من الشعراء ، وكان أبو النجم فيهم ، والفرزدق وجارية واقفة على رأس سليمان أو عبد الملك تذب عنه ، فقال : من صبحني بقصيدة يفتخر فيها وصدق في فخره فله هذه الجارية ، فقاموا على ذلك . ثم قالوا : إن أبا النجم يغلبنا بمقطعاته ( يعنون بالرجز ) ، قال : فإني لا أقول إلا قصيدة ، فقال من ليلته قصيدته التي فخر فيها وهي :

---

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٢٤ وما بعدها .
٢ - المرجع السابق ٤٢٧ .

علق الهوَى بحبائلِ الشعثاءِ

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراء ، فأنشده حتى إذا بلغ قوله :

منَّا الذي ربعَ الجيوشَ لظهره      عشرون وهو يُعدُّ في الأحياءِ

قال له عبد الملك — أو سليمان — قف ، إن كنت صدقت في هذا البيت فلا نريد ما وراءه . فقال الفرزدق : وأنا أعرف منه ستة عشر ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع.فقال عبد الملك أو سليمان : ولد ولده هم ولده، ادفع إليه الجارية يا غلام . قال : فغلبهم يومئذ "[1].

فالحديث في هذا المجلس يؤكد على مبدأ الصدق في الشعر . وواضح أن الخليفة طالب بالصدق في الفخر بمعنى المطابقة للواقع فاشترط فيمن يفوز بالجائزة أن يصدق في فخره ، ولا يأتي بفخر غير مطابق للواقع. ولما تحقق هذا الصدق في فخر أبي النجم دفع إليه الجارية .

— ومن مجالس الخلفاء الأدبية حول شعر الفخر كذلك ما رويَ أن عدي بن الرقاع أنشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديارَ توهُّماً فاعتادَها

---

١ – الأغاني ١٠ / ١٦١ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٢٠٢ ، وذكر ابن سلام أنه كان في مجلس سليمان بن عبد الملك .

وعنده كثيِّرٌ . وقد كان يبلغه عن عدي أنه يطعـــن علـــى شـــعره ويقول: هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قر الشـــام جمـــد وهلـــك . فأنشده إياها حتى أتى على قوله :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها    حتى أقوِّم ميلَها وسنادَها

فقال له كثير : لو كنتَ مطبوعا أو فصيحا أو عالما لم تأت فيها بميـــل ولا سناد فتحتاج إلى أن تقومها ، ثم أنشد :

نظرَ المثقف في كعوبِ قناتِهِ    حتى يقيـــم ثقـــافُـــه منآدَها

فقال له كثيِّر : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجـاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها ثم أنشد :

وعلمتُ حتى لا أسائلُ واحدًا    عن علمِ واحدةٍ لكي أزدادَها

فقال كثيِّر : كذبت ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنـــين بـــأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك . وما كنت قـــط أحمق منك الآن حيث تظن هذابنفسك ، فضحك الوليد ومـــن حضـــر ، وقطع بعدي بن الرقاع حتى ما نطق " [1].

والنقد الذي دار حول شعر عدي بن الرقاع في الفخـــر في هـــذا

---

١ - الأغاني ٩ / ٢٠١ ، ٢١١ .

المجلس يثير عدة قضايا نقدية تحدث النقاد فيها بعد ذلك .

فعن رأي كثيِّر في شعر الحجازيين — والذي شبه شعر عدي بـــه — بأنه شعر مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك يتعلق بســـمات الشـــعر الحجازي في العصر الأموي ، واتصافه باللين والرقة والبعد عن الخشـــونة والصلابة لتأثرهم فيه بالبيئة والحياة وظروفها في الحجاز ، وما اتصفت بـــه من لين ورقة ، وما طبع عليه أهل الحجاز من رقة ودماثة .

وقريب من رأي كثيِّر هذا رأي الفرزدق في شعر الحجازيين الـــذي عبر عنه حينما سأله عمر بن أبي ربيعة بعد أن أنشده شيئا مـــن شـــعره : (كيف ترى شعري ؟) قال : " أرى شعرا حجازيا إن أنجد اقشعر " . يريد أن يقول : إن بيئة الحجاز تنتج شعرا أقل قوة وحرارة وصلابة مما تنتجـــه بيئة نجد ، وأن شعر عمر بن أبي ربيعة متناسب مع ذوق أبناء الحجـــاز ، فإذا نقل إلى أهل نجد أحسوا بما فيه من ضعف ولين . ولم يرض عمر بهـــذا الحكم فقال للفرزدق : ( حسدتني ) ، فأجابه الفرزدق : " يا ابن أخـــي : علام أحسدك ؟ أنا والله أعظم منك فخرا ، وأحسن منك شعرا ، وأعلـــى منك ذكرا " [1].

أما عن تعليق كثير على بيتي عدي : وقصيدة قد بتّ أجمـــع ... نظـــر

---

١ - الموشح للمرزباني ٢٦٥ .

المثقف في كعوب ... فهو نقد يتصل بقضية الطبع لدى الشاعر وأهميته في جودة شعره ، وهي قضية أطال النقاد القول فيها . وخلاصته أن الشاعر المطبوع يأتي شعره مهذبا مصفى لا شائبة فيه ؛ لأن شعره يأتي عفو الخاطر، لا يكلف صاحبه نفسه مئونة الكد والتعب في تثقيفه وتقويمه وتهذيبه . ومع ذلك فإن نقاد العرب يكادون يجمعون على أن الشاعر وإن كان فحلا مطبوعا يحتاج إلى أن يعود إلى شعره فيقومه ويهذبه ويغير فيه ويبدل حتى يأتي به معتدلا مستقيما .

" ولذلك يصح لنا القول بأن أكثر نقاد العرب لا يرون منافاة بين الطبع والتجويد والتثقيف ، وأن الشاعر المطبوع يزيد شعره جودة وجمالا بمراجعة نظره فيما أنتجه ليقوِّم معوجه ويثقف منآده ، بل إن ذلك من ضروريات الشاعر الجيد ، وقد يبالغ بعض الشعراء في المعاودة والتثقيف ومراجعة النظر كما كان يفعل زهير وأضرابه كالحطيئة " [1].

وقد يكون مراد عدي بن الرقاع من بيتيه المذكورين أن يشبه نفسه في شعره وتقويمه له بهؤلاء الشعراء وتقويمهم لأشعارهم . فعدي يذكر أنه يقرض القصيدة من قصائده ثم يأخذ في تهذيبها والجمع بين أبياتها حتى يستقيم اعوجاجها . ويتجشم في سبيل ذلك ما يتجشمه مقوِّم الرماح

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٨٥ .

حتى تخرج من بين يديه مستقيمة معتدلة ، وهذا شيء محمـــــود في نظـــم الشعر يؤدي إلى صقله وجودته ، ولذا حمده كثير من النقاد ورفعوا مــــن القائمين به من الشعراء .

ومن هذا نقف على مدى تحامل كثيِّر في هذا المجلس على عدي بـن الرقاع وشعره لأنه كان " يتلمس لعدي العيوب ولو على طريق المغالطـة. وإلا فكيف تعود القصيدة عوجاء إذا تطاول عليها الزمن بعد أن ثقفـــها الشاعر وقوَّم اعوجاجها ؟! " [١].

أما نقد كثيِّر لبيت عدي الأخير : ( وعلمت حتى ما أســـائل ... ) فهو نقد يتعلق بمبدأ الصدق والكذب في الشعر. ومدى مطابقـــة الفخـــر للواقع الخارجي . وقد سبق عرض بعض جوانب هذه القضية .

– ومن هذه المجالس أيضا ما روي أنه اجتمع الفرزدق ، وجريـــر، وكثيِّر ، وابن الرقاع عند سليمان بن عبد الملك فقال : أنشـــــدوني مـــن فخركم شيئا حسنا فإني أحب أن أسمع ذلك . فبدرهم الفرزدق فقال :

وما قومٌ إذا العلمـــاءُ عـــدَّت ... عروقَ الأكرمين إلى الـــترابِ
بمختلفـــين إن فضَّلتمُونـــــا ... عليهم في القديمِ ولا غضـــابِ
ولو رفعَ السحابُ إليه قومـــاً ... علونا في السماءِ مع الســحابِ

---

١ – أسس النقد الأدبي عند العرب ٤٨٤ .

فقال سليمان : لا تنطقوا فوالله ما ترك لكم مقالا " [1].

وهذا الخبر يدل على براعة الفرزدق وإجادته في فن الفخر وتقدمه فيه على غيره . وعلى الرغم من أنه اقتصر في فخره هنا على بيان منزلة قومه بين غيرهم من الأقوام ، إلا أنه أجاد في اختيار المعاني التي حقق بها ما أراد ، ولذا أعجب بشعره الخليفة واكتفى به عن غيره .

- ومثل هذا ما يروى أن الفرزدق دخل على بعض خلفاء بني مروان ففاخره قوم من الشعراء فأنشأ يقول :

ما حمّلت ناقةٌ من معشرٍ رجلاً … مثلي إذا الريحُ لفتني على الكورِ

أعزّ قوما وأوفى عند مكرمةٍ … لمعظمٍ من دماءِ القومِ مهجورِ

فقال له : إيه ، فقال :

إلا قريشاً فإن الله فضّلَها … على البريةِ بالإسلام والخيرِ

تلفى وجوهَ بني مروان تحسبُها … عند اللقاءِ مشوفاتِ الدنانيرِ

فقضله عليهم ووصله " [2].

فقد رفع الفرزدق من مكانة قومه وجعلهم أعز وأوفى من غيرهم . ولما كان في حضرة الخليفة راعي مكانته فاستثنى قريشا وأعطاهم حقهم

---

١ - الأغاني ٢١ / ٢٥٣ .

٢ - الأغاني ٢١ / ٣٧٢ .

من الرقعة والتكريم ونباهة الشأن . ومن هنا أعجب الخليفة بالفرزدق وفطنته ووقوع فخره موقعه ففضله على غيره ووصله .

وهذا المجلس يدلنا على أن الشاعر ينبغي أن يطامن من نفسه وقومه إذا أنشد فخرا في حضرة الخليفة ، وألا يرفع من قدر نفسه أو من شأن قبيلته وقومه على الخليفة وقومه ، أو أن يقول فخرا في حضرته يفهم منه ذلك ، كما يراعى ذلك في مقام المديح .

ب – أما عن المجالس الأدبية حول شعر الفخر التي عقدت في قصور ولاة بني أمية فمنها ما رواه صاحب الأغاني أن جريرا دخل على المهاجر بن عبد الله وهو والي اليمامة وعنده ذو الرمة ينشده . فقال االمهاجر بن عبد الله لجرير : كيف ترى ؟ قال : لقد قال وما أنعم ، فغضب ذو الرمة ونهض وهو يقول :

أنا أبُو الحارثِ واسمي غيلانُ

فنهض جرير وقال :

إني امرؤٌ خُلِقتُ شكسًا أشْوَسَا إن تضرسَاني تضرسا مضرَّسا (1)

قد لبس الدهرَ وأبقى ملبسا من شاءَ من نارِ الجحيم اقتبسا

---

١ – الشكس : الصعب الخلق . الأشوس : الذي ينظر بمؤخر العين تكبرا ، والجريء على القتال . ضرسه : عضه وعجمه ليختبره .

قال : فجلس ذو الرمة وحاد عنه فلم يجبه " [1].

والخبر يدل على قوة الفخر الذي نطق به جرير ؛ لأنه فخر ممزوج بالوعيد والتحذير من خلقه وجرأته على انتزاع حقه . وسكوت ذي الرمة عن إجابة جرير يوحي بخوفه من لسانه ، لذا آثر السكوت حين استمع إلى فخر جرير بنفسه ، وإلى تحذير وتوعد من يفكر في التصدي له.

– ومن هذه المجالس ما رواه صاحب الأغاني أن جريرا والفرزدق اجتمعا عند بشر بن مروان فقال لهما بشر : إنكما قد تعارضتما الأشعار، وتطالبتما الآثار ، وتقاولتما الفخر وتهاجيتما . فأما الهجاء فليست بي إليه حاجة ، فجددا بين يدي فخرا ودعاني مما مضى . فقال الفرزدق :

نحن السنامُ والمناسمُ غيرُنا فمن ذا يساوي بالسنامِ المناسما[2]

فقال جرير:

على موضعِ الأستاهِ أنتم زعمتمُ وكلُّ سنامٍ تابعٌ للغلاصِمِ [3]

فقال الفرزدق :

عل محرثٍ للفرثِ أنتم زعمتمُ ألَا إنَّ فوقَ الغلصماتِ الجماجما

---

١ – الأغاني ٨ / ٥٣ .

٢ – المناسم : جمع منسم وهو طرف خف البعير .

٣ – الغلصمة : رأس الحلقوم .

فقال جرير :

وأنبأتمونا أنكم هامُ قومِكم      ولا هامَ إلا تابعٌ للخراطِم

فقال الفرزدق :

فنحنُ الزمامُ القائدُ المقتدَى به      من الناسِ ما زلنا ولسنا لهازِما

فقال جرير :

فنحـــنُ بني زيدٍ قطعنا زمامَها      فتاهت كسارٍ طائشِ الرأسِ عارمِ

فقال بشر : غلبته يا جرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقـــة ، وأحســن الجائزة لهما وفضل جريرا "[١].

والشاعران في هذا المجلس تفاخرا وبنيا فخرهما على تشـــبيه كـل منهما وقومه بأفضل أجزاء الناقة . فالفرزدق جعل نفسه وقومه — أولا — بمنزلة السنام من الناقة في الرفعة وعلو المنزلة ، وجعـــل غـــيرهم بمنزلـــة المناسم في انحطاطه وقلة شأنه . ورد عليه جرير بأن السنام قريــب مـــن موضع الاست . أما جرير وقومه فهم بمنزلة الغلاصم . والســـنام تـــابع للغلصمة .

ثم جعل الفرزدق نفسه وقومه بمنزلة الرأس من البعير وفيه العقـــل

---

١ – الأغاني ٨ / ٣٦ .

وموضع التدبير . ورد عليه جرير بأن الرأس ما هو إلا تابع للخراطيم . ثم ذكر الفرزدق أنه وقومه بمثابة الزمام القائد والذي يقود به الناس الناقة . فذكر جرير أنه وقومه قطعوا هذا الزمام فتاهت الناقة وضلت طريقها فكانت كالساري الطائش الرأس العارم الهائج .

وقد أعجب بشر بن مروان بقول جرير وقال له : غلبته بقطعك الزمام ، وذهابك بالناقة وزاد في جائزته . وهذا يدلنا على أن الشاعرين إذا تفاخرا فأجودهما وأفخرهما من يأتي بصفة لا يستطيع الآخر هدمها أو القضاء عليها .

ج — ومن المجالس الأدبية حول شعر الفخر التي عقدت بين الشعراء وغيرهم خارج قصور الخلفاء والولاة في العصر الأموي ما يروى عن كثيِّر أنه كان يلقى حاج المدينة من قريش بقديد [١]. فغفل عاما من الأعوام عن يومهم الذى نزلوا فيه قديدا حتى ارتفع النهار ثم ركب جملا ثقالا [٢]، واستقبل الشمس في يوم صائف فجاء قديدا وقد كَلَّ وتعب فوجدهم قد راحوا وتخلف فتى من قريش معه راحلته حتى تبرد . قال الفتى القرشي : فجلس كثيِّر إلى جنبي ولم يسلم عليَّ فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست إلى خيمة من خيام قديد ، واستقبلت كثيِّرا فقالت : أأنت

---

١- قديد : موضع قرب مكة .

٢ – ثقالا : بطيئا .

كثيِّر ؟ قال : نعم ، قالت : ابن أبي جمعة ؟ قال : نعم.قالت : الذي يقول:

لعزَة أطلالٌ أبت أن تكلّما

قال : نعم . قالت : وأنت الذي تقول فيها :

وكنتَ إذا ما جئتُ أجلَلْنَ مجلسي    وأظهَـــرْنَ مني هيبةً لا تجهُّما

فقال : نعم . قالت : أعلى هذا الوجه هيبة ؟ إن كنت كاذبا فعليك لعنـــة الله والملائكة والناس أجمعين . فضجر وقال : من أنت ؟ فلم تجبه بشـــيء فضجر واختلط . فلما سكن من شأوه قالت : أأنت الذي تقول :

متى تحسُروا عني العمامةَ تبصِروا    جـــميلَ المحيا أغفلته الدواهنُ

أهذا الوجه جميل المحيا ؟ إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والنـــاس أجمعين . فاختلط وقال : والله ما عرفتك ، ولو عرفتك لفعلت وفعلـــت ، فسكتت . فلما سكن من شأوه قالت : أ أنت الذي تقول :

يروق العيونَ الناظرات كأنه    هرقليُّ وزنٍ أحمرَ التبرِ راجحُ

أهذا الوجه يروق العيون الناظرات ؟ إن كنت كاذبا فعليـــك لعنـــة الله والملائكة والناس أجمعين . فازداد ضجرا وغيظا واختلاطا "(١).

والنقد في هذا المجلس يتعلق بمطالبة الشاعر بالصدق في فخره ، وإلى

١ - الأغاني ١٢ / ١٨٢ .

يصف نفسه بصفات غير متحققة فيه أو هو بعيد عنها . وواضح أن المراد بالصدق هنا هو مطابقة المعنى للواقع الخارجي وهو ما اختلف النقاد حول قبوله أو رفضه كما سبق الحديث عنه ، فلقد تعرضت المرأة لما وصف به كثيِّر نفسه من صفات لم ترها المرأة فيه ، ولذلك واجهته بقولها : إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وضجر كثيِّر من قولها. واضطرابه دليل على أنه غير ما وصف به نفسه في شعره . وقد قيل عنه إنه كان دميما قليلا أحمر أقيشر [١]، عظيم الهامة ، قبيحا .

– ومما يتصل بالمجالس الأدبية حول شعر الفخر ما رواه المرزباني أن أبا مسلمة موهوب بن رشيد الكلابي قال : قدم الفرزدق المدينة فمر جماعة من الناس قد استكفوا على جميل وهو ينشد فوقف بين الناس يستمع له حتى قال :

ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرون خلفَنا وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقّفُوا

فصاح به الفرزدق : أنا أحق بهذا البيت منك ، فرفع جميل رأسه فعرفه فقال : أنشدك الله يا أبا فراس . قال : نحن أولى به منك ، وانصرف فانتحله " [٢].

١ – أقيشر : مصغر الأقشر وهو الشديد الحمرة .
٢ – الموشح ١٥١ ، وانظر الأغاني ٩ / ٣٣٥ .

والخبر يدل - أولا - على قوة الفخر فى هذا البيت وإعجاب الفرزدق به لما فيه من تنويه بمكانة الشاعر وقومه وانقياد الناس لهم ، ونفاذ كلمتهم وأنهم أهل الرأى والمشورة. وهو ثانيا - شاهد على ما عرف عن الفرزدق من انتحاله شعر غيره ، ونسبته شعر غيره إليه . فقد روى المرزباني عن الأصمعي في ذلك قوله : " تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة وكان يكابر "[١].

ولكن المرزباني دافع عن الفرزدق في ذلك فقال : " وهذا تحامل شديد من الأصمعي ، وتقول على الفرزدق لهجائه باهلة ، ولسنا نشك أن الفرزدق قد أغار على بعض الشعراء في أبيات معروفة ، فأما أن نطلق أن تسعة أعشار شعره سرقة فهذا محال "[٢].

وقد روى المرزباني [٣]، والأصفهاني [٤] ، كثيرا من الأخبار التي تثبت إغارة الفرزدق على شعر غيره من الشعراء و اغتصابه لبعض أشعارهم : فقد جاء في الموشح عن أحمد بن طاهر : " أن الفرزدق كان يصلت على الشعراء ، ينتحل أشعارهم ثم يهجو من ذكر أن شيئا انتحله

---

١ - الموشح ١٤٦ .
٢ - الموشح ١٤٧ .
٣ - انظر الموشح ١٤٦ وما بعدها .
٤ - انظر الأغاني ٩ / ٣٣٤ وما بعدها .

أو ادعاه لغيره . وكان يقول : ضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبـل ، وخير السرقة ما لم تقطع فيه اليد " [1].

ومنها ما رواه المرزباني أيضا بروايات عدة منها قوله : " وأخـبرني أبو عبد الله الحكيمي قال : أخبرنا أحمد بن يحيى النحوي قال : قال أبـو عبيدة : مر ذو الرمة فاستوقفه أصحابه ، فوقف ينشدهم قصيدتـه الـتي يقول فيها :

أحيـن أعـاذتْ بي تميمٌ نساءَها وجُـرِّدتُ تجـريدَ اليماني من الغمدِ
ومدَّت بضبعـيَّ الربابُ ودارمٌ وجاشتْ ورامتْ من ورائي بنو سعدِ

فقال له الفرزدق : إياك أن يسمعها منك أحد فأنا أحق بهما منـك . فجعل ذو الرمة يقول : أنشدك الله في شعري . فقال :اغرب . فأخذهمـا الفرزدق فما يعرفان إلا له ، وكف ذو الرمة عنهما " [2].

ومن المسلم به أن الفرزدق من كبار الشعراء العـرب ، وهوأحـد ثلاثة من فحول الشعراء في العصر الأمـوي : الفـرزدق ، وجريـر ، والأخطل . ومع ذلك فهناك عدد كبير من النقاد والمؤرخـين لـلأدب يقولون بأنه كان كثيرا ما يغتصب شعر غيره ؛ فقد كـان مـهيبا تخافـه الشعراء ، فإذا أعجب ببيت من شعر أحدهم انتزعه ونسبه إلى نفسه .وفي

١ - الموشح ١٤٧ .
٢ - الموشح ١٤٩ .

الموشح والأغاني كما ذكرت الكثير من الأخبار التي تحكي عن إغارته على بعض أبيات شعر غيره .

والحق أن ظاهرة اغتصاب الشعر وإغارة بعض الشعراء على شعر بعض ظاهرة وجدت وبرزت على الساحة الأدبية في العصر الأموي ، وعرف بها بعض الشعراء غير الفرزدق ، وكان بعضهم لا يتورع عن سرقة شعر غيره ونسبته إلى نفسه . ومن الأخبار التي تدل على ذلك ما رواه الأصمعي عن عبيد الله بن سالم قال : " أتاني رؤبة بن العجاج فجلس إلى قبة لي مجلسا لا يراه من يدخل ، ودخل أبو نخيلة فجلس خارجا ، فقيل له : أنشدنا يا أبا نخيلة ، فافتتح قصيدة لرؤبة ، فجعل ينشدها ورؤبة يئط كأن السياط فى ظهره.فلما بلغ نصفها قال رؤبة : كيف أنت يا أبا نخيلة ؟ فقال أبو نخيلة : واسوأتاه ! ولا أشعر أنك هاهنا ، إن هذا كبيرنا وشاعرنا الذي نعول عليه . فقال رؤبة : إياك وإياه ما كنت بالعراق . فإذا أتيت الشام فخذ ما شئت مني " [1].

وقد نبه النقاد فى دراستهم لقضية السرقات الشعرية على كثير مما يتصل بهذا القبيل .

وبعد : ففيما قدمناه في الصفحات السابقة دليل على وجود العديد

---

١ - الموشح ٢٨١ .

من المجالس الأدبية حول شعر الفخر ، وقد رأينا فيها إشـــارة إلى بعــض القضايا الأدبية التي اتخذ منها النقاد أساسا لتقويم هـــذا الفـــن ، وبيـــان مقومات الجودة والبراعة فيه ، وهذا مما يثبت تأثير هذه المجالس الأدبيـة في النقد الأدبي العربي .

# الفصل الخامس

## المجالس الأدبية حول شعر الهجاء ونقده

الهجاء : هو تعداد الصفات المذمومة وإلصاقها بالمهجو ، وسلب الصفات الطيبة أو المحمودة عنه . ويدخل الهجاء ضمن موضوعات الأدب؛ لأنه يثير فى القارئ شيئا من المعرفة الجمالية . فهو يثير فيه الإعجاب بالشاعر الذى استطاع أن يرسم النقائص التى يراها فى المهجو ، كما يثير فينا الإعجاب بمقدرة الشاعر على لمح هذه النواحى الناقصة فى المهجو ، ومقدرته على إبرازها فى قوة وجلاء . إنه يثير فينا ناحية التهكم الباعثة على الابتسام ، بل على الضحك أحيانا [1] .

ولما كان المدح الجيد عند قدامة بن جعفر هو المدح بالفضائل النفسية ؛ فكذلك الهجاء الجيد عنده إنما يكون بسلب هذه الفضائل النفسية. فالهجاء عنده هو أن يعمد الشاعر إلى الصفات النفسية والفضائل الإنسانية ، فيسلبها عن المهجو وينفيها عنه . أما إذا سلب المهجو أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا فى الهجاء . كأن ينسب إليه أنه قبيح الوجه، أو ضئيل الجسم ، أو صغير الحجم ، أو أنه مقتر أو معسر ، أو أنه من قوم ليسوا أشرافا وإن كان هو فى نفسه كريما ، أو أن يصفه

١ - انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٤٨ .

بقلة العدد وإن كان كريما أو غير ذلك ، فلا يرى الهجاء بذلـــك جاريـــا على الحق [1] .

ويخالف ابن رشيق قدامة فى ذلك فيرى أن أجود الهجاء إنما يكـــون بسلب الفضائل النفسية عن المهجو ، أما العيوب الجسمية وما جاء مـــن قبل الآباء والأمهات فالهجاء بها ليس معيبا وإن كان دون الهجاء بســـلب الفضائل النفسية . والكثيرون من النقاد يرون الهجاء ســـائغا بـــالعيوب الجسمية والانتقاص من شأن الآباء والأمهات [2] .

وأرى أن الحق مع ابن رشيق ؛ فكثير من الشعراء وصفوا مـهجوهم بأوصاف تعود إلى النواحى الجسمية وما يتصل بالآباء والأمهات ، ومـــع ذلك فهى تثير فى القارئ انفعالات السخرية والضحك ، وتدخل ميـــدان الهجاء من أوسع الأبواب .

ويحسن أن يخلو أسلوب الهجاء من الفحش والسباب ، وأن يخـــرج مخرج السخرية والتعريض ، وأن يكون متوسطا بين العنف ، ويتأرجح بين الجزالة والسهولة ، مع قرب المعانى وسهولة الحفظ .

ويذكر النقاد أن خير الهجاء هو ما تنشده العذراء فى خدرها فـــلا

---

١ – انظر : نقد الشعر ١٨٧ .

٢ – انظر : العمدة ٢ / ١٧٤ .

يقبح بمثلها . وقال بعضهم : إن أشد الهجاء ما كان بالتفضيل ، وهو الإقذاع عندهم [(١)] .

وروى ابن رشيق عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه قال:" إن المقذع من الهجاء أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم " [(٢)] .

ويروى عن خلف الأحمر أنه قال : " أشد الهجاء أعفه وأصدقه . وقال مرة أخرى : ما عف لفظه وصدق معناه " [(٣)] .

وقال القاضى الجرجانى عن الأسلوب الأمثل فى الهجاء : " فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس . فأما القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن ، وتصحيح النظم " [(٤)].

وهذه النصوص كلها تؤكد أن الفحش وشدة السباب ، واختيار الألفاظ الموجعة ليست مقبولة فى الهجاء ، بل إنها تدل على فساد الذوق

١ – العمده ٢ / ١٧٠ .
٢ – المرجع السابق ٢ / ١٧٠ .
٣ – نفس المرجع ٢ / ١٧١ .
٤ – الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٢ .

وانحطاط نفس الشاعر ، وتجعل شعره كأنه سباب محض وليس عملا فنيا يندرج تحت باب الأدب .

وجمهور الشعراء يرون قصر الهجاء أفضل ؛ لأن هذا يجعله أكثر ذيوعا على الألسنة وأكثر شيوعا بين الناس ، فيصل الشاعر بذلك إلى غايته فى عبارة موجزة . وفى ذلك يروى عن أبى المهوش الأسدى ، وقد سئل : لِمَ لا تطيل الهجاء ؟ . فقال : " لم أجد المثل السائر إلا بيتا واحدا " [1] . وجاء فى العمدة : " وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب إلا جريرا ، فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا . وقال أيضا : إذا هجوت فأضحك " [2] .

وربما تكون وجهة نظره فى ذلك " أن إطالة الهجاء تشفى نفس الشاعر وتكون ميدانا للتفضيل ومجالا للإيضاح " [3] .

ويرى ابن رشيق أن التعريض فى الهجاء أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته . أما إذا كان الهجاء صريحا فإن النفس سريعا ما تحيط به وتقبله فى أول وهلة ، ويكون كل يوم فى نقصان لنسيان أو ملل يعرض . وذلك

١ – الشعر والشعراء ص ٢٨ .
٢ – العمدة ٢ / ١٧٢ .
٣ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٥٨ .

كله إذا كان المهجو ذا قدر فى نفسه وحسبه . أما إذا كـــان لا يوقظــه التلويح ولا يؤلمه إلا التصريح فذلك هو الأولى [1] .

ويذكر ابن رشيق أن أهجى بيت قاله شاعر قولَ الأخطل فى بـــنى يربوع رهط جرير :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهم قالوا لأمهمُ : بولى على النارِ

لأنه قد جمع فيه ضروبا من الهجاء : فنسبهم إلى البخل بوقود النــار لئلا يهتدى بها الضيفان . ثم البخل بإيقادها إلى الســـائرين والســـابلة . ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قلتها ، وأن بولة تطفئها . وجعلـــها بولة عجوز وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها فى مثل هذا الحال ، ويدل بذلك على العقوق والاســـتخفاف ، وعلـــى ألا خادم لهم ، وأخبر فى أضعاف ذلك ببخلهم بالماء " [2] .

وقد جمع الدكتور أحمد بدوى بين آراء النقاد فى معـــانى الهجـــاء ، وأهم سمات أسلوبه فى نظرهم فذكر أن للهجاء الجيد عندهم شروطا هى:

١ – منها ما يروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها . أى أنه لا يجرح حياءهـــا ولا

---

١ – انظر العمدة ٢ / ١٧٢ ، ١٧٣ .
٢ – العمدة ٢ / ١٧٥ .

يترل من قدرها . وهذا هو الفارق بين الهجاء والإفحاش ؛ لأن الإفحاش لا تستطيع الفتاة أن ترويه أو تنشده .

٢ - وجعلوا أشد الهجاء : الهجاء بالتفضيل . وسموا هذا بالهجاء المقذع . وهذا راجع إلى ما فيه من الموازنة التى تشعر المهجو بأنه أقل من قوم معينين معروفين ، وهو شعور يحدث فى النفس أذى . ولو أن الشاعر نسب إليه عيبا معينا لتعزى المهجو بأن غيره قد يكون معيبا بمثله . أما هذه الموازنة فتجعل العيب لاصقا بهم دون غيرهم ، وهذا ما يجعلهم يشعرون بالحقارة إذا التقوا بأولئك الذين رفعوا فوقهم .

٣ - وأدركوا أن أشد الهجاء أعفه وأصدقه ؛ لأن المهجو بهذا يخشى أن يدرك الناس ما به من نقص حقيقى وقد عرفوا صدق الشاعر . أما إذا كان الشاعر كاذبا ففى واقع الأمر ما يجعل الناس لا يصدقون الشاعر .

٤ - وأبلغ الهجاء هو ما جرى على طريقة التشكيك والتجاهل ، وما اعترض بين التصريح والتعريض . كما قال صاحب الوساطة وصاحب العمدة . فأما القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن .

٥ - كما يرون أن التعريض أهجى من التصريح ؛ وذلك لاتساع

الظن بالتعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته.

٦ - ومن شروط الهجاء الجيد عند النقاد أن يكون متسما بقرب المعانى وسهولة الألفاظ ؛ لأن هذا يجعله سريع الوصول إلى النفس ، قريب اللصوق بالقلب ، سهل الحفظ على اللسان [1] .

هذا وقد عقدت حول شعر الهجاء بعض المجالس الأدبية فى العصر الأموى وإن كانت قليلة ؛ وذلك لأن الهجاء لا يتواءم مع طبيعة تلك المجالس الأدبية ؛ فمن المألوف أن نسمع عن مجالس أدبية عقدت فى قصور الخلفاء أو الولاة أو فى قصور بعض أثرياء المجتمع ، ويجتمع فيها الشعراء ويتبارون حول شعر المديح أو الغزل أو الوصف أو حتى الفخر . أما أن تعقد مثل هذه المجالس ليهجو فيها الشعراء بعضهم بعضا ، أو يتحاورون فيها حول شعر الهجاء فهذا ما يندر وقوعه . وكان هذا - على ما أظن - أهم أسباب قلة المجالس الأدبية فى العصر الأموى حول شعر الهجاء.

- ومن هذه المجالس ما يروى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد : مالك ولحرثان بن عمرو حيث يقول فيك:

---

١ - أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٥٥ ، ٢٥٦ بتصرف .

إذا هتفَ العصفورُ طارَ فؤادُه      وليثٌ حديدُ النابِ عند الثرائدِ

فقال : يا أمير المؤمنين وجب عليه حد فأقمته . فقال : هلا درأت عليه بالشبهات ؟. فقال : كان الحد أبين وكان رغمه على أهون . فقال عبد الملك : يا بنى أمية : أحسابكم أنسابكم لا تعرضوها للهجاء . وإياكم وما سار به الشعر فإنه باق ما بقى الدهر . والله ما يسرنى أنى هجيت بهذا البيت وأن لى ما طلعت عليه الشمس :

يبيتُون فى المشتى ملاءً بطونُهم      وجاراتُهم غَرْثَى يبتن خمائصا

وما يبالى من مدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما :

هنالكَ إن يستخبِلوا المال يُخبَلُوا      وإن يُسألوا يعطُوا وإن ييسرُوا يغْلُوا
على مكثريهم رزقُ من يعتريهمُ      وعند المقلّين السماحةُ والبذلُ[1]

والحوار بين الخليفة وواليه فى هذا المجلس ينم عن شدة وقوة الهجاء الذى حمله بيت حرثان بن عمرو ؛ حيث هجاه - وهو الوالى المحتاج إلى الاتصاف بصفات الشجاعة والعفة ، والقناعة - هجاه بالجبن الشديد والنهم القوى . ولذلك حذره عبد الملك من أن يعرض نفسه وحسبه ونسبه لهجاء الشعراء .

---

١ - الأمالى - أبو على القالى - دار الكتاب العربى - بيروت ٢ / ١٥٧ ، وانظر زهر الآداب ٢ / ١٠٨٨ .

وكلام عبد الملك يوضح بعد ذلك أهمية الشـــعر ودوره الهـــام فى النفس وتأثيره القوى فى رفع منزلة الإنسان أو الحط منه فى هذه الحيـــاة . وفى هذا الصدد أبان عبد الملك أنه على استعداد لأن يتنازل عن كل مـــا يملك من هذه الدنيا ولو بلغ ما تطلع عليه الشمس مقابل اتقـــاء الهجـــاء بمثل قول الشاعر :

يبيتون فى المشتى ملاءً بطونُهم          وجاراتُـــهم غَرْثى يبتن خمائصا

كما رأى أن من يمدح بالكرم والجود فى مثل البيتين الأخيرين [1] لا يبالى بعد ذلك ألا يمدح بغيرهما ، ولا بما يقال فيه ؛ لأنهما يرفعان من منزله من يمدحان بهما إلى أعلى الدرجات .

وأثر الشعر ودوره فى رفع الإنسان أو فى ضعته قضية تحدث عنـــها ابن رشيق ، وذكر لها العديد ممن رفعهم بيت من الشعر مدحوا بـــه ، أو وضعهم بيت من الشعر هجوا به . وذكر فى ذلك أن الشعر لجلالته يرفـــع من قدر الخامل إذا مدح به ، كما يضع من قدر الشريف إذا هجى بشـــئ منه[2] . وقد أدرك هذا الخليفة عبد الملك بن مروان بخبرته ودرايته بـــأثر الشعر فى النفس الإنسانية .

---

١ – البيتان لزهير بن أبى سلمى .

٢ – انظر العمدة ١ / ٤٠ وما بعدها .

– ومن هذه المجالس أيضا ما يروى أنه " دخل كثيِّر على عبد الملك ابن مروان وعنده الأخطل فأنشده . فالتفت عبد الملك إلى الأخطل فقال : كيف ترى ؟ فقال : حجازى مجوع مقرور . دعنى أضغمه يا أمير المؤمنين. فقال كثيِّر : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : هذا الأخطل . فقال له كثيِّر : مهلا فهلا ضغمت الذى يقول :

لا تطلبَنَّ خئولةً فى تغلبٍ      فالزنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا
والتغلبىُّ إذا تنحنح للقِرى      حكَّ استهَ وتمثَّل الأمثالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرف " [1] .

وقد آلم كثيِّر الأخطل وأفحمه وأسكته حينما تلا على مسامعه بيتى جرير الذى هجاه فيهما بقلة شأن حسبه ونسبه ، ووصفه بالبخل الشديد فوسمه بدناءة الأصل وخبث الفرع ، وألصق به صفات تثير السخرية والاشمئزاز.وسكوت الأخطل وعدم رده على كثيِّر يدل على مدى تأثره بهذا الهجاء وتألمه منه . وهو ما يدل على صواب رأى ابن رشيق بأن الهجاء بقلة شأن الآباء والأمهات قد يكون من الهجاء الجيد على عكس ما قال به قدامة بن جعفر .

– ومما يتصل بهذا الباب ما يروى أنه دخل أبو بردة بن أبى موسى

١ – الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ٢ / ١٥٧ .

الأشعرى حماما فزحمه رجل فرفع يده فلطم بها أبا بردة فأثر فى وجهه ، فقال فيه عقيبة الأسدى :

لا يصرم اللهُ اليمينَ التى لها ... بوجهكَ يا ابنَ الأشعرى ندوبُ

فاستعدى عليه معاوية وقال : إنه هجانى . قال : وما قال فيك ؟ فأنشده البيت . قال معاوية : هذا رجل دعا ولم يقل إلا خيرا . قال : فقد قال غير هذا . قال : وما قال ؟ فأنشده :

وأنت امرؤٌ فى الأشعرين مقابَلٌ ... وفى البيتِ والبطحاءِ أنت غريبُ[1]

قال معاوية : كنتَ مقابلا فى قومك فما عليك ألا تكون مقابلا فى غيرهم . قال : فقد قال غير هذا . قال : وما قال ؟ فأنشده :

وما أنا من حَّداثِ أمِّك بالضُّحى ... ولا من يزكيها بظهر مغيبِ

قال : إنما قال : ما أنا من حداث أمك . فلو قال : إنه من حداثها لكان ينبغى لك أن تغضب . والذى قال لى أشد من هذا . قال : وما قال لك يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال :

معاوَىْ إننا بشرٌ فأسجحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنَا وجردتُموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
فهبنا أمةً هلكتْ ضياعًا ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

---

١ - المقابل : الكريم من كلا طرفيه .

أتطمعُ بـــالخلودِ إذا هلكنـــا      وليس لنا ولا لكَ من خلـــودِ
ذروا جورَ الخلافةِ واســتقيموا      وتأمــيرَ الأرازلِ والعبيـــــدِ

قال : فما منعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقـــه ؟ قال : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : نجتمع أنا وأنت فـــنرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه . فما زاد أن أزرى به "[1].

والكلام فى هذا المجلس يشبه إلى حد كبير ما دار بين الخليفة عمـــر ابن الخطاب حينما شكا إليه الزبرقان بن بدر هجاء الحطيئة له بقصيدتـــه التى جاء فيها :

دع المكارمَ لا ترحَلْ لبغيتهـــا      واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

وما عرف من أن عمر أخذ يهون على الزبرقان ، ويحمل الأبيـــات على أنها معاتبة لا هجاء كراهة أن يتعرض لشأن الحطيئة .

ويشبه أيضا إلى حد كبير ما دار بين بنى عجلان والخليفة عمر بـــن الخطاب حينما تقدموا بشكواهم إليه من هجاء النجاشى الشـــاعر لهـــم بقصيدته اللامية . وكان عمر – رضى الله عنه – يدرك تماما ما فى هـــذا الشعر من هجاء شديد ، ولكنه أخذ يهون منه ويؤوله على وجهه الحسن، والتمس فى هذا الشعر البراءة ، وجعل يستصفى المعانى الـــتى أوجعـــت

---

١ – العقد الفريد ٥ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

المهجوين ليمتص غضبهم حتى لا يحد الشاعر الهاجى . وهذا نفسه ما فعله معاوية بن أبى سفيان مع أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى المهجو بشعر عقيبة الأسدى .

وهذا الحوار أيضا يؤكد لنا ما عرف عن الخليفة معاوية بن أبى سفيان من حلم وتسامح فى معاملة الناس ، وعفوه عما قد يكون فى كلامهم معه من خشونة حتى أنس الناس إليه وعرفوا قدره . واشتهرت فى هذا مقولته : ( لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ) . فلقد هجاه الشاعر هنا وهجا ابنه يزيد هجاء شديدا بالأبيات المذكورة فى هذا المجلس وهو خليفة المسلمين ، ومع ذلك تلقى هذا الهجاء بصدر رحب وعفا عن الشاعر . وكان رده عليه أن طلب من أبى بردة بلهجة كلها ظرف ومودة أن يجلس معه ويرفعا أيديهما إلى السماء ويدعوا عليه .

- ومن تناول بعض أشعار الهجاء فى مجلس خلفاء الدولة الأموية ما يروى أنه " دخل جرير على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة وعنده ابن الرقاع العاملى . فقال الوليد لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : هذا رجل من عاملة . قال : الذين يقول الله - عز وجل - فيهم : ﴿ عاملةٌ ناصبة . تصلَى ناراً حامية ﴾ . ثم قال :

يقصِّر باعُ العاملى عن العُلا ولكــن أيْــرَ العاملىِّ طويلُ

فقال العاملى :

أأمِّك كانت أخبرتك بطولـِـهِ أم انتَ امرؤٌ لم تدرِ كيف تقولُ

فقال : لا . بل لم أدر كيف أقول " [1] .

والمجلس يؤكد لنا ما عرف عن جرير وطول لســـانه وإقذاعـــه فى الهجاء . فلقد هجا ابن الرقاع العاملى دون سبب ، وأطال لسانه دون مـا داع إلى ذلك .

أما فيمن تفوق على الآخر فى الهجاء فى هذا المجلس فمن الواضـــح أن جريرا تفوق على ابن الرقاع ، لأنه جاء ببيته كله فى الهجاء الخـالص ، ولكن العاملى خيره فى بيته بين شيئين : أحدهما هجاء ، والآخر رد علـــى هذا الهجاء . وخيره بين أيهما يتصف به . ومن هنا كان رد جريـــر بأنـــه امرؤ لم يدر كيف يقول . فأعطاه العاملى بذلك الفرصة لنفى ما اتهمه بـــه أولا . والهجاء القوى هو ما سد فيه الهاجى على المهجو باب الدفاع عـــن نفسه وأفحمه .

- ومن المجالس الأدبية التى دار الحوار فيها حول الهجاء ما جـــاء فى

---

١ - الموشح ١٧٨ .

الموشح أنه تذاكر الفرزدق والأخطل جريرا . فقال لــه الأخطــل : والله إنك وإياى لأشعر منه ، غير أنه قد أعطى من سيرورة الشعر شــيئا مــا أعطيه أحد . لقد قلت بيتا ما أعرف فى الدنيا بيتا أهجى منه :

قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلبَـهمُ     قالوا لأمهمُ بولى علــى النــارِ
فتمسك البولَ بخلاً لا تجودُ بــه     ولا تبــولُ لهــم إلا بمقــدارِ
والخبزُ كالعنبرِ الهندىِّ عندهـــمُ     والقمحُ سبعون إردبــاً بدينــارِ

وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تنحنحَ للقِرى     حكَّ استه وتمثَّل الأمثالا

فلم يبق سقاء ولا أمة إلا رواه . فقضيا يومئذ لجرير إنــه أســير شــعرا منهما"[1].

والحوار بين الشاعرين فى هذا المجلس يدور حول الموازنة بينهما وبين الشاعر جرير . وقد اتفقا على أنهما أشعر من جرير بصفة عامة ، ولكــن جريرا قد رزقه الله سيرورة فى شعره ليست لهما . واتخذ الأخطــل مــن شعره وشعر جرير فى الهجاء دليلا على ذلك .

وحينما ننظر إلى الأبيات المذكورة نجد فيها - فعلا - هجاء الأخطل أقـوى وأشنع من هجاء جرير كما قال الأخطل . وقد عد النقاد البيــت الأول

١ - الموشح ١٩١ .

من أبيات الأخطل المذكورة أهجى بيت قاله شاعر [1] . ولكن شعر جرير رزقه الله سيرورة وانتشارا لم يحظ بهما غيره من شعراء العصر الأمــــوى . ويرجع السر فى ذلك من وجهة نظرى إلى حسن ألفاظ جريـــــر وبراعـــة صوره وقرب معانيه ورشاقة عباراته مع طلاوة شعره وخفته .

– وقريب من المجلس السابق ما يروى من أن الشاعر معن بــن أوس قدم البصرة فقعد ينشد فى المربد فوقف عليه الفرزدق . فقال : يا معــن : من الذى يقول :

لعمرُك ما مزينةُ رهطُ معنٍ بأخفافٍ يطأن ولا سنامِ

فقال معن : أتعرف يا فرزدق الذى يقول :

لعمرُك ما تميمٌ أهلُ فلــجٍ بأردافِ الملوك ولا كرامِ [2]

فقال الفرزدق : حسبك إنما جربتك . قال : قد جربت وأنـــت أعلــم. فانصرف وتركه " [3] .

والهجاء فى البيتين منصب على تجريد كل شاعر لقبيلة خصمه مــــن الشرف ومظاهر السمو والرفعة . وكلام الفرزدق عقب إنشاد معن بيتـــه

١ – انظر العمدة ٢ / ١٧٥ .
٢ – فلج : اسم واد قريب من البصرة .
٣ – الأغانى ٢ / ٥٤ .

يشير إلى تغلب معن على الفرزدق فى هذه المهاجاة ؛ ولذا تحاشاه الفرزدق وطالبه بالكف عن المزيد ، وذلك بعد أن سمع ما سمع من تجريد قبيلته تميم من الشرف والسيادة . وهذا من أشد ما كان يرمى به المهجو ، خلافا لما قال به قدامة بن جعفر .

– ومن المجالس الأدبية التى كان الحوار فيها قريبا من شعر الهجاء أو حول خطأ الشاعر فى شعر المديح مما يجعل مديحه قريبا من الهجاء ، أو خطأ الشاعر فى شعر الهجاء مما جعل هجاءه مديحا ما حكاه سعيد بن سلم قال:
" لما قال الأخطل بالكوفة : أخطأ الفرزدق حين قال :

أبنــى غــدانةَ إننى حَرَّرْتُكمْ    فوهبتكم لعطيةَ بن جعالِ
لولا عطيةُ لاجتدعتُ أنوفكم    من بين ألأم أعينٍ وسبالِ

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم بمثل هذا الهجاء ؟ . انبرى له فتى من بنى تميم فقال له : وأنت الذى قلت فى سويد بن منجوف :

وما جزعُ سوءٍ رقَّق السوسُ جوفَه    لــما حــمَّــلَتْه وائلٌ بمطيقِ

أردت هجاءه فزعمت أن وائلا تعصب به الحاجات . وقدر سويد لا يبلغ ذلك عندهم فأعطيته الكثير ومنعته القليل .

وأردت أن تهجو حاتم بن النعمان الباهلى وأن تصغر شأنه وتضــع منــه فقلت :

وسوَّد حاتمًا أن ليس فيها إذا ما أوقد النيرانَ نارُ

فأعطيته السؤدد من قيس ومنعته ما لا يضره . وأردت أن تمدح سماك بن زيد الأسدى فهجوته فقلت :

نعم المجيرُ سماكُ من بنى أسدٍ بالطفِّ إذ قتَلت جيرانَها مضرُ
قد كنتُ أحسبه قينًا وأنبؤه فاليومَ طيّرَ عن أثوابِه الشررُ

وقلت فى زفر بن الحارث :

بنى أميةَ إنّى ناصحٌ لكمُ فلا يبيتنَّ فيكم آمنًا زفرُ
مفترشًا كافتراشِ الليثِ كلكلَه لوقعةٍ كائنٍ فيها لكم جزرُ

فأردت أن تغرى به بنى أمية فوهنت أمرهم وتركتهم ضعفاء ممتهنين وأعطيت زفر عليهم من القوة ما لم يكن فى حسابه " [1] .

وما أخذه الأخطل على الفرزدق صحيح . فقد أراد الفرزدق مدحهم بالبيت الأول أو أن يحفظ عليهم أعراضهم ، ويبعد عنهم سوء هجائه عن طريق صفحه عنهم ، وجعل أمرهم لعطية بن جعال ( وهذا بمثابة المديح لهم ) ، ولكنه لم يلبث أن هجاهم وأنزل من مكانتهم فى البيت الثانى .

---

١ - الحيوان - الجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - طبعة ١٩٩٦ م - ٤ / ١٦١ . واقرأ الموشح ١٨٤ . والأغانى ٨ / ٣١٣ . والعمدة ٢ / ٢٥٠ .

كما أن ما أخذ على الأخطل فى هجائه سويد بن منجوف صحيح أيضا . فحين جعل المهجو كهذا الجزع الذى خرق السوس جوفه يكون قد هجاه ، وحين جعل وائلا ترجع إليه وتكل إليه أمورها وتعتمد عليه يكون قد مدحه ورفع من مكانته بينهم . وأخطأ الأخطل أيضا فى هجائه لحاتم بن النعمان الباهلى ؛ لأنه مدحه حين أنزل من مكانة قيس جميعها ورفع من مكانته هو بينهم ، وإن كان قد قصد وصف أعماله العظيمة بالقلة والضعف ، وأن الذى يبرزها ويعظم من أمرها أنه وجد فى قبيلة ليس لها من العظائم شئ .

وبيان خطأ الأخطل فى مدح سماك الأسدى أنه تعرض فى مدحه له لسوءة يتوارى منها الممدوح ولا يرغب فى أن تعرف أو تذاع بين الناس ؛ فقد كان قوم سماك يدعون بالقيون . وحين قال الأخطل : ( فاليوم طير عن أثوابه الشرر ) أراد أن الشرر لا يدنو من ثوبه لأنه ليس قينا وقد كنت أحسبه كذلك . فحقق المقولة التى عرف بها قومه وكادت تتوارى ، وإن كان قد أراد نفيها عن الممدوح وحده . وروى أنه قيل للأخطل فى ذلك : ( أردت أن تنفى عنه شيئا فحققته ) .

وقد سبق أن عرفنا أن الشاعر فى مديحه ينبغى ألا يتعرض لخلق يتوارى منه الممدوح ، أو لصفة مشينة عرف أو اتصف بها . وإن كان

مقصده من ذلك مقصدا حسنا . وأن يبتعد عن ذكر ما قد يفهم منه رائحة التعريض بالممدوح .

وقول الأخطل فى زفر بن الحارث وإغراء بنى أمية به فيه أيضا ما يرفعُ من قيمة زفر ويترل من قدر بنى أمية – وهو يريد العكس – وذلك حين أبرز قوته وما يستطيع أن يترله ببنى أمية لو تمكن من الإيقاع بهم .

– وفى باب الهجاء " رأى نقاد العرب أن الهجاء فن من فنون الشعر له رجاله الذين يجيدونه ويتقنونه . وليس بلازم أن يستطيع الإجادة فيه كل من يجيد المدح " [١] . ولكن هناك من الشعراء من رأى غير ذلك ؛ فيروى أن الشاعر الأموى العجاج دخل على عبد الملك بن مروان فقال : يا عجاج : بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال : يا أمير المؤمنين : من قدر على تشييد الأبنية أمكنه إخراب الأخبية . قال : فما يمنعك من ذلك؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نُظلَم ، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظلِم . فعلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأنى لك عز يمنعك من أن تُظلَم ؟ قال: الأدب البارع والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تَظلِم ؟ قال : الأدب المستطرف والطبع التالد . قال : يا عجاج : لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعنى من ذلك وأنا

١ – أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٤٩ .

نجى أمير المؤمنين "[١].

والخبر يفيد بأن كل شاعر بإمكانه أن يقول فى الهجاء كما يقـول فى المديح والفخر والرثاء . فالعجاج يرى أن المادح يستطيع أن يـهجو لأن من قدر على البناء قدر على الهدم ، والمدح بناء والهجاء هدم .

والحقيقة أن الأمر ليس كما يقول العجاج . فلكثير من الشـعراء طباع تنبو بهم عن الهجاء وإن كانوا بارعين فى باب المديح . فـالجودة فى أغراض الشعر ترجع أولا إلى الاستعداد والطبيعة والسجية . ومن هنـا لا تكون إجادة الشاعر فى كل الأغراض سواء . فإذا وجدت لدى الشـاعر طبيعة فهجا جاء شعره أجود وأحسن ؛ لأن الأمر أمر الطبيعة والسـجية والاستعداد . ويذكر عن أبى تمام – على سبيل المثال – أنه كـان جيـد المديح لأنه كان مهيأ بطبيعته وسجيته للقول فيه ، أما فى الهجاء فكان مـن المغلبين . كما يقول ابن رشيق : [٢] " هاجى السراج وعتبة فما أتى بشئ. وهجاه ابن المعذل حين أراد وجهته فقال : أما هذا فقد كفى ناحيتـه ولم يقدم عليه . على أن حبيبا أطول منه ذكرا ، وأبعد صوتا فى الشـعر ... وهاجى دعبلا فاستطال عليه دعبل أيضا " .

---

١ – الأمالى ٢ / ٤٧ . وانظر زهر الآداب ٢ / ٦٣٤ .
٢ – العمدة ١ / ١٠٨ .

وقد رد ابن قتيبة كلام العجاج فقال : " وليس هذا كما ذكر العجاج ، ولا المثل الذى ضربه للهجاء والمديح بشكل ؛ لأن المديح بناء والهجاء بناء . وليس كل بان بضرب بانيا بغيره . ونحن نجد هذا بعينه فى أشعارهم كثيرا . فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها ، وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية . فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع وذاك أخره عن الفحول ... وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب . وكان عفيفا عزهاة عن النساء وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيبا ....... " [١].

- ومما يتصل بهذه القضية ما يروى عن الشاعر نصيب أنه سئل :لِمَ لا تهجو كما تمدح وقد أقرت لك الشعراء بالمدح ؟ قال : " إنما الناس أحد ثلاثة : رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ، ورجل سألته فأعطانى فالمدح أولى به من الهجاء ، ورجل سألته فحرمنى فأنا بالهجاء أولى منه"[٢].
وقد عقب ابن رشيق على كلام نصيب هذا بأنه كلام عاقل منصف ولو أخذ به الشعراء أنفسهم وساروا على أساس منه لاستراحوا واستراح الناس [٣] .

---

١ - الشعر والشعراء ٤٠ .
٢ - العمدة ١ / ١١٢ .
٣ - العمدة ١ / ١١٢ .

ومما سبق يتبين أن المجالس الأدبية حول شعر الهجاء كان لها وجــود لا بأس به فى العصر الأموى . ومن خلالها وجدت بعض الإشـــارات إلى بعض القضايا النقدية التى يقوم عليها هذا الفن . ولعل وجود مثل هـــذه المجالس يدل على تعدد صور وموضوعات المجـــالس الأدبيـــة ، وتعـــدد موضوعات الشعر التى يتحاور حولها الشعراء والنقاد فى هذه المجـــالس . وإن كنا قد لاحظنا أن مجالس الأدب حول شعر الهجاء قليلة عن غيرهـــا من بعض الفنون الشعرية الأخرى كالمديح أو الغزل أو الوصف فإن ذلـك راجع كما عرفنا إلى طبيعة فن الهجاء وعدم ملاءمته لجو المجالس الأدبية .

## الفصل السادس

## المجالس الأدبية حول شعر الرثاء ونقده

الرثاء : هو فن التعبير عن الحزن على ميت . والرثاء يعـــد مدحـــا للميت . فالفرق بين المدح والرثاء أن المدح موجه للأحياء فنقول فيه هـــو كذا وكذا ، والرثاء موجه للأموات ونقول فيه كان كذا وكذا . يقـــول قدامة ابن جعفر : " ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر فى اللفـــظ ما يدل على أنه لهالك مثل : كان وتولى وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك"[١]. وهذا فى اللفظ أو فى الأسلوب فقط ولكن الحقيقة أن هناك فروقا أخـــرى فى العاطفة والشعور والأحاسيس التى يحملها الشاعر وهو يمدح أو يرثى .

ويطلق على الشعر فى هذا الفن : رثاء ، وندبا ، وتأبيبا . ومعـــاجم اللغة لا تكاد تفرق بين الأسماء الثلاثة ؛ فالرثاء هو بكاء الإنســـان بعـــد موته. ويقال : رثيت الميت ، ورثوته إذا مدحته بعد المـــوت ، وبكيتـــه وعددت محاسنه [٢] . وكذلك الندب فهو بكاء الميت وتعداد محاسنه [٣] . والتأبين هو مدح الرجل بعد موته وبكاؤه [٤] .

---

١ - نقد الشعر ١١٨ .
٢ - لسان العرب - مادة ( رثا ) .
٣ - القاموس المحيط ولسان العرب مادة ( ندب ) .
٤ - لسان العرب مادة ( أبن ) .

والرثاء معرض الوفاء والعكوف على النفس والتفكير فى شـــأنها . فهو الهزام أمام الكوارث ، ومدعاة العظة والاعتبار . يقول الرافعـــى : " الشعر فى المراثى إنما يقال على الوفاء . فيقضى الشاعر بقولـــه حقوقــا سلفت ، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله . أمـــا أن يقال على الرغبة فلا ؛ لأن العرب التزموا فى ذلك مذهبا واحدا . وهـــو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات فيجمعون بـــين التفجـــع والحســـرة والأسف والتلهف والاستعظام . ثم يذكـــرون صفـــات المـــدح مبللـــة بالدموع "[1].

وقد يشمل الرثاء وصف الكارثة وتعظيم آثارها ، واتخـــاذ مـــوت المرثى موعظة يستمد منها العبر ، وقد يشمل الحديث عن فلسفة المـــوت والحياة .

والأسلوب فى شعر الرثاء يكون رقيقا لينا وبخاصة إذا صـــدر عـــن امرأة ؛ " لأن النساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة ، وأشدهم جزعـــا على هالك ؛ لما ركب الله – عز وجل – فى طبعهن من الخور وضعـــف العزيمة . وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء "[2].

---

١ – تاريخ آداب العرب ٣ / ١٠٦ .
٢ – العمدة ٢ / ١٥٣ .

وينبغي أن يتوخى الشاعر فى المرثية ما يتوخاه فى المديح . إلا أنـه إذا أراد أن يذكر الميت بالجود والشجاعة قال : مـات الجـود ، وهلكـت الشجاعة . ولا يقول كان فلان جوادا وشجاعا ؛ فإن ذلك بـارد غـير مستحسن . وما كان الميت يكده ويتعبه فى حياته ينبغى ألا يذكر أنه يبكى عليه مثل الخيل والإبل وما يجرى مجراهما ، بل يذكر اغتباطهم بموته [1] .

والأسلوب فى قصيدة الرثاء يختلف تبعا لاختلاف المعانى التى يتعرض لها الشاعر . ولكنه على كل حال لا يكون فى قوة أسلوب الحماسـة ، ولا فى رقة أسلوب النسيب وعذوبته . فينبغى أن تدور كلمات الرثاء حـول معان سلبية مؤلمة كالبكاء والدموع والكارثة والجزع والفجيعة والمصيبـة ... وأن تستمد صور الشاعر فيه من عالم الموت والفناء . وأما الجمـل والعبارات فهى رقيقة تصور الجزع وانهزام النفس أمام الموت ، أو تكـون شاكية صاخبة تعبر عن حالة الهلع والفزع . وقد تكون جزلة تعـبر عـن هول المصيبة وعظمتها ، شجية ، مؤذنة بالأسى والحسرة [2] .

وذكر النقاد أن " الرثاء ينبغى أن يكون ظـاهر التفجـع ، بـين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والاستعظام إن كان الميـت ملكـا أو رئيسـا

---

١ – الصناعتين ١٣١ ببعض التصرف .
٢ – انظر : الأسلوب – د / أحمد الشايب ٨٦ .

كبيرا"[١] . ولكن الصواب أن ذلك لا يكون مقصورا على رثاء هؤلاء فقط ، فقد يكون هناك رثاء لغير هؤلاء ويأتى شديد التفجع واللهف والأسى والحسرة .

كما يرى بعض النقاد أن الرثاء الجيد هو الرثاء الذى يثنى فيه الشاعر على الميت بالفضائل النفسية الأربع التى جعلها قدامة بن جعفر أصولا للفضائل النفسية . ومن المراثى ما تجمع الرثاء بالفضائل الأربع مجتمعة ، ومنها ما يشيد فيها الشاعر ببعض هذه الفضائل [٢] .

وأجمل الرثاء عندهم هو الذى يبرز فيه الشاعر أفضل ما فى المرثى من صفات ، ويخلدها فى شعره للأجيال المتعاقبة . ولكن ليس من الصواب أن نلزم الشاعر بأن يأتى فى رثائه بما يصور هذه الفضائل مجتمعة، بل عليه أن يصور الناحية التى برز فيها المرثى بروزا واضحا وأحس الشاعر بقوة وجودها فيه ، فيكون رثاؤه حينئذ عن عاطفة وإيمان واقتناع. وهذا ما يجعل لرثائه حيوية وقوة تأثير [٣] .

ومن عيوب شعر الرثاء تقصير الشاعر فى رسم صفات المرثى ؛ فيأتى شعره مقصرا فى تصوير ما كان له من مكانة ومجد . كما يعد من

---

١ - العمدة ٢ / ١٤٧ .

٢ - انظر : نقد الشعر ١١٩ ، ١٢٠ .

٣ - انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٣١ وما بعدها .

عيوب الرثاء أن تكون العبارة فيه غير مبينة عما فى نفس الشاعر مـن ألم ، وعما يشعر به من عظم المصيبة .

وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعـون ذلك فى المدح والهجاء . ولم تعرف قصيدة عربية جاهلية فى الرثاء أولهـا تشبيب إلا قصيدة دريد بن الصمة المبدوءة بقوله :

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أم معبدِ      بعافيةٍ و أخلفت كلَّ موعدِ

وهذا هو الواجب ؛ لأن الآخذ فى الرثاء ينبغى أن يكون مشـغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة . وإنما تغزل دريـد بعد قتل أخيه بسنة وبعد أن أخذ بثأره وأدرك طلبته [1] .

أما عن المجالس الأدبية فى العصر الأموى حول شعر الرثـاء فـهى قليلة للغاية . وربما كان لطبيعة شعر الرثاء وعدم ملاءمته لجو هذه المجالس دخل فى ذلك ؛ فجو الرثاء مفعم بالحزن والبكاء ، والدموع والآهـات . وهو بذلك يخالف جو هذه المجالس التى تنعقد بين الشعراء أو فى قصـور الخلفاء والولاة وأثرياء المجتمع ؛ إذ غالبا ما يسود هذه المجالس جو مـن المرح والضحك والدعابة ، وكثيرا ما تكون المحاورات فيـها مصحوبـة بالغناء أو شرب الخمر . ومن هنا كان تناول شعر الرثاء أو التحاور حوله

---

١ – انظر : العمدة ٢ / ١٥١ ، ١٥٢ .

قليلا نادرا فى مجالس العصر الأموى الأدبية .

– ومن هذه المجالس ما يروى عن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أنه كان يسير يوما إذ رأى راكبا . فقال لبعض شرطه : ائتنى به ، وإياك أن تروعه . فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين . فقال : إياه أردت . فلما دنا الراكب حدر لثامه فإذا ليلى الأخيلية . فأنشأت تقول :

معاوِىَ لم أكد آتيكَ تَهْوِى ... برحلى نحو ساحتك الركابُ
تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأتَّى ... إذا ما الأكم قنَّعها السرابُ
وكنتَ المرجَّى وبك استغاثتْ ... لتنعِشَها إذا بَخِلَ السحابُ

قال : فقال : ما حاجتك ؟ قالت : ليس مثلى يطلب إلى مثلك حاجة ، فتخير أنت . فأعطاها خمسين من الإبل . ثم قال : أخبريني عن مضر . قالت : فاخر بمضر ، وحارب بقيس ، وكاثر بتميم ، وناظر بأسد.

فقال : ويحك يا ليلى ! أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين : ليس كل الناس يقول حقا . الناس شجرة بغى يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت . كان يا أمير المؤمنين سبط البنان ، حديد اللسان ، شجى الأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر . وكان كما قلت ، ولم أتعد فيه الحق :

بعيدُ الثرى لا يبلغ القومُ قعرَه ... ألدُّ ملدٌّ يغلب الحقَ باطلُه

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا . فقالت من ساعتها مرتجلة :

معاذَ إلهى قد كان والله توبةٌ      جواداً على العلاّت جمًّا نوافلُه
أغرَّ خفاجيًا يرى البخلَ سُبَّةً      تحالفُ كفاه الندى وأناملُه
عفيفاً بعيدَ الهم صلباً قناتُه      جميلاً محيَّاهُ قليلاً عوائلُه
وكان إذا ما الضيفُ أرغى بعيرَه      لديه أتاه نيلُه وفواضلُه
وقد علم الجوعُ الذى كان سارياً      على الضيفِ والجيرانِ أنك قاتلُه
وأنك رحبُ الباع ياتوبُ بالقِرى      إذا ما لئيمُ القوم ضاقتْ منازلُه
يبيت قريرَ العينِ من كان جارَه      ويضحى بخيرٍ ضيفُه ومُنازلُه

فقال لها معاوية : ويحك يا ليلى ! لقد جزت بتوبة قدره . فقالت : يا أمير المؤمنين : والله لو رأيته وخبرته لعلمت أنى مقصرة فى نعته ، لا أبلغ كنه ما هو له أهل . فقال لها معاوية : فى أى سن كان ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أتته المنايا حين تم تمامُه      وأقصرَ عنه كل قِرنٍ يناضلُه
وصار كليثِ الغابِ يحمى عرينَه      فترضى بِه أشبالُه وحلائلُه
عطوفٌ حليمٌ حين يُطلَبُ حلمُه      وسمٌّ ذعافٌ لا تصابُ مقاتلُه

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟ قالت : يا أمير المؤمنين : ما قلت شيئا إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر . ولقد أجدت حيث

أقول :

جزى اللهُ خيرًا والجزاءُ بكفّــه  فتىً من عقيلٍ سادَ غير مكلّــفِ
فتى كانت الدنيا تهونُ بأســرها  عليه فلم ينفكَ جــمَّ التصــرفِ
ينال عليــاتِ الأمــورِ بهونــةٍ  إذا هى أعيت كل خِرْقٍ مسـوَّفِ
هو المسكُ بالأرىالضحاكى شبته  بدر ياقةٍ من خمرِ بيسانَ قرقُفِ (١)

والحكاية نقف من ورائها على أهم الصفات التى كانت تراها ليلــى كامرأة فى الرجل الذى كانت تحبه وتهواه . فعددت تلك الصفات الطيبــة التى كان يتحلى بها فى رثائها له . ونلحظ أنها جمعت لــه العديــد مــن الصفات النفسية والخُلقية ، بجانب بعض الصفات الخِلقية أو الجســمية . فوصفته بالجود والكرم ، وشرف الأصل ، وسمــو الحســب ، وبالعفــة والشجاعة ، وجمال المحيا ، وإكرام الضيف فى وقت الشدة وضيق غــيره بالجود والعطاء ، مع حبه لجاره ، ومراعاة حقه . كما وصفته بـــالعطف والحلم مع من يستحق حلمه ، وبالحزم والشدة على من لا يستحق العفو. ثم وصفته بالسيادة ، مع عدم الحرص الشديد على الدنيا ومع أنه كـــان ينال عليات الأمور برفق وسهولة ، فيصل إلى معالى الأمور بالرفق والأناة فى الوقت الذى يعجز فيه غيره عن الوصول إليها .

وهكذا تحققت فى رثاء ليلى لتوبة أسس الرثاء الجيد كمــا تحــدث

---

١ - زهر الآداب ٢ / ٩٣٢ ، ٩٣٣ .

عنها النقاد ، ومزجت فى رثائها له تعداد الصفات النفسية بالصفات الجسمية . وهذا ما حبذه النقاد فى الرثاء الجيد وطالبوا به الشعراء فى هذا الفن .

- ومن هذه المجالس ما رواه صاحب زهر الآداب أيضا أن ليلى الأخيلية دخلت على مروان بن الحكم فقال لها : ويحك يا ليلى ! أكما نعت توبة كان ؟ قالت : أصلح الله الأمير . والله ما قلت إلا حقا ولقد قصرت ، وما رأيت رجلا قط كان أربط على الموت جأشا ، ولا أقل تحاشيا حين تحتدم براكاء الحرب ويحمى الوطيس بالطعن والضرب منه . كان والله كما قلت :

| | |
|---|---|
| فتى لم يزلْ يزدادُ خيرًا لدن نشا | إلى أن علاه الشيبُ فوقَ المسابحِ |
| تراه إذا ما الموتُ حلَّ بوردهِ | ضروباً على أقرانه بالصفائحِ |
| شجاعٌ لدى الهيجاء ثبتٌ مشايحٌ | إذا انحازَ عن أقرانه كلُّ سابحِ |
| فعاش حميدًا لا ذميمًا فعالُه | وصولاً لقرباه يُرَى غيرَ كالحِ |

فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ما تقولين وكان خاربا ؟[1]. فقالت : والله ما كان خاربا ، ولا للموت هائبا . ولكنه كان فتى له جاهلية . ولو طال عمره وأنسأه الموت لارعوى قلبه ، ولقضى فى الله نحبه، وأقصر عن لهوه . ولكنه كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد :

١ - الخارب : سارق الإبل خاصة .

فلله قومٌ غـــادروا ابـــنَ حمـــيرٍ   قتيلاً صريعاً للســـيوف البواتـــرِ
لقد غادروا حزماً وعزماً ونـــائلاً   وصبرًا على اليوم العبوس القماطرِ
إذا هابَ وردَ الموت كلُّ غضنفرٍ   عظيمُ الحوايا لَبُه غـــيرُ حـــاضرِ
مضى قدماً حتى يلاقـــى وردَه   وجاد بسيبٍ فى السنين الكواشـــرِ

فقال لها مروان : يا ليلى : أعوذ بالله من درك الشـــقاء ، وســـوء القضاء ، وشماتة الأعداء . فوالله لقد مات توبة ، وإن كان مـــن فتيـــان العرب وأشدائهم . ولكنه أدركه الشقاء فهلك على أحـــوال الجاهليـــة وترك لقومه عداوة " [1] .

وأبيات الرثاء التى أنشدتها ليلى فى رثاء توبة فى هذا المجلس شـــبيهة بأبياتها فى رثائها إياه فى المجلس السابق . فهى تدور أيضا حـــول إثبـــات وصف المرثى بالشجاعة ، وبالجود فى أوقات المحول والضيق . ووسمـــت أفعاله بالحمد والبعد عن الذم والقبائح . كما وصفته بالحرص على صلـــة الرحم ، وجمال الطلعة ؛ فهو يرى غير كالح .

وقد ذكرت الشاعرة عدة صور ومشاهد حتى تثبت شجاعة توبـــة وثباته وقوة جأشه فى ميادين القتال . وبذلك تكون قد جمعت هنا أيضـــا بين الرثاء بالصفات النفسية ، وبعض الصفات الجسمية . وهذا مـــا رأى

---

١ - زهر الآداب ٢ / ٩٣٤ .

النقاد حسن تحققه فى شعر الرثاء الجيد .

– ومن المجالس الأدبية فى العصر الأموى حول شعر الرثاء مـا روى أن الحجاج رأى فى منامه أن عينيه قلعتا فطلق الهندين : هندا بنت المهلب، وهندا بنت أسماء بن خارجة . فلم يلبث أن جاءه نعى أخيه من اليمـن فى اليوم الذى مات فيه ابنه محمد . فقال : هذا والله تأويل رؤياى . ثم قـال : إنا لله وإنا إليه راجعون . محمد ومحمد فى يوم واحد !

حسبى بقـاءَ الله من كل ميِّتٍ    وحسبى رجاءَ الله من كل هالكِ
إذا كان ربُّ العرش عنى راضيًا    فـإن شفـاءَ النفس فيما هنالكِ

وقال : من يقول شعرا يسليني به ؟ فقال الفرزدق :

إن الرزيـَّـةَ لا رزيةً مثلَها    فقـدانُ مثل محمدٍ ومحمدِ
مَلِكان قد خلت المنابرُ منهما    أخذ الحِمامُ عليهما بالمرصدِ

فقال : لو زدتنى ! فقال الفرزدق :

إنى لباكٍ على ابنى يوسفٍ جزعًا    ومثلُ فقدهما للدين يبكينى
ما سـدَّ حىٌّ ولا ميْتٌ مسدَّهما    إلا الخـلائقَ من بعد النبيين

فقال له : ما صنعت شيئا . إنما زدت فى حزنى . فقال الفرزدق :

لئن جزع الحجاجُ ما من مصيبـةٍ    تكـون لمحـزونٍ أجـلَّ وأوجعـا
من المصطفى والمصطفى من خيارهمْ    جناحيْـه لمـا فارقـاه فودَّعـا
أخ كان أغنى أيمـنَ الأرضِ كلـه    وأغنى ابنه أهل العراقـين أجمعـا

جناحا عقـــاب فارقـــاه كلاهمـــا ولو نُزعا مـــن غـــيره لتضعضعـــا

فقال : الآن " [1] .

وقد رضى الحجاج عن بيتى الفرزدق الأولين ، وعن أبياته الأخـــيرة لما فيها من تعداد محاسن المرثيين وتعظيم المصيبة بفقدهما . وقد عرفنـــا أن من سمات شعر الرثاء الجيد إظهار اللوعة والأسى لفقد المرثى ، وأن ينبـــئ عن عظم المصيبة والفجيعة وقوة الحزن وشدة تأثيره على الأحياء ، وعـــدم وجود من يسد مسده من الأحياء . مع تعداد الصفات النفسية والجسـمية للميت ، وإبراز دوره فى حياة من حوله من أهلـــه وخلانـــه ومجتمعـــه . ومعظم هذه السمات قد تحققت فى الأبيات المذكورة ، ولذا رضى عنـــها الحجاج وتسلى بها . أما البيتان النونيان فقد جردا من معظم ذلك واكتفى الفرزدق فيهما بإعلان بكائه على المرثيين ، والإخبار بأن المنابر قد خلـــت منهما . ولهذا عقب عليهما الحجاج بأن الشاعر لم يصنع بهما شيئا .

– ومن المجالس الأدبية حول شعر الرثاء أيضا ما رواه الأصفهانى أن ابن عباس روى عن أبيه قال : سمعت الحجاج – واستوى جالســـا – ثم قال : صدق الله زهير بن أبى سلمى حيث يقول :

وما العفوُ إلا لامرئٍ ذى حفيظةٍ متى يعفُ عن ذنبِ امرئِ السوء يلججِ

١ – الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ٢ / ١٠٦ .

فقال له يزيد بن الحكم : أصلح الله الأمير ، إني قد رثيت ابني عنبسا ببيت إنه لشبيه بهذا . قال : وما هو ؟ قال : قلت :

ويأمنُ ذو حلمِ العشيرةِ جهلَه    عليه ويخشى جهلَه جهلاؤُها

قال : فما منعك أن تقول مثل هذا لمحمد ابني ترثيه به ؟ فقال : إن ابني والله كان أحب إلي من ابنك " (١) .

وفي هذا إشارة إلى أن الرثاء يصدر عن عاطفة لا تخضع لرغبة ولا لرهبة . وإنما هو فن يقال على الوفاء فيقضي به الشاعر حقوقا سلفت . ويقال على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض ولده أو أهله . وكلما كان المرثي قريبا من نفس الشاعر ، وثيق الصلة به كلما كان شعره فيه أكثر صدقا . والشاعر هنا قد صرح بذلك في رده على الحجاج؛ فلما كان المرثي هو ابنه وأقرب الناس إليه كانت عاطفته في رثائه إياه أصدق من شعره الذي يرثي به محمد بن الحجاج والذي صدر عنه من باب الوفاء وقضى به الشاعر حقوقا سلفت . وقد أحس الحجاج بالفرق بين رثاء الشاعر لابنه ، وبين رثائه لابن الحجاج فتوجه الحجاج إلى شاعره بالسؤال المذكور .

وقد صدقه الشاعر القول وعبر في رده عليه عن واقع محسوس

---

١ - الأغاني ١٢ / ٢٩٢ .

وإحساس طبيعى ، وهو أن الرثاء يكون أدخل فى باب الصدق كلما كـان المرثى أقرب إلى نفس الشاعر وأحب إلى قلبه . وهذه حقيقة أقرها النقـاد فيما بعد ، وأكدوها فى حديثهم عن فن الرثاء .

وبعد : فما ذكرته فى الصفحات القليلة الماضية كانت أهم النمـاذج التى عثرت عليها من المجالس الأدبية حول شعر الرثاء فى العصر الأموى . وهى وإن كانت قليلة إلا أنها تفى بالغرض من هذا الفصل ، وتثبت أنـه كانت هناك مجالس أدبية فى العصر الأموى تنعقد حول هذا الفن . وهو ما يدل على تعدد الفنون الأدبية التى كان يتحاور حولها من يحضـر هـذه المجالس ، ويتخذون منها موضوعا لمجالسهم ويتبـارى فيـها الشـعراء ، ويعقب عليها النقاد بإشارات نقدية تعد أصولا لبعض قضايا النقـد الأدبى. وقد ذكرت قبل ذلك ما أراه سببا لقلة المجالس الأدبية حول شعر الرثاء ، وهو منافاة جو الحزن والأسف لجو اللهو والطرب الذى يسيطر على مثـل هذه المجالس فى أغلب الأحيان .

## الفصل السابع

## المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الأشعار والشعراء

وجدت الموازنات بين بعض الأشعار وبعض ، أو بين بعض الشعراء وبعض فى النقد الأدبى القديم . فقد تجاوز النقاد العرب فى نقدهم للشعر تلك الأحكام الجزئية إلى الموازنة بين شعر بعض الشعراء وبعض ، وإلى الموازنة بينهم فيما اتفقوا فيه من أغراض . ووازنوا أيضا بين أساليب الشعراء ، فقدموا شاعرا على آخر بصفة عامة ، وفضلوا قصيدة على أخرى ، أو بيتا على آخر . وفى المثل السائر لابن الأثير ، وفى الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ، وفى الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى أمثلة عديدة على ذلك .

وكان نقاد العرب فى موازناتهم بين الشعراء يسيرون فى اتجاهات مختلفة . فمنهم من كان يوازن بين القدماء بعامة وبين المحدثين بعامة . وكان بعضهم يتعصب للأقدمين مطلقا ضد المحدثين من الشعراء ، فلا يرى الفضل لغير السابقين من الشعراء . ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء الذى عرف عنه قوله فى المحدثين من الشعراء : " ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فمن عندهم . ليس النمط واحدا : ترى قطعة

ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع " [١] .

وكان آخرون يرون أن المتأخر من الشعراء لا يضـــره تــأخره إذا أجاد، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا كان مقصرا . فكل قديم من الشـعراء محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبله . ومن هؤلاء ابن قتيبة الـــذى يرى أن الله – سبحانه وتعالى – " لم يقصر العلم والشعر والبلاغة علـــى زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلـــك مشـــتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره " [٢] .

ووازن النقاد أيضا بين الشعراء المتعاصرين وغير المتعاصرين . فعقـد بعضهم موازنات بين جرير والفرزدق والأخطل ، وبين أبى تمام والبحـترى والمتنبى [٣] . ووازن بعضهم بين البحترى وأبى تمام كما فى كتاب الموازنـــة للآمدى ، ووازن بعضهم بين المتنبى وبين أبى تمام والبحترى كما فى كتاب الوساطة للقاضى الجرجانى .

وبعض النقاد جاءوا بموازناتهم بين الشعراء عن طريق وضعـــهم أو تصنيفهم إلى طبقات . كما نرى فى كتاب : طبقات فحول الشعراء لمحمـد ابن سلام الجمحى الذى صنف الشعراء الجاهليين إلى عشــــر طبقـــات ،

---

١ – العمدة ١ / ٩٠ .
٢ – الشعر والشعراء ص ١٩ .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٤٦ وما بعدها .

والشعراء الإسلاميين إلى عشر طبقات أخرى .

ووازن بعضهم بين أفراد كل طبقة فقدموا واحدا منهم على الآخر، واختلفوا فى ذلك اختلافا كبيرا . كما وازن بعضهم بين شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين وشعراء الطبقة الأولى من الإسلاميين ، فقالوا : إن الفرزدق يشبه زهير بن أبى سلمى ، والأخطل يشبه النابغة ، وجريرا يشبه الأعشى [١] .

وهناك جماعة من النقاد يرتبون الشعراء ترتيبا غير هذا الترتيب . "فقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلى ، وإسلامى ، ومولد. فالجاهلى : امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على فنون الشعر . وطائفة أخرى تقول : بل الثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس . وهذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها ، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف . وقال قوم : بل الثلاثة : مهلهل وابن أبى ربيعة وعباس بن الأحنف . وهذا قول من يؤثر الأنفة وسهولة الكلام ، والقدرة على الصنعة والتجويد فى فن واحد " [٢] ... إلى آخر تلك الموازنات ، وطرق تفضيل الشعراء بعضهم على بعض .

---

١ - انظر العمدة ١ / ٩٥ .
٢ - المرجع السابق ١ / ١٠٠ .

أما عن دور المجالس الأدبية فى العصر الأمــوى فى المفاضلــة بــين الأشعار أو بين الشعراء فقد شهدت المحافل الأدبية فى العصــــر الأمــوى العديد من المجالس الأدبية التى كان الحوار فيها لونا من ألوان النقـد الأدبى المعتمد على المباراة والمفاضلة بين الأشعار من ناحية ، أو بــين الشــعراء ووضع كل منهم فى المنزلة التى يراها الناقد من ناحية أخرى . فلم يتوقـف نقد النقاد فى المجالس الأدبية فى العصر الأموى عند حد الصياغة والشكل، أو عند حد الكلام على معانى الألفاظ ؛ بل مضــــوا يتفــهمون الشــعر ويتذوقونه ويفصحون عما يمتاز به شعر عن آخر ، ويوازنون بين الشـعراء ويفضلون بعضهم على البعض الآخر .

وفى هذا الفصل محاولة لتوكيد ذلك وبيانه من خلال بعض الأمثلــة من هذه المجالس وتوضيح نصوصها وما تشير إليه من أحكام نقدية . وقـد رأيت أن تقسم الدراسة فى هذا الفصل إلى شطرين : مجـــالس أدبيـــة فى المفاضلة بين الأشعار ، ومجالس أدبية فى المفاضلة بين الشعراء .

## أولا : المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الأشعار :

وردت فى كتب التراث الأدبى العديد من صور المجـــالس الأدبيـــة الــتى عقدت بغرض المفاضلة بين الأشعار فى الغرض الشعرى الواحد أو فى أكثر من غرض .

وعقدت كثير من هذه المجالس فى قصر الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان خاصة . فقد كان عبد الملك محبا للأدب ذواقة له فعقد الكثير من المجالس لروايته والاستماع إليه ونقده . وفى الفصول السابقة من هذا البحث وجدنا هناك مجالس أدبية كثيرة تدل على علو مقامه فى نقد الشعر وتقويمه والحكم عليه .

" ولعل ما كان يجرى فى هذه المجالس من هذه الأنماط من إيراد أجمل بيت فى كذا ، وأروع بيت فى كذا ، واستفسار صاحب المجلس عن أحسن ما قيل فى الغزل ، وأشعر العرب فى الهجاء ، وما إليها ، لعل ذلك كله خير دليل على ما قدمته المجالس المذكورة من خدمة للنقد الأدبى ؛ بحيث أتاحت المجال واسعا أمام أهل الأدب والثقافة ليعللوا ما أعجبهم وما لم يعجبهم ، وليبينوا مواطن الجمال فى هذا البيت أو تلك القصيدة ، أو ليوضحوا مكامن الجودة ومحاسن القول " [1] .

- ومن صور المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الأشعار ما يروى أنه " وصفت لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه فى ابتياعها فامتنع وامتنعت وقالت : لا أحتاج للخلافة ولا أرغب فى الخليفة . والذى أنا فى ملكه أحب إلى من الأرض ومن فيها . فبلغ

---

١ - الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق - د / على محمد هاشم ١١٤ .

ذلك عبد الملك فأغراه بها ، فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسرا . فما أعجب بشئ إعجابه بها . فلما وصلت إليه ، وصارت فى يديه أمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه . فبينما هى عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان قد أخلاهما للمذاكرة ، فأقبل عليهما فقال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنــدَى العالمين بطونَ راحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادُ لهم وأعظمُ الناس أحلامًا إذا قدروا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حتى ما تهر كلابُهم لا يسألون عن السوادِ المقبلِ

فأطرق ثم قال : أى بيت قالته العرب أرق ؟ فقال الوليد : قول جرير :

إن العيونَ التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا

فقال سليمان : بل قول عمر بن أبى ربيعة :

حبَّذا رجعُها يديها إليها من يَدَىْ درعها تحل الإزارا

فقالت الجارية : بل بيت يقوله حسان :

لو يدبُّ الحولىُّ من ولد الذَّر ر عليهــا لأنــدبتها الكُلــومُ

فأطرق ثم قال : فأى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد : قول عنترة:

إذ يتقون بى الأسنةَ لم أحم عنها ولو أنى تضايقُ مقدَمِى

فقال سليمان : بل قوله :

وأنا المنيةُ فى المواطنِ كلِّها فالموتُ منها سابقُ الآجالِ

فقالت الجارية : بل بيت يقوله كعب بن مالك :

نصلُ السيوفَ إذا قصُرْنَ بخطونا قُدُماً ونلحقُها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك : أحسنتِ . وما نرى شيئا فى الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك . فأجمل كسوقما وأحسن صلتها ، وردها إلى أهلها"[1].

والحوار فى هذا المجلس حول أفضل بيت قاله شعراء العرب فى موضوعات ثلاثة : فى المدح والغزل والفخر بالشجاعة . وقد أعجب عبد الملك بالبيت الذى اختارته الجارية فى المديح من شعر حسان فى المدح بالكرم ، وفى الغزل ببيت حسان فى وصف الفتاة بفرط الرقة التى بلغت فيها حدا عظيما . وفى الفخر بالشجاعة ببيت كعب بن مالك الذى يعبر عن قوة المسلمين وفرط شجاعتهم فى مواجهة الأعداء فى يوم الخندق . وأرى أن من أسباب إعجاب عبد الملك بهذه الأبيات وتفضيلها على

---

١ - زهر الآداب ٢ / ١٠٨٦ .

غيرها هو ما تضمنه كل منها من كناية حسنة .

ونرى أن كل واحد من هؤلاء المتحاورين قد فضل البيت الـــذى يميل إليه ذوقه وإحساسه الفنى ، وكان الذوق الأدبى الفطرى هو الأساس فى هذه المفاضلة ، ولم يقدم واحد منهم سببا علميا بنى عليه اختيـــاره أو تفضيله .

– ومن هذه المجالس أيضا ما يروى أن عبد الملك بن مروان صنـــع طعاما فأكثر وأطاب ودعا الناس فأكلوا . وكان فيهم رجل من بنى عذرة. وبعد أن سأله عبد الملك عن نسبه قال له : " أولئك فصحاء الناس . فهل لك علم بالشعر ؟ قال : سلنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين . قـــال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خيرَ من ركِبَ المطايا     وأندَى العالمينَ بطونَ راحِ

وكان جرير فى القوم فرفع رأسه وتطاول بها . ثم قال : وأى بيت قالتـــه العرب أفخر ؟ قال : قول جرير :

إذا غضبتْ عليك بنُو تميمٍ     حسبتَ الناسَ كلَّهُمْ غِضَابا

فتحرك لها جرير . ثم قال له : فأى بيت أهجى ؟ قال : قول جرير:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ     فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

فاستشرف لها جرير . قال : فأى بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

إن العيونَ التى فى طرفها حَوَرٌ قتلنَـــنا ثم لم يُحيينَ قتلانا

فاهتز لها جرير وطرب . ثم قال له : فأى بيت قالته العرب أحسن تشبيها؟ قال : قول جرير :

سَرَى نحوهم ليلٌ كأنَّ نجومَه قناديلُ فيهن الذبــالُ المفتَّلُ

فقال جرير : جائزتى للعذرى يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : ولـه مثلها من بيت المال ولك جائزتك لا تنتقص منها شيئا . وكانت جـائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة . فخرج العـذرى وفى يده اليمنى ثمانية آلاف درهم ، وفى اليسرى رزمة ثياب "[1].

ويبدو أن ذلك الرجل العذرى كان مفتونا بشعر جريـــر فكـانت اختياراته كلها من شعره . ولكن الحق يقال : إن الأبيات التى وقع عليـها اختيار العذرى قد بلغت حدا كبيرا من الحسن والطلاوة فى أبوابها .

والنقد فى هذا المجلس يدل على أن النقد الذاتى الذى يخضع فيــه الناقد لذوقه الفطرى دون الاعتماد على أسس وقواعد علمية هـو نقـد يختلف من شخص لآخر ؛ لأن الأذواق تختلف من إنسان لآخـر . فقـد

---

١ – الأغانى ٨ / ٤٠ .

فضلت الجارية فى المجلس السابق بيت حسان بن ثابت :

يُغشَوْنَ حتى ما تهِرُّ كلابُهم      لا يَسألون عن السوادِ المقبلِ

على بيت جرير الذى فضله هذا الرجل العذرى فى هذا المجلس، ووافقه عليه عبد الملك كأحسن بيت فى باب المديح :

ألستم خيرَ من ركِبَ المطايا      وأندَى العالمينَ بطونَ راحِ

ومثل ذلك كثير يؤكد ما قلناه .

– ومن مجالس المفاضلة بين الأشعار كذلك ما يروى أن عبد الملك قال يوما لبعض جلسائه : " ما أحكم أربعة أبيات قالتها العرب فى الجاهلية ؟ فأنشده :

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ      وطلوعُها من حيثُ لا تمسى
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً      وغروبُها صفراءَ كالورسِ
تجرى على كبدِ السماءِ كما      تجرى حِمامُ الموتِ فى النَّفْسِ
اليومَ تعلمُ ما يجئُ بهِ      ومضى بفضلِ قضائِهِ أمسِ

قال : أحسنت . فأخبرنى بأمدح بيت قالته العرب فى الشجاعة . قال : قول كعب بن مالك الأنصارى :

نصلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطونا      قُدماً ونلحقُها إذا لم تلحقِ

قال : فأخبرنى بأفضل بيت قيل فى الجود .

فأنشده لحاتم طئ :

| | |
|---|---|
| أماويَّ ما يغنى الثراءُ عـــن الفــتى | إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدرُ |
| ترى أنَّ مـــا أبقيــتَ لم أك ربَّـــه | وأن يدى ممـــا بَخلــتُ بـــه صفــرُ |
| ألم تـــر أن المــالَ غـــادٍ ورائـــحٌ | ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكـــرُ |
| غنينا زمانـــًا بـــالتصعلك والغـــنى | فكلا ســـقاناه بكأســـيهما الدهـــرُ |
| فما زادنا بغيـــًا علـــى ذى قرابـــةٍ | غنانا ولا أزرى بأحســـابنا الفقـــرُ |

قال : فأخبرنى عن أحسن الناس وصفا .

قال : الذى يقول :

| | |
|---|---|
| كأنَّ قلـــوبَ الطيـــرِ رطبًا ويابسًا | لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالى |

والذى يقول :

| | |
|---|---|
| كأنَّ عيونَ الوحشِ حول خبائنا | وأرحُلَنا الجزعُ الذى لم يثقَّبِ |

والذى يقول :

| | |
|---|---|
| ولا تعـــرف فيه من أبيه شمائلاً | ومن خالهِ ومن يزيدَ ومن حجرْ |
| سماحةَ ذا ، مع برِّ ذا ، ووفاءَ ذا | ونائلَ ذا ، إذا صحا وإذا سكرْ |

يريد امرأ القيس " [1] .

---

١ - زهر الآداب ٢ / ٧٦٦ .

والنقد فى هذا المجلس أيضا نقد استحسانى غير معلل ؛ فهو يعبر عن ذوق الناقد الذى لم يزد عن قوله تعقيبا على ما يسمع : ( أحسنت ) .

– ومن هذه المجالس ما يروى من أنه اجتمع عند مسلمة بن عبد الملك ناس من سماره فيهم عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر . فقال مسلمة: أى بيت قالته العرب أو عظ وأحكم ؟ فقال له عبد الله : قوله :

صَبَا ما صَبَاحتى علا الشيبُ رأسَه فلما علاه قال للباطلِ ابعُدِ

فقال مسلمة : إنه والله ما وعظنى شعر قط كما وعظنى شعر عمران بن حطان حيث يقول :

فيوشك يومٌ أن يقارنَ ليلةً

يسوقان حتفًا راحَ نحوك أوغدا

فقال بعض من حضر : أما والله لقد سمعته أجل الموت ثم أفناه . وما صنع هذا قبله . فقال مسلمة : وكيف ذاك ؟ قال : قال :

لا يعجز الموتَ شئٌ دون خالِقِه

والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأجلُ

وكلُّ كربٍ أمامَ الموت متضعٌ

للموتِ والموتُ فيما بعده جللُ

فبكى مسلمة حتى اخضلت لحيته . ثم قال : رددهما على ، فرددهما عليه

حتى حفظهما " [1] .

والحوار فى المجلس دار حول أقوى بيت قالـــه العـــرب فى العظـــة والحكمة . وكان الأمير يعتقد أن أفضل بيت فى هذا الباب هـــــو بيـــت عمران بن حطان ، حتى أسمعه بعض الحاضرين بيتين آخرين أقوى فى بـــاب الحكمة والموعظة من بيت عمران الأول . وقد تأكد صحة ما قاله هـــــذا الرجل بشدة تأثر الأمير بالمعنى فيهما ؛ فما إن سمعهما سليمان حتى بكـــى بكاء اخضلت منه لحيته ، وطلب ترد يدهما حتى حفظهما . وهذا دليـــــل على جودتهما وقوة المعنى فيهما ؛ لأن حسن الشعر وجودته إنما يقاســـــان بمدى تأثير الشعر فى نفس المتلقى ووجدانه .

وهذا قليل من كثير مما جاء فى كتب التراث من مجالس أدبية كـــان موضوعها المفاضلة بين بعض الأشعار فى موضوع من الموضوعات . وكمـا رأينا كان النقد الاستحسانى الشخصى غير المعلل هو السائد على ما قيـــل فيها من ملحوظات نقدية . ولم نجد نوعا من النقد المعلل إلا فى اليسير مـن الأحيان . وهذا ما يجعل الأحكام فيها غير نهائية ؛ لأنها تخضـــع للأهـــواء الشخصية وللذوق الفنى الذى يختلف من شخص لآخر . فذاتية النقـــد - كما يذكر المرحوم طه أحمد إبراهيم - تدعو أحيانا إلى الاضطـــــراب، ولا

---

١ - الأغانى ١٨ / ٥٩ ، ٦٠ .

سيما فى الفنون . فالميول والثقافات والأمزجة مختلفة . وكل هذا يدعو إلى الاختلاف فى تقدير الشعر أو الشعراء والحكم على منزلة كل منهم . ومن الطبيعى مع هذا النقد ألا نجد إجماعا على أكبر عنصر ، أو أجود صياغة ، أو أمتع شئ فى الأدب . وطبيعى أيضا مع هذا النقد ألا نجد إجماعا على أشعر الناس ، أو أشجع الناس ما دمنا ندع ذلك إلى الذوق الفردى والذى يختلف من ناقد لآخر ، بل عند ناقد واحد فى عهدين بعيدين [1] .

ثانيا : المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الشعراء :

عقدت الكثير من المجالس الأدبية التى اتخذ المتحاورون فيها من المفاضلة بين الشعراء موضوعا لهم ، ينزلون فيها الشاعر الذى يتحدثون عنه المنزلة التى يراها كل منهم .

والذى يميز هذه المجالس أن كثيرا من الأحكام النقدية التى تصدر فيها كانت أحكاما معللة يستشهد الناقد فيها على صحة حكمه بدليل أو بشاهد من شعر الشاعر يستدل به على صحة الحكم الذى أصدره عليه أو على شعره . وإن كان كثير من هذه الأحكام أيضا أحكاما نقدية غير معللة تتفق مع ميول الناقد وذوقه . ولذا تعددت أسماء السابقين من الشعراء باختلاف أذواق النقاد .

---

١ - انظر : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٦٠ .

وفيما يلى بعض ما عثرت عليه من مجالس فى المفاضلة بين الشعراء :

أ - المفاضلة بين الشعراء الجاهليين :

كانت المفاضلة بين الشعراء الجاهليين مجالا للحوار فى بعض المجالس الأدبية فى العصر الأموى . ومن ذلك ما يروى أن عبد الملك بن مروان كان يعجب بالنابغة الذبيانى ، ويفضله على غيره من شعراء العرب فى الجاهلية ؛ وذلك لحسن شعره وبراعته فى الاعتذار والمدح . ومما يدل على ذلك ما دار فى هذا المجلس الذى رواه صاحب الأغانى حين قال : " قال عمرو بن المنتشر المرادى : وفدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقام رجل واعتذر من أمر وحلف عليه . فقال له عبد الملك : ما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر . ثم أقبل على أهل الشام فقال : أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان :

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرءِ مذهبُ

فلم يجد فيهم من يرويه . فأقبل عليَّ فقال : أترويه ؟ قلت : نعم ، فأنشدته القصيدة كلها . فقال : هذا أشعر العرب " [1] .

وحكم عبد الملك هذا على النابغة بأنه أشعر العرب حكم ذاتى غير

---

١ - الأغانى ١١ / ٧ .

معلل بنى على ما استمع إليه عبد الملك من شعر النابغــــة فى الاعتــــذار . وبناء على إعجابه فقط بهذا الشعر أصدر هذا الحكم العام دون تعليــــل أو استناد إلى مبررات .

- وإذا كان الحكم على منزلة النابغة الذبيانى فى المجلس السابق كان حكما ذاتيا غير معلل فهناك مجلس آخر يحكم فيه عبد الملك على النابغــــة بتقدمه وفضله على الشاعر الأموى الأخطل ، ويحتج على ذلك بشئ مـــن شعر النابغة الذى يراه أقوى من شعر الأخطل . فقد جاء فى الأغانى عــــن الشعبى قال : " دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل وأنـــا لا أعرفه . فقلت حين دخلت : عامر بن شراحيل الشعبى . فقال : على علم ما أذنا لك . فقلت فى نفسى : خذها واحدة على وافد أهـــل العـــراق . فسأل عبد الملك الأخطل : من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنـــين . فقلت لعبد الملك : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فتبسم وقال : هذا الأخطـل. فقلت فى نفسى : خذها ثنتين على وافد أهل العراق . فقلت : أشعر منك الذى يقول :

هـــذا غـــلامٌ حســـنٌ وجهُـــه ... مستقبلُ الخـــير ســـريعُ التمـــامْ
للحارثِ الأكبرِ والحارثِ الـــــ ... أصغرِ والأعـــرجِ خـــيرِ الأنـــامْ
خمسةُ آبـــاءٍ وهـــمْ مـــا هُـــمُ ... همُ خيرُ من يشربُ ماءَ الغمـــــامْ

- والشعر للنابغة - فقال الأخطل : إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشـــعر

أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريا أن أقول كمـا قلت أو شبيها به . فقلت فى نفسى : خذها ثلاثا على وافد أهل العـراق . ( يعنى أنه أخطأ ثلاث مرات ) [1] .

وهذا الخبر يشير إلى تقدم منزلة النابغة الذبيانى على الأخطل بدليـل هذه الأبيات التى احتج بها الشعبى ، والتى ما إن سمعها الأخطل حتى أذعن وأقر بالحكم . كما يشير الخبر إلى تقدم النابغة الذبيانى على غـيره مـن شعراء الجاهلية وأنه أشعرهم فى رأى الشعبى .

والمجلس هنا فى الموازنة بين شعراء الجاهلية ولكن الأخطل أخطـأ فى فهم سؤال عبد الملك فأقحم نفسه فى الموازنة ، وأبان له الشعبى قصد أمير المؤمنين وهو السؤال عن أشعر أهل الجاهلية .

### ب – المفاضلة بين الشعراء الجاهليين والإسلاميين :

وهناك مجالس أدبية أخرى فى المفاضلة بين بعض شـعراء الجاهليـة وبعض شعراء الإسلام . ومن هذه المجالس ما رواه صاحب الأغانى أن عبد الملك بن مروان ، أو الوليد بن عبد الملك ، قال لجرير : من أشعر النـاس؟ فقال : ابن العشرين [2] . قال : فما رأيك فى ابنى أبى سلمى ؟ [3] قـال :

١ – الأغانى ١١ / ١٨ .
٢ – يعنى طرفة بن العبد .
٣ – يعنى : زهير بن أبى سلمى وابنه كعب بن زهير .

كان شعرهما نيرا يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول فى امرئ القيس ؟ قال: اتخذ الخبيث الشعر نعلين . وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلاله [١] . قال: فما تقول فى ذى الرمة ؟ قال : قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه ما لم يقدر عليه أحد . قال : فما تقول فى الأخطل ؟ قال : ما أخرج لسان ابن النصرانية ما فى صدره من الشعر حتى مات . قال : فما تقول فى الفرزدق؟ قال : فى يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها . وقال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئا . قال : بلى والله يا أمير المؤمنين : إنى لمدينته التى يخرج منها وإليها يعود . نسبت فأطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت [٢] ، وأرملت فأغرزت ، ورجزت فأبحرت . فأنا قلت ضروب الشعر كلها ، وكل واحد منهم قال نوعا منها . قال : صدقت " [٣] .

ففى هذا المجلس سئل جرير عن نفسه وعن بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وأنزل كلا منهم منزلته وفضل نفسه عليهم جميعا ؛ فحكم على طرفة بن العبد بأنه أشعر الناس عامة . وحكم على زهير بن أبى سلمى وابنه كعب بجودة شعرهما وإنارته . أما امرؤ القيس فكان الشعر

---

١ – الذلال : هو ما يلى الأرض من أسافل الثوب . ويريد أنه كان يلزمه ويخدمه .
٢ – سنيته : أى سهلته وفتحته .
٣ – الأغانى ٨ / ٥١ ، ٥٢ .

مطاوعا له كنعله يقول منه حيث شاء متى شاء . وذو الرمة استطاع أن يأتى من ظريف الشعر وغريبه وحسنه ما لم يقدر عليه أحد غيره . أما الأخطل فقد مات ولم يخرج كل ما فى صدره من شعر . وقد يكون مراد جرير هنا أن الأخطل منعته نصرانيته مع وجوده فى مجتمع مسلم من إخراج كل ما فى صدره من شعر . وأما الفرزدق فهو يمسك بزمام الشعر ويقبض بيده عليه فيخرج منه ما يشاء كلما أراد . أما عن جرير فقد شبه نفسه بمدينة الشعر التى تحوى بداخلها كل أصناف الشعر وأجوده منها . واحتج جرير على ارتفاع منزلته الفنية عن منزلة هؤلاء جميعا بأنه يأتى بالنسيب المطرب لرقته وعذوبته ، ويأتى بالهجاء المردى لشدته وقسوته ، ويأتى بالمديح الذى يرفع من قدر الممدوح بقوته وفخامته مع سهولته ، ويأتى بالوصف المصور لعمقه وبراعته ، كما يأتى بالرجز البارع فى قوته وغرابته . فقد برع فى فنون الشعر كلها أما غيره من المذكورين فقد برع فى فن واحد منها . وهذا ما يقدمه فى الشعر على غيره .

ونرى أن الأحكام التى أصدرها جرير على غيره من الشعراء المذكورين جاءت غير معللة ربما لأنه رأى أنها مسلمات لا تحتاج إلى تعليل لأنها أحكام عامة لا تنصب على جانب محدد من جوانب أشعارهم ولا تقدم واحدا منهم على الآخر . أما حين وضع نفسه فى مرتبة تعلو مراتبهم ورأى أنه يمكن أن يكون فى ذلك مجال للاعتراض فجاء لنا بالعلة التى

تجعل من حكمه هذا حكما صادقا . وقد اقتنع الخليفة بما قال فصدقـــه فى حكمه .

– وقريب من الحوار فى المجلس السابق هذا الحـــوار الـــذى رواه صاحب الأغانى ودار بين عمر بن الوليد بن عبد الملك والأخطل ؛ حيـــث سأل الأمير الشاعر عن أشعر الناس ، فقال الأخطل : الذى كان إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع . قال : ومن هو ؟ قال : الأعشى . قال : ثم مـــن ؟ قال : ابن العشرين ، ( يعنى طرفة ) . قال : ثم من ؟ قال : أنا "[1] .

ونجد الأخطل يستند فى حكمه هنا على أشعر الناس على أساس من ذوقه ورؤيته الشخصية ، ولم يذكر لذلك سببا غير ما ذكـــره فى تقـــديم الأعشى على غيره بأنه كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع . وهـــذا رأى يعبر عن وجهة نظر خاصة بالأخطل . وإلا فقد اختلف النقاد فى منزلـــــة الأخطل هذه وتقديمه على غيره من شعراء عصره . كما سيأتى بعد قليل.

### جـــ – المفاضلة بين الشعراء الأمويين :

وهناك نوع ثالث من المجالس الأدبية فى العصر الأموى فى المفاضلـــة بين الشعراء وهى تلك المجالس التى دار الحوار فيها حول المفاضلـــة بـــين الشعراء الأمويين وإنزال كل منهم منزلته التى يراها الناقد .

---

١ – الأغانى ٨ / ٢٩٣ .

- ومن هذه المجالس ما يروى من أنه اجتمع على باب الوليد بن عبد الملك الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والبعيث ، والأشهب بن رميلة. فدخل عليه داخل فقال : يا أمير المؤمنين : لقد اجتمع على بابك شعراء ما اجتمع مثلهم على باب ملك قط ، ثم سماهم . فأمر بالفرزدق فأدخل أولهم . فاستنشده وحادثه . ثم أمر بالباقين فأدخلوا وأخر البعيث . فقيل له فى البعيث فقال : إنه ليس كهؤلاء . فقيل له : ما هو بدونهم . فأمر به فأدخل ، ثم استنشده فقال : يا أمير المؤمنين : إنه من حضرك ظنوا أنك إنما قدمتهم على لفضل وجدته عندهم لم تجده عندى . قال : أولست تعلم أنهم أشعر منك ؟ قال : كلا والله ، ولأنشدنك من أشعارهم ما لو هجاهم أعدى الناس لهم ما بلغ منهم ما بلغوا من أنفسهم . أما هذا الشيخ الأحمق - وأشار إلى الفرزدق - فإنه قال لعبيد بنى كليب هذا - وأشار إلى جرير:

بأىِّ رشــاءٍ يا جريرُ ماتحٌ ... تدليتُ فى حوماتِ تلك القماقمِ

فجعله تدلى عليه وعلى قومه . وأما عبيد بنى كليب - وأشار إلى جرير - فقال لهذا الشيخ :

لَقومى أحمَى للحقيقةِ منكُمُ ... وأضرَبُ للجبارِ والنقعُ ساطعُ
وأوثقَ عند المردفاتِ عشيةً ... لحاقاً إذا ما جرَّدَ السيفَ لامعُ

فجعل نساءه سبايا بالغداة قد نكحن ووثقن فى عشيتهن باللحاق . وأمـــا هذا ابن النصرانية – يعنى الأخطل – فإنه قال :

لقد أوقعَ الجحافُ بالبشرِ وقعةً ... إلى الله منها المشتكَى والمعوَّلَ

فأقر بما أمر به وهنا وضعفا . وأما ابن رميلة الضعيف فإنه قال :

ولما رأيتُ القومَ ضمَّت حبالُهم ... وَنَىَ ونيةً شرَّى وما كان وانيَا

فأقر أن شره ونى عنه وقت الحاجة إليه . فقال له الوليد : لعمـــرى لقـــد عبت معيبا . ثم استنشده وأحسن جائزته " [1] .

والكلام فى هذا المجلس يدور حول منزلة الشاعر البعيث بين هـــؤلاء الشعراء : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والأشهب بن رميلة . وقد نجح البعيث أن يقنع الخليفة بأنه ليس فى منزلة أقل من منـــازل هـــؤلاء . وإن كانت له أخطاؤه فى شعره فلكل واحد منهم الأخطاء التى لا يصـــح أن تصدر عن شاعر من الشعراء الفحول . وإن كان المرزبانى يذكر أن مـــا يتصل بالفرزدق فى هذا المجلس غلط ؛ لأن الفرزدق ما ورد على خليفـــة قبل سليمان بن عبد الملك [2] .

وكان الوليد بن عبد الملك يظن أن البعيث فى منزلة شعرية أدنى مـــن

١ – الموشح ٢١٩ ، ٢٢٠ .
٢ – الموشح ٢٢٠ .

منزلة هؤلاء الشعراء . ولكن الشاعر دافع عن نفسه ، وأثبت للخليفة أنه ليس بأقل من هؤلاء مكانة شعرية ، فأتى لكل واحد منهم بما عابه وأدنى منزلته . وكأنه يقول للخليفة وللحاضرين : إن كان هؤلاء الشعراء يعدون من الفحول فإن فى شعرهم ما ينزل من مكانتهم الشعرية ، ولهم فيه من الأخطاء والمعايب ما هو مماثل لما عند غيرهم . وقد اختار البعيث من شعر هؤلاء ما قاله كل منهم فى الإساءة لنفسه أو لقومه ، وكانوا فيه أشد هجاء لأنفسهم أو لقومهم من أى هجاء آخر .

وقد اقتنع الوليد بما قاله البعيث فى شعر هؤلاء بعد أن سمع منه ما سمع . وهذا يفيد بأن لكل شاعر أخطاءه وزلاته وما يؤخذ عليه مهما بلغت منزلته الشعرية .

– وهناك مجلس آخر شبيه بالمجلس السابق رواه المزربانى ذكر فيه أن البعيث قدم على مسلمة بن عبد الملك ، وذكر حديثا قال فى آخره : " ثم قال مسلمة للبعيث : حدثنى من أشعر العرب ؟ قال : أعيار تركتها بالصمان من بنى حنظلة يكتدمون [1] . قال : ومن هم ؟ قال : الفرزدق ، وجرير ، وابنا رميلة ( يعنى الأشهب وزبانا ) . والله – أصلح الله الأمير – ما منهم رجل إلا قد قال بيتا ما يسرنى أنى قلته ولى حمر النعم . قال :

١ – أصل الكدم : العض .

وما قالوا ؟ قال : قال الفرزدق :

لقد طوّفت فى كلّ حى فلم تجد  لعورتـها كالحـىِّ بكر بن وائل
أعفَّ وأوفَى ذمةً يعقدونـهـا  وخيرًا إذا وازى الذُّرى بالكواهل

فكيف يفخر على بكر بن وائل بعد هذا ؟ وما يقول لقومه ؟ . وأما جريـو فقال :

ردّى جمالَ البين ثم تحمَّلى  فمالكِ فيهم من مقام ولاليا

فأين يقيم ابن المراغة إذا لم يقم فى عشيرته وقومه .! . وأما ابـن رميلـة فقال:

ولما رأيتُ القومَ نالت رماحُهُمْ  زبانًا ونى شرّى وما كان وانيًا

وكان الأحرى ألا ينى شره حين شك القوم زبانا " [1] .

وكما ذكرت فالكلام فى هذا المجلس شبيه إلى حد كبير بـالكلام فى المجلس الذى سبقه فى بيان أخطاء هؤلاء الشعراء ، وأن لكل شاعر زلاتـه وسقطاته مهما كانت منزلته الشعرية . فالبعيث هنا يضع الفرزدق وجريـرًا وابنى رميلة ( الأشهب وزبانا ) فى مقدمة شعراء العرب منزلة – وهـذا يعبر عن رأيه هو – ومع ذلك لم يسلم واحد منهم من الوقوع فى سقطة لا يصح أن تقع من أمثالهم .

١ – الموشح ٢١٨ .

– وفى مجلس آخر أبان النصيب عن منزلته فى الشعر ، ومنزلة بعض زملائه من شعراء الغزل فى العصر الأموى . فقد روى عن عوضة بنت النصيب أن أباها جلس مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع بودان . فقال إبراهيم : يا أبا محجن : ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك ؟ قال : بلى . جميل أصدقنا شعرا ، وكثيِّر أبكانا على الظعن ، وابن أبى ربيعة أكذبنا ، وأنا أقول ما أعرف " [١] .

وفى هذا المجلس يخبرنا الشاعر النصيب ببعض ما يعرف عن هؤلاء الشعراء الغزليين ، ويوضح منزلة كل منهم ، أو أقوى سمات كل منهم فى شعره وغزله . فيذكر أن جميل بن معمر أصدق هؤلاء الشعراء شعرا لصدقه فى حبه وعشقه . وقد عرفنا قبل ذلك أن أجود النسيب ما عبر فيه الشاعر عن إحساس صادق ينم عن صدق حبه لمن يحب ، وما كان معبرا عن تجربة واقعية أفصح عنها الشاعر فى غزله . وذكر النصيب أن كثيِّراً أقوى هؤلاء الشعراء فى البكاء على الأطلال وبكاء أهلها الظاعنين عنها . أما عمر بن أبى ربيعة فأكذب هؤلاء الشعراء فى شعره وغزله ؛ لأنه كان كثيرا ما ينسج فيه قصصا من خياله يصور فيها نفسه معشوقا لا عاشقا ، ومطلوبا لا طالبا ، ويدعى أن الفتيات يجرين وراءه يطلبن وده ، ويتمنين

---

١ – الموشح ٢٦٤ .

لقاءه . وهذا عكس ما هو مألوف فى شعر الغزل . وعلى هذا الأساس كان المفضل بن سلمة يضع من شعر عمر بن أبى ربيعة فى الغزل ويقول : " إنه لم يرق كما رق الشعراء ؛ لأنه ما شكا قط من حبيب هجرا ، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه وتشبيبه بها ، وأن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ، ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم " [1] .

ويصدق النصيب فى الحكم على نفسه فى هذا المجلس فيذكر أنه يقول فى شعره ما يعرف . ولم يشأ أن يضع نفسه فى مرتبة أعلى من غيره كما فعل غيره من بعض الشعراء . ومن خلال هذه الأحكام التى نطق بها النصيب تتضح لنا منزلة كل واحد من هؤلاء الشعراء فى أشعارهم .

– وعن المفاضلة بين عمر بن أبى ربيعة ، وعبد الله بن قيس الرقيات يروى الأصفهانى عن عبد الجبار بن سعيد المساحقى عن أبيه فيقول : " دخلت مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع نوفل بن مساحق فإنه لمعتمد على يدى ، إذ مررنا بسعيد بن المسيب فى مجلسه وحوله جلساؤه . فسلمنا عليه فرد علينا ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد : من أشعر : صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس الرقيات ، أم عمر بن أبى ربيعة ؟ فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ قال : حين يقول

---

١ – الموشح ٢٦٤ .

صاحبنا :

خليليَّ ما بـــالُ المطايــا كأنهــا ... نراها على الأدبار بالقوم تنكُـــصُ
وقد قطعــت أعناقَــهنَّ صبابــةٌ ... فأنفُسنا ممــا يلاقيــن شُـــخَّصُ
وقد أتعبَ الحادى سُراهُنَّ وانتحى ... بهن فلا يـــألو عجـــولٌ مقلِّـــصُ
يزدن بنا قربــاً فيـــزداد شـــوقنا ... إذا زاد طولُ العهدِ والبعدُ ينقُصُ

ويقول صاحبك ما شئت . فقال له نوفل : صاحبكم أشعر في الغـــزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر . فقال سعيد : صدقت »(١) .

وفي هذا المجلس تنعقد المفاضلة بين شاعرى عمر بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن قيس الرقيات . وقد رأى نوفل بن مساحق – ووافقه سعيد بـــن المسيب – أن عمر بن أبي ربيعة يتفوق على عبد الله بن قيس في الغـــزل ، أما عبد الله فيتفوق على ابن أبي ربيعة في تلويــــن شـــعره والإنشـــاد في موضوعات الشعر المختلفة .

وهذا الكلام يؤكد ما عرف عن عمر بن أبي ربيعة من كثرة شـــعره في الغزل حتى جاء معظمه في هذا الفن ولم ينشد في غيره إلا قليلاً . أمـــا عبد الله بن قيس الرقيات فله شعر كثير في المديح والغزل والهجاء ، بجانب الكثير من الشعر السياسي وغيره .

– وعن ذى الرمة وشعره دار الحوار في بعض المجالس الأدبيـــة في

---

١ – الأغاني ١ / ١١٧ ، ٥ / ٨٣ .

العصر الأموى . فقد روى المرزبانى عن أبى عبيدة قال : أنشد ذو الرمة أمير اليمامة - وجرير شاهد - فقال له الأمير : ما تقول فى شعره ؟ قال : نقط عروس وأبعار ظباء . ومع هذا فقد قدر من التشبيه على ما لم يقدر عليه غيره " [1] .

وهذا الخبر يوقفنا على أهم سمات شعر ذى الرمة . فشعره - فى رأى جرير - له بريق ورواء فى ظاهره فإذا أنت فتشت فيه عن معنى جميل أو صورة قوية عز عليك وجودها . وقد حكى عن أبى عمرو بن العلاء أنه رأى فى شعر ذى الرمة نفس رأى جرير فقال : " إنما شعر ذى الرمة نقط عروس تضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ثم تعود إلى أرواح البعر " [2] .

فشعر ذى الرمة حلو يأخذ بسمعك أول سماعك له فإذا رددت إنشاده ضعف ولم يكن له حسن . تماما كأبعار الظباء يوجد لها رائحة طيبة فى أول شمها نتيجة ما تأكله الظباء من نبات الشيح والقيصوم والنبت الطيب الرائحة ، وبعد قليل تذهب هذه الرائحة ويصير هذا البعر كغيره من الأبعار . وكذلك نقط العروس لها منظر جميل فإذا غسلتها ذهبت .

---

١ - الموشح ٢٢٦ .
٢ - الموشح ٢٢٦ .

- ما سبق كان رأى جرير فى شعر ذى الرمة . أما عن رأى الفرزدق فى شعر ذى الرمة وفى منزلته بين شعراء عصره فروى أبو عبيدة فقال : وقف الفرزدق على ذى الرمة وهو ينشد قصيدته التى يقول فيها :

إذا ارفضَّ أطرافُ السياطِ وهلَّلت جرومُ المطايا عذبتهنَّ صيدحُ

فقال ذو الرمة : كيف تسمع يا أبا فراس ؟ قال : أسمع حسنا . قال: فمالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ؟ قال : يمنعك من ذلك ويتقاعد بك ذكرك الأبعار ، وبكاؤك الديار . ثم قال :

ودوِّيَّةٍ لو أن ذا الرمةِ أمَّها لقصَّر عنها ذو الرمامِ وصيدحُ
قطعتُ إلى معروفها منكراتها إذا اشتدَّ آلُ الأمعزِ المتوضَّحُ (١)

وهذا المجلس يحدد لنا منزلة الشاعر ذى الرمة بين شعراء عصره فى رأى الفرزدق . وهو فى منزلة دون منزلة الفحول من شعراء عصره . ومفهوم كلام الفرزدق أن ذا الرمة أخر به انشغاله ببكاء الديار ووصف الفلوات عن درجة الفحول من الشعراء . وقد يقصد الفرزدق من ذلك أن ذا الرمة قابع فى الصحراء لا يخرج بشعره إلى أفنية الملوك ووجوه الحواضر ؛ وهذا ما يجعله مغمورا لا يصل إلى منزلة هؤلاء الشعراء الذين

---

١ - الأغانى ١٧ / ٣١٨ . والآل : السراب . الأمعز : الأرض الحزنة الغليظة ذات الحجارة . المتوضح : الأبيض .

يخوضون بشعرهم المجالس والمنتديات حتى أصبحوا من فحول الشـــعراء . ومما يفهم منه ذلك ما جاء فى الأغانى من أن الفرزدق دخل على الوليد بن عبد الملك أو غيره فقال له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا. قال : أفتعلـــم أحدا أشعر منك ؟ قال : لا .إلا غلاما من بنى عدى بن كعـــب يركـــب أعجاز الإبل وينعت الفلوات . ثم أتاه جرير فسأله فقال له مثل ذلـك . ثم أتاه ذو الرمة فقال له : ويحك ! أنت أشعر الناس ؟ قـــال : لا ، ولكـــن غلام من بنى عقيل يقال له مزاحم يسكن الروضات يقول وحشـــيا مـــن الشعر لا نقدر على أن نقول مثله " (1) .

فذو الرمة وإن كان بارعا فى وصف الفلـــوات وحيوانهـــا ، إلا أن إكثاره من ذلك دون غيره قصر به عن درجة الفحول من الشعراء . فقـــد عرف عنه أنه لا يجيد المدح ولا الهجاء . كما سبق أن ذكرنا من قبل (2) .

– وفى مجلس آخر من المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الشعراء ذكره المرزبانى عن يحيى بن عروة بن أذينة قال : لما قدم الفرزدق أتى مجلـــس أبى وبه الأحوص . فأنشده الأحوص شعرا فقال : من أنت ؟ فقال : الأحوص ابن محمد . قال : ما أحسن شعرك ! فقال : هكذا تقول لى ! أنا أشـــعر منك . قال : وكيف تكون أشعر منى وأنت تقول :

---

١ – الأغانى ١٧ / ٣٢٧ .

٢ – انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ١٠٢.

يقرُّ بعيني ما يقرُّ بعينها وأفضلُ شيءٍ ما به العينُ قَّرتِ

فإنه يقر بعينها أن تُنْكَح . أفيقر ذاك بعينك ؟ " [١].

وهذا المجلس يكشف لنا عن الحوار الــــذى دار بــين الأحـــوص والفرزدق حول أيهما أشعر . وقد اعترف الفرزدق للأحوص بحسن شعره وإن لم يجعله فى منزلة تعادل منزلته هو . وحين ادعى الأحوص أنه يفـــوق الفرزدق فى ذلك أسكته الفرزدق ببيت من شعره يدل على تقصــــيره فى الغزل مبينا له كيف يكون أشعر منه وقد وقع فى هذا الخطأ ؟ .

وهذا البيت بعينه اتخذ منه جرير حجة لإسكات الأحوص ودليـــلا على دنو منزلته الشعرية . وذلك فيما رواه المزربانى عن إسحاق بن يحـيى ابن طلحة بن عبيد الله قال : قدم علينا جرير المدينة فحشدنا له فبينما نحن عنده يوما إذ قام لحاجته وجاء الأحوص فقال : أين هذا ؟ قلنا : قام آنفا. وما تريد منه ؟ قال : أخبره أن الفرزدق أشرف منه وأشعر . قلنا : لا ترد ذاك. فلم ينشب أن جاء جرير . فقال الأحوص : السلام عليك . قـــال : وعليك . قال : يا ابن الخطفى : الفرزدق أشرف منك وأُشعر . فـــأقبل علينا جرير فقال : من هذا أخزاه الله ؟ قلنا : الأحوص بن محمـــــد بـــن عاصم بن عبد الله بن ثابت بن الأقلح . فقال : هذا الخبيث ابن الطيــب .

---

١ - الموشح ٢٤٥ .

ثم أقبل عليه فقال : أقلت :

يقرُّ بعيـــنى مـــا يقرُّ بعينهـــا     وأحسنُ شئٍ ما به العينُ قرَّتِ

قال : نعم . قال : فإنه يقر بعينها ......... أفيقر بعينك ؟ قال : وكان الأحوص يرمى بالأبنة . فانصرف " (١) .

فقد أبطل جرير مقولة الأحوص بتفضيل الفرزدق عليه بإفحامه عن طريق ذكره لهذا البيت الذى قاله الأحوص وكان سبة عليه . وكأنه يقول له : إن من يقول بيتا كهذا لا ينبغى أن يكون حكما بين الشعراء . فـــإذا جعل نفسه حكما بينهم لم يعتد بما يقول .

– ومن هذه المجالس ما يروى عن طلحة بن عبيد الله بن عـــوف أن الفرزدق لقى كثيِّرا بقارعة البلاط وأنا معه فقال : أنت يا أبا صخر أنسب العرب حيث تقول :

أريدُ لأنسَى ذكرَهـــا فكأنما     تـــمثَّلُ لى ليلَى بكل سبيلِ

فقال كثيِّر : وأنت يا أبا فراس أفخر العرب حيث تقول :

ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرون خلفَنا     وإن نـــحنُ أومأنا إلى الناسِ وقَّفوا (٢)

وهذا الحوار يحدد منزلة كل من كثيِّر عـــزة فى فـــن النســـيب ،

---

١ – الموشح ٢٤٥ ، وانظر الأغانى ١ / ٢٧٦ ، ٨ / ١٢ .

٢ – ذيل الأمالى والنوادر – أبو على القالى – ص ١١٩ .

والفرزدق فى فن الفخر . فيرى الفرزدق أن كثيِّرا أنسب الناس بـــالبيت المذكور حيث أبان شدة تعلقه بفتاته ، وأنه يتحمل كل صعب وشـــدة فى سبيل حبه لها ، ولكنه لا يتمكن من نسيانها أو التسلى عنها ، وكلمـا أراد ذلك وجد كل شئ حوله يذكره بها بل يراها ماثلة أمامه فى كل شئ .

كما يرى كثيِّر أن الفرزدق أفخر العرب ببيته المذكـــور ؛ حيـــث ادعى فيه أنه وقومه يقودون الناس ويتقدمونهم فى مواقف الشرف والمجد . كما أن الناس يطيعونهم فيما ينهون عنه ويكتفون منهم بمجرد الإشـارة أو الإيماء بالتوقف .

وكثير من النقاد قد عدوا بيت كثيِّر من أحسن أبيات العـــرب فى النسيب [1] ، وعدوا بيت الفرزدق المذكور من أحسن أبيات العـــرب فى الفخر [2] . وهذا المجلس يضعف من الرواية التى تقول بأن الفرزدق قـــد اغتصب البيت المذكور من جميل كما ورد فى الموشح [3] ، والأغانى [4] .

### د – المفاضلة بين جرير والفرزدق والأخطل :

وهذا نوع آخر من المجالس الأدبية فى العصر الأموى فى المفاضلـــة

---

١ – انظر أسس النقد الأدبى عند العرب ١٥٣ .
٢ – انظر : العمدة ٢ / ١٤٤ .
٣ – ص ١٥١ .
٤ – ٩ / ٣٣٥ .

بين الشعراء . وهى المجالس التى انعقدت فى المفاضلة بين الشعراء الثلاثة الكبار فى العصر الأموى : الفرزدق وجرير والأخطل . وقد انعقدت فى المفاضلة بين هؤلاء الشعراء وبيان مترلة كل منهم كثير من هذه المجالس ؛ فقد أثير جدل كبير بين النقاد فى العصر الأموى كان من آثاره كثير من المجالس الأدبية التى انعقدت حول الخلاف فى المتقدم من هؤلاء الثلاثة وكان منها كثير فى العصر الأموى،وكثير منها أيضا عقد فى العصر العباسى . ويعقب المرحوم طه إبراهيم على خلاف النقاد حول المفاضلة بين هؤلاء الشعراء فيقول : " ومع أن النقاد أحسوا بفطرقم أن الثلاثة طبقة ؛ فقد اختلفوا فى أيهم المتقدم على صاحبيه . ولم يكن النقد يومئذ بمنجاة دائما من الهوى والميل ، أو من الإحساسات الأخرى التى تضل الناقد وتنحرف به ، أو تحول بينه وبين الحكم القاطع فى أى الثلاثة أشعر . كان للعصبية أثرها حينا فى توجيه النقاد فيؤثرون أحد الثلاثة كما فعلت ربيعة . وكان لخوف الناس من لسان جرير أو الفرزدق ما يصرفهم عن التصريح بأفضلية أحدهما . فإذا سئلوا عنهما جاءوا بكلام غير دقيق ولا محدود أو أتوا عليهما معا . كانوا يرون الحكم بين جرير والفرزدق مشئوما يجر إلى سخط أحدهما . وفى سخط أحدهما البلاء " [1] .

أما عن المجالس الأدبية فى المفاضلة بين هؤلاء الشعراء الثلاثة فهناك

١ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٤٦ .

مجالس فاضل فيها أحد هؤلاء بين نفسه وبين الآخرين أو أحدهما . وهناك مجالس كان الحكم فيها يصدر على لسان أحد الأدباء أو النقاد .

- ومن المجالس الأدبية التى كان أحد الشعراء الثلاثة طرفا فى الحوار وإصدار الحكم فيها ما رواه المرزبانى عن الأصمعى قال : حدثنا هارون الأعور قال : قلت لجرير : أخبرنا عنك وعن هذين الرجلين - يعنى الأخطل والفرزدق - فقال جرير : أما أنا فمدينة الشعر . فقالوا : فالفرزدق ؟ . قال : له سن وفخر . قالوا : فالأخطل ؟ قال : أرمانا للفرائض ، وأشدنا اجتزاء بالقليل ، وأنعتنا للخمر والحمر . قالوا : فذو الرمة ؟ قال : شعره بعر ظباء ، ونقط عروس " [1] .

ونجد جريرا فى هذا المجلس يضع نفسه والفرزدق والأخطل فى المكان الذى يراه . فيحكم على نفسه بالتفوق فى كل فنون الشعر فكأنه مدينة للشعر تحوى كل الفنون والآداب . أما الفرزدق فقد تقدم فى الهجاء والفخر . أما الأخطل فبارع فى الهجاء ، مع إجادته فى إصابة المعنى بقليل من الأبيات . كما أنه مجيد فى وصف الخمر والإبل . ولم يجد السائل ما يمنع من السؤال عن ذى الرمة . وأجابه جرير بأن شعره له رونق ومذاق خارجى سرعان ما يزول وينتهى فلا يلبث إلا قليلا .

---

١ - الموشح ٢٢٦ .

- ومن هذه المجالس أيضا ما رواه صاحب الأغانى عن ابن سلام قال : أخبرنى أبو قيس عن عكرمة بن جرير قال : قلت لأبى : يا أبت : من أشعر الناس ؟ . فقال : أالجاهلية تريد أم الإسلام ؟ قلت : أخبرنى عن الجاهلية . قال : شاعر الجاهلية زهير . قلت : فالإسلام ؟ . قال : نبعة الشعر الفرزدق . قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر . قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى نحرت الشعر نحوا " [1] .

وفى هذا الخبر يحكم جرير للفرزدق بأنه نبعة الشعر وأصله وشجرته. أما الأخطل فهو مجيد فى مدح الملوك ووصف الخمر . أما جرير فقد برع فى أبواب الشعر كلها ، وأظهر فيها جميعها تفوقا واقتدارا .

- وفى مفاضلة لجرير بينه وبين الأخطل روى عن نوح بن جرير قال: بينما أنا آكل مع أبى يوما وفى فيه لقمة وفى يده أخرى . فقلت : يا أبت : أنت أشعر أم الأخطل ؟ فجرض [2] باللقمة التى فى فيه ، ورمى بالتى فى يده ، وقال : يا بنى : لقد سررتنى وسؤتنى . فأما سرورك إياى فلتعهدك لى مثل هذا وسؤالك عنه . وأما ما سؤتنى به فلذكرك رجلا قد

١ - الأغانى ٨ / ٣٣ .
٢ - جرض : بمعنى عض .

مات . يا بنى : أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلنى به . ولكنى أعانتنى عليه خصلتان : كبر سن ، وخبث دين"[1].

وهذا الحوار ينم عن قوة شاعرية الأخطل وتفوقه فى نظم الشعر ، بل وتفوقه على جرير . وإنما أعان جريرا عليه كبر سنه ونصرانيته . فكبر سنه جعلته لا يثبت طويلا أمام جرير ، وأما نصرانيته فكانت تتيح لجرير أن يهجوه من هذه الناحية فى الوقت الذى لا يجرؤ فيه الأخطل أن يرد عليه ؛ حتى لا يسئ إلى الإسلام وهو دين الخلفاء الأمويين والدين الرسمى للمجتمع الذى يعيش فيه الأخطل وقبيلته .

- ومن هذه المجالس أيضا ما روى من أنه اجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان - وكان بشر يغرى بين الشعراء - فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير . فقال : اعفنى أيها الأمير . قال : احكم بينهما . فاستعفاه بجهده ، فأبى إلا أن يقول . فقال : هذا حكم مشئوم . ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر،وجرير يغرف من بحر . فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما " [2] .

---

١ - الأغانى ٨ / ٢٨٣ .
٢ - الأغانى ٨ / ٣١٦ .

ومفهوم حكم الأخطل ( الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ) أن شعر الفرزدق يتميز بالصلابة والقوة وفخامة الألفاظ . أما جرير فشعره يتميز بالسهولة واللين والسلاسة وعذوبة الألفاظ .

ومقياس الشعر بالصلابة والقوة والفخامة ، أو باللين والسهولة والسلاسة من المقاييس النقدية التى عنى بها نقاد العرب وأطالوا الكلام فى شرحه والتمثيل له . وقد تنبه الأخطل فى العصر الأموى إلى هذا المقياس فحكم به على شعر كل من الفرزدق وجرير .

وفى عبارة الأخطل فى هذا المجلس ( هذا حكم مشئوم ) يؤكد ما نقلته سابقا عن الأستاذ طه إبراهيم من أن النقاد كانوا يرون الحكم بين جرير والفرزدق حكما مشئوما لأنه يجر إلى سخط أحدهما . وفى هذا الخبر ما يصدق هذا . فالحكم الذى أصدره الأخطل لم يرض جريرا وكان سببا من أسباب الهجاء الذى اشتد بين جرير والأخطل .

– أما عن المجالس الأدبية فى المفاضلة بين جرير والفرزدق والأخطل والحاكم فيهما واحد غير هؤلاء الشعراء فهى كثيرة . وكانت هذه المجالس أشبه بمجالس الموازنات الأدبية بين هؤلاء الشعراء . وكان كل ناقد يصدر فى الموازنة بينهم أو بين اثنين منهم الحكم الذى يتفق مع ميوله وذوقه . وكان العامة من النقاد يميلون إلى تقديم جرير لسلاسته وسهولة

شعره ، والعلماء منهم يقدمون الفرزدق لشدة أسره وقوة لفظه وصلابة شعره . وكان متقدموا النحاة واللغويين يميلون إلى تفضيل الأخطل لشدة تهذيبه للشعر وخلوه من السقط ، ولجزالته وقوة أسره ، مع ابتعاده عن لغة الشعب السهلة التى لجرير ، ولغة المعاظلة الصعبة التى للفرزدق [1] .

- ومن هذه المجالس ما رواه صاحب الأغانى عن حماد الراوية قال : أتيت الفرزدق فأنشدنى ، ثم قال لى : هل أتيت الكلب جريرا ؟ قلت : نعم . قال : فأنا أشعر أو هو ؟ فقلت : أنت فى بعض الأمر وهو فى بعض. فقال : لم تناصحنى . فقلت : هو أشعر إذا أرخى من خناقه . وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت . فقال : وهل الشعر إلا فى الخوف والرجاء ، وعند الخير والشر " [2] .

والخبر يجعل جريرا والفرزدق فى منزلتين متعادلتين تقريبا . فيثبت أن جريرا أفضل من الفرزدق فى بعض الفنون ، والفرزدق أفضل من جرير فى بعض الفنون الأخرى . وأوضح حماد الرواية حكمه بأن جريرا أشعر إذا كان مطلق العنان حرا . أما الفرزدق فهو أشعر عند الخوف والرجاء . وقد فهم الفرزدق من هذا الحكم أنه أشعر ؛ لأن الشعر فى رأيه لا يكون إلا فى الخوف والرجاء ، وعند الخير والشر .

١ - انظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٦٧ .
٢ - الأغانى ٨ / ٣٥ .

والحقيقة أن هناك مجالات أخرى غير الخوف والرجاء ينشط فيها الشعر وتظهر قيمته وأهميته واضحة ؛ فهناك النسيب الرقيق ، وهناك الوصف المصور ، وهناك الرثاء المؤثر ..... وأعتقد أن جريرا كان أفضل من الفرزدق فى مثل هذه الفنون ، ويجوز أن يتفوق عليه فى غيرها .

– ومن المجالس الأدبية فى المفاضلة بين الشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل – ما حكاه الأصفهانى عن معقل بن فلان عن أبيه عن أبى العسكر قال : كنا بباب مسلمة بن عبد الملك فتذاكرنا الشعراء الثلاثة . فقال أصحابى : حكمناك وتراضينا بك . فقلت : نعم ، هم عندى كأفراس ثلاثة أرسلتهن فى رهان . فأحدها سابق الدهر كله ، وأحدها مصل ، وأحدها يجئ أحيانا سابق الريح ، وأحيانا سكيتا ، وأحيانا متخلفا . فأما السابق فى كل حالاته فالأخطل . وأما المصلى فى كل حالاته فالفرزدق . وأما الذى يسبق الريح أحيانا ويتخلف أحيانا فجرير .

ثم أنشد :

سرى همٌّ ليلٌ كأن نجومَه قناديلُ فيهنَّ الذبالُ المفتَّلُ

وقال : أحسن فى هذا وسبق . ثم أنشد :

التغلبيةُ مهرُها فلسانِ والتغلبىُّ جنازةُ الشيطانِ

وقال : تخلف فى هذه . فخرجنا من عنده على هذا " [1] .

وقد صدق هذا الحكم فى شطره الأول ؛ وهو أن هؤلاء الشعراء كأفراس ثلاثة أرسلتهن فى رهان ، فأحدها يسبق دائما ، والآخر يخفق دائما ، والثالث يسبق حينا ويتأخر حينا . أما القول بمن فيهم السابق ، ومن المتأخر ، وبمن أمره يتذبذب بين التقدم والتأخر فهذا ما لم يتفق عليه الكثيرون ، وليس من السهل الجزم بذلك أو موافقة هذا الناقد عليه . وبناء حكمه على جرير من خلال بيت تقدم فيه ، وآخر تخلف فيه حكم على غير قاعدة مستقيمة ؛ فكل الشعراء كذلك لهم الأبيات العديدة القوية التى سبقوا بها ، ولكل منهم الأبيات الكثيرة الرديئة التى تأخروا بسببها ، ولكن النسبة تختلف فى هذا الأمر من شاعر لآخر .

– ومن هذه المجالس فى المفاضلة بين الفرزدق وجرير أيضا ما رواه صاحب الأغانى قال : بينما المهلب ذات يوم أو ليلة بفارس وهو يقاتل الأزارقة إذ سمع فى عسكره جلبة وصياحا ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك فى شئ . فأذن لهم فقالوا : إنا اختلفنا فى جرير والفرزدق . فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر ، وقد رضينا بحكم الأمير . فقال : كأنكم أردتم أن تعرضونى لهذين الكلبين فيمزقا

---

١ – الأغانى ٨ / ٢٩٩ .

جلدتي. لا أحكم بينهما ، ولكني أدلكم على من يهون عليه سبال جرير وسبال الفرزدق . عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون بالشعر ويقولون فيه بالحق . فلما كان الغد خرج عبيدة بن هلال اليشكرى ودعا إلى المبارزة . فخرج إليه رجل من عسكر المهلب كان لقطرى صديقا . فقال له : يا عبيدة : سألتك الله ألا أخبرتنى عن شئ أسألك عنه . قال : سل . قال : أو تخبرنى ؟ . قال : نعم إن كنت أعلمه . قال : أجرير أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبحك الله ! أتركت القرآن والفقه وسألتنى عن الشعر ؟ قال : إنا تشاجرنا فى ذلك ورضينا بك . فقال : من الذى يقول:

وطوى الطرادَ مع القيادِ بطونها طَيَّ التجار بحضرموتَ برودا

فقال : جرير . قال : هذا أشعر الرجلين " [1] .

وفى هذا المجلس حكم لجرير بالسبق والتقدم على الفرزدق . ولكنه أيضا حكم خاضع للذوق ، يعبر عن ذوق صاحبه ورأيه الخاص فى هذين الرجلين . وهناك بالتأكيد من يرى عكس ذلك .

وامتناع المهلب بن أبى صفرة عن إصدار حكم بين جرير والفرزدق فى هذا المجلس دليل آخر على صدق كلام المرحوم طه إبراهيم بأن الحكم بين هذين الشاعرين حكم مشئوم يجر إلى سخط أحدهما ، وفى سخط

---

١ - الأغانى ٨ / ٤١ .

أحدهما البلاء . وكلام المهلب صريح فى ذلك .

- ومن مجالس المفاضلة بين جرير والأخطل ما ورد فى الأغانى أن سليمان بن عبد الملك سأل عمر بن عبد العزيز : أجرير أشعر أم الأخطل ؟ فقال : اعفنى . قال : لا والله لا أعفيك . قال : إن الأخطل ضيق عليه كفره القول ، وإن جريرا وسع عليه إسلامه قوله . وقد بلغ الأخطل منه حيث رأيت . فقال سليمان : فضلت والله الأخطل " [1] .

وهذا الحوار يؤكد رأيا قال به جرير قبل ذلك فى حوار له مع ولده. فالأخطل فعلا ضيق عليه كفره القول ؛ لأنه كان يراعى عدم مساس الإسلام بأى سوء فى شعره حتى لا يغضب عليه الخليفة وأولو الأمر فى مجتمع كان يعيش فيه ، وكان يضع ذلك فى حسبانه جيدا كلما أراد أن ينشد شعرا . أما جرير فكان إسلامه يفسح له مجال القول، وكان يتناول مبادئ الدين المسيحى ومعتقداته دون خوف أو وجل ، وهو متيقن أن الأخطل لا يمكن أن يأتيه من هذه الناحية . ومع ذلك كان شعر الأخطل يتميز بالقوة ، واحتل الأخطل مكانة رفيعة بين شعراء الأدب العربى . وهذا يفهم منه تفضيل الأخطل على جرير ، كما فهم سليمان بن عبد الملك من كلام عمر بن عبد العزيز .

---

١ - الأغانى ٨ / ٣٠٦ .

- وهذا مجلس آخر من المجالس الأدبية التى حكم فيها لجرير بالتفوق والسبق على غيره من الشعراء . فقد روى صاحب الأغانى عن مسعود بن بشر قال : قلت لابن مناذر بمكة : من أشعر الناس ؟ قال : من إذا شئت لعب ، وإذا شئت جد . فإذا لعب أطمعك لعبه فيه ، وإذا رمته بعد عليك. وإذا جد فيما قصد له أيأسك من نفسه . قلت : مثل من ؟ قال : مثل جرير حين يقول إذا لعب :

إن الذينَ غدوا بلبك غادَروا ... وَشَلاً بعينك ما يزالُ معينا

ثم قال حين جد :

إن الذى حرمَ المكارمَ تغلبًا ... جعلَ الخلافةَ والنبوةَ فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ فهل لكمْ ... يا آلَ تغلبَ مِن أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمى فى دمشقَ خليفةٌ ... لو شئتَ ساقكمُ إلىَّ قطينا [1]

وبجانب ما فى هذا المجلس من تفضيل جرير وجعله أشعر الناس - وهو حكم يعبر عن رأى ابن مناذر الشخصى - فإن ابن مناذر يضع من خلاله أيدينا على أساس مهم من الأسس التى يقاس بها أفضل الشعراء أو المتقدم منهم على غيره . هذا الأساس هو ما عبر عنه ابن مناذر بقوله : "من إذا شئت لعب وإذا شئت جد ؛ فإذا لعب أطمعك فيه فإذا أردت

١ - الأغانى ٨ / ٥٨ .

الظفر به بعد عليك . وإذا جد فيما قصد له أيأسك من نفسه فلم تستطع الوصول إليه " . أى أن أشعر الشعراء هو من يجيد وضع كل شئ موضعه فى شعره ، ويأتى شعره متوائما مع الحالة النفسية للشاعر ومتلائما مع المقام الذى ينشد فيه .

وضرب ابن مناذر المثل على ذلك بجرير فى شعره ، فكان إذا هزل جاء بالمعانى الطريفة الرقيقة التى لا يستطيع الإتيان بها غيره رغم سهولتها ورقتها وعذوبتها . وإذا جد فافتخر مثلا ارتفع إلى درجة عالية فى الفخر ، وعلا بنفسه وقومه فوق الناس ، وجعل من نفسه وقومه مثالا فى التعالى والظهور ، كما نرى فى الأبيات المذكورة .

– وإذا كان هناك من رفع من منزلة الأخطل الشعرية حتى قدمه على جرير كما رأينا فيما سبق ، فإن هناك من أنزل من هذه المنزلة ، وجعل الأخطل فى مرتبة أدنى من غيره من كبار شعراء العصر الأموى . ففى مجلس أدبى رواه المرزبانى قال : يروى أن الأخطل كان فى مجلس ذكر أهله الشعراء فقال : أين تجعلونى منهم ؟ قالوا : أين نجعلك وقد أخطأت فى أربع لا يخطأ فى مثلهن ؟ قال : وما هن ؟ قالوا : قلت فى زفر – وأنت تريد أن تضع منه فرفعته وخوفت منه [1] . فقال : صدقتم . وماذا ؟

---

١ – يشيرون إلى قوله مخاطبا عبد الملك بن مروان يثيره على زفر بن الحارث الذى خرج على مروان بن الحكم بمرج راهط :

بنى أميـــة إنى ناصح لكمُ     فلا يبيتن فيكم آمنا زفر
يظل مفترشا كالليث كلكله     لوقعةٍ كائن فيها له جزر

قالوا: وضغوت من الجحاف ضغوة أبقيت عارها على قومــــك إلى يــوم القيامة[1]. قال : صدقتم . وماذا ؟ قالوا : وأردت هجــاء ســويد بــن منجوف فمدحته [2] . قال : صدقتم . وماذا ؟ قالوا : أردت مديح سمــاك ابن خرشنة فهجوته [3] . قال : صدقتم " [4] .

ويفهم من هذا الحوار أنهم أنزلوا من مكانة الأخطل الشعرية لخطئــه فيه وعدم توفيقه فى المدح والهجاء وخلطه بينهما فى شــعره . فكــان فى بعض الأحيان يريد الهجاء فيأتى هجاؤه مديحا ، ويقصد المدح فيأتى مديحه هجاء . وقد ساقوا له هذه المواقف الأربعة دليلا على هذا . وذكروا لــه أنه أخطأ فيها رغم أنه لا ينبغى أن يخطئ شاعر فى مثلهن . ومن هنا تــأخر

---

١ – يشيرون إلى قوله مخاطبا الجحاف فى حضرة عبد الملك بن مروان :

ألا أبلغ الجحاف هل هو ثائر      بقتلى أصيبت من سليم وعامر

فخرج الجحاف من عند عبد الملك وهو يجر طرفه غضبا ، وأغار بقومه على تغلب قــوم الأخطل .

٢ – يشيرون إلى قوله فى هجاء سويد – وكان رجلا تقتحمه العيون :

وما جذع سوء خرق السوس جوفه      لــما حــملته وائــل بــمطيق

فرفع من مكانته بين قومه .

٣ – يشيرون إلى قوله فى مدح سماك بن عمير :

نعم المجير سماك من بنى أسد      بالمرج إذ حملت جيرانها مضر

قد كنت أحسبه قينا وأنبؤه      فاليوم طير عن أثوابه الشرر

وهو من بنى عمير . وكانوا يلقبون بالقيون . ولما سمع سماك منه هذا قال له : كــان هــذا نبزا ننبز به فأردت نفيه عنا فأثبته علينا .

٤ – الموشح ١٨٧ .

عن غيره ودنت منزلته فى رأيهم .

وأخطاء الأخطل فى هذه المواقف تدل على أنه لم يكن يضع شـــعره فى مكانه ، ولم يكن يراعى حال المخاطب والمقام الذى ينشد فيه شـعره فى بعض الأحيان. وقد سبق أن عرفنا أن مراعاة الشاعر للحالـــة النفســية للمخاطب ، والمقام الذى ينشد فيه شعره من المقاييس النقدية فى الحكــم على منزلة الشعراء .

وهكذا رأينا فى المجالس السابقة صورا من الجدال الشديد والخـلاف القوى بين النقاد حول منزلة الشعراء الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل. فعلى الرغم من أن النقاد قد اتفقوا على أنهم يمثلون الطبقـــة الأولى مـــن الشعراء الإسلاميين ، إلا أنهم اختلفوا اختلافا شديدا فى تقـــديم أحدهـــم على الآخر . وكانت آراء الحكام فى المجالس الأدبية السابقة معبرة عــــن شئ من هذا الاختلاف والجدل حول هؤلاء الشعراء ومنزلة كل منهم .

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى رأيه فى المفاضلة بين هؤلاء الشـــعراء الثلاثة ، ثم أوقفنا على الصورة العامة للخلاف بين النقاد حولهم فقال :

" والفرزدق مقدم على الشعراء الإسلاميين هو وجرير والأخطـــل . ومحله فى الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول ، أو يدل على مكانه بوصــف. لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم ، ويعلمان تقدمه بالخبر الشـــائع علمـــا

يستغنى به عن الإطالة فى الوصف . وقد تكلم الناس فى هذا قديما وحديثا، وتعصبوا واحتجوا بما لا مزيد عليه . واختلفوا بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة فى أيهم أحق بالتقدم على سائرها . فأما أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ؛ لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ، ولا له مثل ما لها من فنون ، ولا تصرف كتصرفهما فى سائره . وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما . وهم فى ذلك طبقتان : أما من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق . وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريرا " [1] .

وبعد : فلعل ما قدمته فى هذا الفصل يعطينا صورة عما كان يدور فى الساحة الأدبية فى العصر الأموى من خلال المجالس الأدبية من موازنات بين الشعر والشعراء ، وعدم اقتصار النقاد فى ذلك العصر على مجرد إصدار أحكام جزئية حول بيت أو عدة أبيات لأحد الشعراء ؛ وإنما تجاوزوا ذلك إلى الحكم على شعر الشاعر كله ، أو إلى الحكم على الشاعر نفسه وبيان منزلته فى الفن الشعرى ؛ فقدموا شاعرا على آخر . وكان بينهم خلاف كبير فى ذلك ، وتعددت إجاباتهم عن أشعر الناس ، وتعددت الأسماء فى ذلك تعددا كبيرا ؛ نتيجة لما اعتمدوا عليه فى هذه المفاضلات وهو الذوق والطبع ، أو الاحتكام إلى الهوى والعصبية فى بعض

---

١ - الأغانى ٢١ / ٤١٧ ، ٤١٨ .

الأحيان .

على أن الخلاف بين النقاد فى تقديم بعض الشعر على بعض ، أو فى تقديم بعض الشعراء على بعض شئ طبيعى ما دمنا نعتمد فى ذلك على ذاتية النقد . " فليس من شك فى أن ذاتية النقد تدعو أحيانا إلى الاضطراب ، ولا سيما فى الفنون ؛ فالميول والثقافات والأمزجة مختلفة . وكل هذا يدعو إلى الاختلاف فى تقدير الشعر ، والاختلاف فى منزلة الشاعر الواحد . وطبعى جدا ألا نجد إجماعا على أكبر عنصر ، أو أجود صياغة ، أو أمتع شئ فى الأدب . وطبعى جدا ألا نعرف أشعر الناس ، كما لا نعرف أشجع الناس ما دمنا ندع ذلك إلى الذوق الفردى ، إلى الذوق الذى يتفاوت بين ناقد وآخر ، وبين ناقد ونفسه فى عهدين بعيدين" [1] . ولذلك نرى الناقد الواحد فى بعض الأحيان يحكم بالحكم الواحد على شعراء عديدين . مما يدل على تعدد الحكم نفسه بتعدد الإعجاب بالشعر فى المعنى الذى ينظر إليه الناقد . وهذه سمة من سمات الحكم على المعانى الجزئية . وقد يكون الحكم على الشاعر بأنه أشعر من غيره أو أنه أشعر الناس مبنيا على أساس أن الشاعر قد أجاد التعبير عن عاطفة أحس بها الناقد ، وكان صادقا وقويا فى التعبير عن هذه العاطفة ، أو لأن شعر الشاعر فى موقف ما جاء متناسبا مع هذا الموقف الذى يعبر

١ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه أحمد إبراهيم - ص ٦٠ .

عنه ، أو لغير ذلك من الأسباب التى يراها الناقد . ومن هنـــا تعـــددت الآراء بتعدد عواطف النقاد ، وبتعدد المواقف ، وبتعدد المناســبات ؛ لأن النقد الذاتى الفردى كان هو المسيطر على النقد فى ذلك العصر . وهو - كما عرفنا - نقد لا يقوم على أسس فنية محددة ، ولا على قواعد نقديــة ثابتة ، وإنما يخضع فى المقام الأول للذوق والطبع والإحساس الفنى لـــدى الناقد .

**تقويم :**

وبعد هذه الجولة الطويلة مع المجالس الأدبية فى العصر الأموى وأثرها فى النقد الأدبى يمكن أن نستخلص عدة نتائج تميزت بها هذه المجالس أو تميز بها النقد الأدبى الصادر عن نقاد هذه المجالس :

١ – فالمجالس الأدبية فى العصر الأموى كانت نتيجة طبيعية صدرت عن المظاهر الاجتماعية والسياسية والثقافية والأدبية التى سادت فى هذا العصر . وقد أسهمت هذه المظاهر مجتمعة فى كثرة عقد مثل هذه المجالس وانتشارها بين فئات مختلفة فى المجتمع الأموى ، وفى تعدد موضوعاتها والأشعار التى تناولتها . وخاصة فى هذا المجتمع الذى كان يتعصب أفراده لكل ما هو عربى ، ويرغب الناس فيه فى التمسك بالتقاليد العربية القديمة ، ويميلون إلى كل ما يربطهم بآبائهم وأجدادهم فى العصر الجاهلى ، وينظرون فيه إلى الأدب الجاهلى على أنه القدوة والمثل الذى ينبغى أن يسيروا فى أدبهم على أساس منه .

٢ – والمجالس الأدبية فى العصر الأموى تنوعت بتنوع أصحابها ، والأماكن التى كانت تنعقد بها ؛ فكانت هناك مجالس كثيرة تنعقد فى قصور خلفاء بنى أمية ، وأمرائهم ، وولاتهم ، دعا إليها ميولهم الفطرى إلى الأدب ، وحبهم الاستماع إليه ومدارسته ، وعروبتهم التى يتعصبون لها

ويعتزون بها . ثم حرصهم على جذب الشعراء إلى جانبهم وانضمامهم إلى صفوفهم والدعاية لهم والترويج لسياستهم .

كما كانت هناك مجالس أخرى تنعقد فى قصور أثرياء المجتمع وأدبياته . ودعاهم إلى عقدها الثراء الواسع ، والحياة الغنية المترفة ، والفراغ الكبير الذى عاش فيه كثير من هؤلاء الناس ، ثم حبهم للأدب وحسن تذوقهم له . ووجد الكثير من المجالس الأدبية التى عقدت بين الشعراء بعضهم البعض فى مجالس يسمرون فيها ويوازنون بين ملكاتهم الأدبية ومواهبهم الفنية ، دعا إليها حب التفوق وإثبات الذات لدى كل منهم .

ثم كانت هناك المجالس الأدبية الكثيرة التى عقدت بين الشعراء وبين غيرهم من المحبوبات أو النقاد أو العامة من أبناء المجتمع . ودعا إليها شيوع الثقافة الأدبية بين أبناء المجتمع الأموى وعروبة الناس فيه ، وحبهم للشعر وحسن تذوقهم له .

كما تنوعت هذه المجالس بتنوع موضوعات الشعر وفنونه ، فكما عرفنا من خلال فصول هذا البحث كانت هناك مجالس عديدة حول شعر المديح ، أو شعر الغزل والنسيب ، أو شعر الوصف ، أو شعر الفخر ، أو حتى شعر الهجاء والرثاء . وفى كل فن من هذه الفنون انعقد الكثير من

المجالس الأدبية وصدر عن النقاد فيها الكثير من الإشارات النقدية التى اتخذ منها النقاد – فيما بعد – أصلا من أصول القواعد النقدية التى يقوّمون على أساس منها الشعر والشعراء .

٣ – وبمعاودة النظر فى النقد الذى كان يصدر فى المجالس الأدبية فى العصر الأموى نرى أن النقد فيها كان قائما – أولا – على الإحساس بأثر الشعر فى النفس ، وعلى مقدار وقع الكلام على الناقد وحسه . فكان النقد مرتبطا بهذا الإحساس ، وبذوق الناقد وسليقته قبل غيرهما من أدوات الناقد . ومن هنا اتسمت أحكامهم النقدية فى هذه المجالس – فى أغلبها – بأنها أحكام ذاتية لا تقوم على تفسير أو تعليل ، ولا تستند إلى قواعد مقررة . فكان الارتجال هو السمة السائدة لدى الشعراء فى هذه المجالس ، وهو أيضا سمة الناقد فيها . وكانت تساعد على ذلك بيئتهم العربية فى كل سماتها ونواحيها ، والتى لا يحتاج الشاعر فيها ولا الجمهور إلى تعليل لما صدر عن الناقد من أحكام ؛ لأن كلا منهم يدرك أبعاد هذا الحكم وأسبابه ودواعيه حتى لو لم تعلل .

أما ما صدر من بعض الأحكام النقدية الموضوعية فى هذه المجالس فتدلنا على خبرة هؤلاء بالنقد ، وعلى قدرتهم على التعليل للحكم إن هم أرادوا أو طلب منهم ذلك . ومع ذلك جاءت تعليلاتهم تعليلات جزئية

لا تهتم بالنظرة العامة فى الأثر الأدبى ككل ، بقدر اهتمامها بالوقوف على موضع الخطأ أو الإجادة فيه .

٤ – تنوعت النواحى الفنية التى انصب عليها نقد النقاد فى هـــذه المجالس ، وسار النقد فيها فى اتجاهات متعددة . فمنها ما كان متصلا بنقد الأسلوب الشعرى ، ومنها ما كان متصلا بنقد المعنى ، ومنها مـــا كـــان منصبا على الناحية اللغوية ، ومنها ما كان متعلقا ببعض القضايا الفنيـــة الأخرى كمبدأ الصدق والكذب فى الشعر ، والتلاؤم بـــين الأبيـــات فى القصيدة ، أو التناسب بين العبارات فى الشعر ، كما رأينا نقـــدا يتصـــل بالموسيقى الشعرية ، ورأينا كذلك نقدا تراعى فيـــه الظـــروف البيئيـــة والاجتماعية التى عاش فيها الشعراء فى العصر الأموى . كما كان هنـــاك الكثير من النقد الذى يدور حول تفضيل شاعر علـــى آخـــر ، ومـــيزة الشعراء بعضهم على بعض .

٥ – ترك المجتمعون فى هذه المجالس تراثا نقديا ضخما يدل علـــى أهم توصلوا بذوقهم وفطرهم إلى ما يجب أن يكون عليه العمل الأدبى مـــن كمال وجودة وقوة تأثير فى نفس السامع ووجدانه . وأن من يتمكن مـــن الشعراء إلى أن يصل إلى درجة عالية فى هذا الكمال ويؤثر فى متلقى شعره أقوى تأثير هو الذى ينبغى أن يقدم على غيره من الشعراء .

## مراجع البحث


* القرآن الكريم .

١ - اتجاهات الشعر فى العصر الأموى : د / صلاح الدين الهادى - مكتبة الخانجى بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٦م.

٢ - اتجاهات النقد الأدبى العربى : د / محمد السعدى فرهود - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الثانية - ١٩٨٠ م .

٣ - أسس النقد الأدبى عند العرب : د / أحمد أحمد بدوى - دار نهضة مصر - القاهرة - طبعة عام ١٩٩٤ م .

٤ - الأسلوب : د / أحمد الشايب - مطبعة النهضة المصرية - الطبعة الثامنة - ١٩٩٠ م .

٥ - الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى - الدار التونسية للنشر - تونس - طبعة عام ١٩٨٣ م .

٦ - الأمالى : أبو على القالى - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - بدون تأريخ .

٧ - الأندية الأدبية فى العصر العباسى فى العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . د / على محمد هاشم - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٢ م .

٨ - البيان والتبيين : أبو عمرو الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - ١٩٩٠ م .

٩ - تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعـــي - دار الكتـــاب العربي - بيروت - طبعة عام ١٩٧٤ م .

١٠ - تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي . د / يوسف خليـــف - دار الثقافة - طبعة عام ١٩٧٥ م .

١١ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجرى . طه أحمد إبراهيم - دار الحكمة - بـــيروت - بـــدون تأريخ.

١٢ - تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى آخر القرن الرابع الهجـرى . د / محمد زغلول سلام - منشأة المعارف بالإسكندرية - الطبعة الثالثة - بدون تأريخ .

١٣ - تزيين الأسواق في أخبار العشاق : داود الأنطاكى - دار مكتبـــة الهلال - بيروت - طبعة عام ١٩٨٤ م .

١٤ - التطور والتجديد في الشعر الأموى : د / شوقى ضيـــف - دار المعارف - الطبعة السادسة - بدون تأريخ .

١٥ - الحيوان : أبو عمرو الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - طبعة عام ١٩٩٦ م .

١٦ - ديوان ابن زيدون . شرح د / يوسف فرحـــات - دار الكتـــاب العربي - الطبعة الأولى - ١٩٩١ م .

١٧ - ديوان جميل بثينة . تحقيق : فوزى عطوى - دار صعب - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٠ م .

١٨ - ديوان حسان بن ثابت . شرح وضبط : عبد الرحمن البرقوقى - دار الكتاب العربى - طبعة عام ١٩٩٠ م .

١٩ - ديوان العباس بن الأحنف . تحقيق : كرم البستانى - دار صادر ودار بيروت - طبعة عام ١٩٦٥ م .

٢٠ - ديوان كثير عزة . شرح : قدرى مايو - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م .

٢١ - ذيل الأمالى والنوادر : أبو على القالى - دار الجيل ودار الآفاق - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٧ م .

٢٢ - زهر الآداب وثمر الألباب . أبو إسحاق الحصرى القيروانى - دار الفكر العربى - الطبعة الثانية - بدون تأريخ .

٢٣ - سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجى - تحقيق : على فودة - مكتبة الخانجى - الطبعة الثانية - ١٩٩٤ م .

٢٤ - الشعراء نقادا . د / عبد الجبار المطلبى - سلسلة آفاق - دار الشئون الثقافية العامة - بغداد - الطبعة الأولى - ١٩٨٦ م .

٢٥ - الشعر والشعراء . ابن قتيبة - تحقيق وضبط : مفيد قميحة ، ونعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٥ م .

٢٦ - الصناعتين . أبو هلال العسكرى - تحقيق : على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - صيدا وبيروت - طبعة عام ١٩٨٦ م .

٢٧ - طبقات فحول الشعراء . ابن سلام الجمحى - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٨ م .

٢٨ - العصر الإسلامى . د / شوقى ضيف - دار المعارف - الطبعة الثامنة - بدون تأريخ .

٢٩ - العقد الفريد . ابن عبد ربه الأندلسى - شرح وضبط : إبراهيم الإبيارى - دار الكتاب العربى - بيروت - ١٩٩٠م.

٣٠ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . ابن رشق القيروانى - تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م .

٣١ - عيار الشعر . ابن طباطبا العلوى - تحقيق د / عبد العزيز ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشر - ١٩٨٥ م .

٣٢ - فتح القدير . محمد بن على الشوكانى - مراجعة وتعليق : الشيخ هشام البخارى - والشيخ خضر عكازى - المكتبة العصرية - صيدا وبيروت - طبعة عام ١٩٩٧ م .

٣٣ - الفهرست . ابن النديم - دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٨ م .

٣٤ - فى الشعر الأموى . د / يوسف خليف - مكتبة غريب - ١٩٩١م.

٣٥ - القاموس المحيط . الفيروز ابادى - طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٧ م .

٣٦ - الكامل فى اللغة والأدب . أبو العباس المبرد - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربى - بدون تأريخ .

٣٧ - لسان العرب . ابن منظور المصرى - طبعة دار المعارف - بدون تأريخ .

٣٨ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . ابن الأثير - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - صيدا وبيروت - طبعة عام ١٩٩٠ م .

٣٩ - مروج الذهب . المسعودى - المطبعة البهية المصرية - طبعة عام ١٣٥٦ هـ .

٤٠ - مقدمة ابن خلدون . عبد الرحمن بن خلدون - دار الفكر - بدون تأريخ .

٤١ - الموشح . أبو عبد الله محمد المزربانى - تحقيق : على محمد البجاوى - دار الفكر العربى - القاهرة - طبعة عام ١٩٦٥ م .

٤٢ - نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ابن الأنبارى النحوى - طبع حجر ببولاق بمصر - ١٢٩٤ هـ .

٤٣ - نقد الشعر . قدامة بن جعفر - تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهرية - طبعة عام ١٩٧٨ م .

٤٤ - النقد المنهجى عند العرب . د / محمد مندور - دار نهضة مصر - القاهرة - بدون تأريخ .

٤٥ - الوساطة بين المتنبى وخصومه . القاضى الجرجانى - تحقيق : هاشم الشاذلى - مطبعة عيسى البابى الحلبى - بدون تأريخ.

# ﴿ الفهـــرس ﴾

رقم الإيداع بدار الكتب
٤٨٢٤ / ٢٠٠٣ م

دار الجيار
للطباعة والنشر